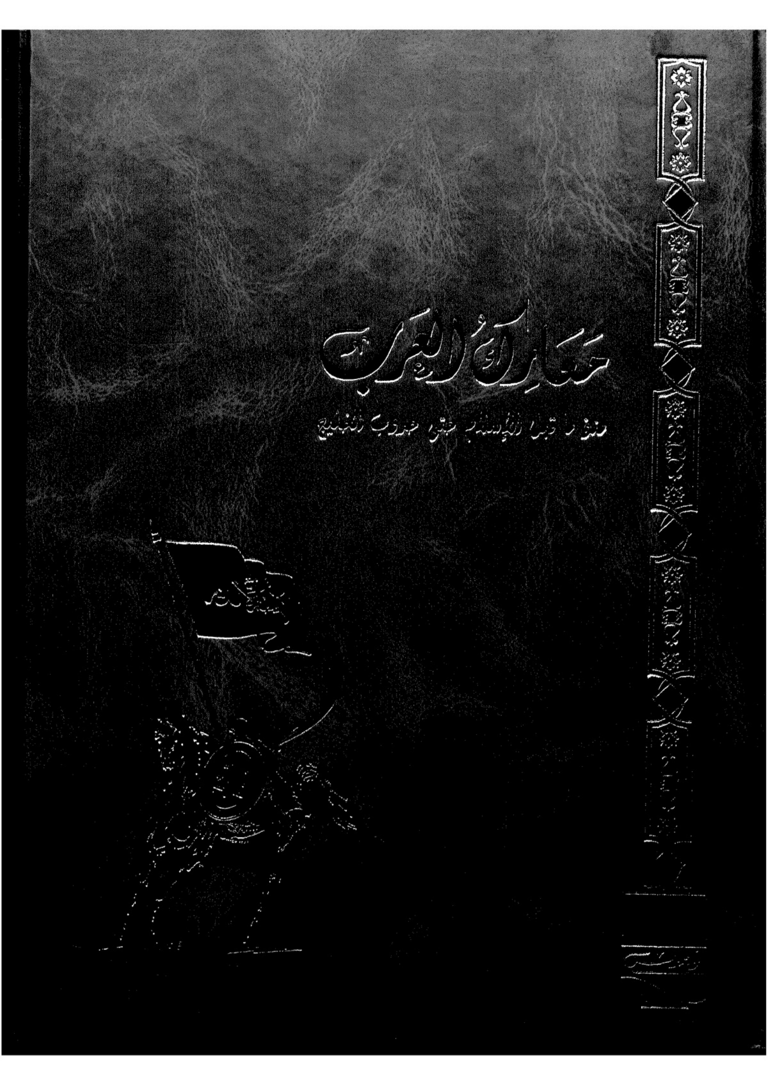
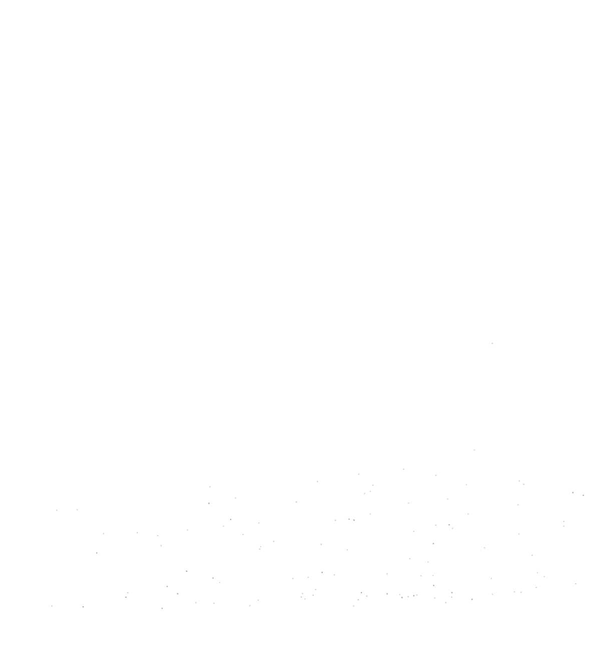

مَعَارِكُ العَرَب
منذ ما قبل الإسلام حتى حروب الخليج







معارك العرب (11)

اسم الموسوعة	:	معارك العرب
		منذ ما قبل الإسلام وحتى حروب الخليج
اسم الكتاب	:	الخلافة العبّاسيّة (2) – العصر العبّاسي الثاني أو سيطرة الترك
المؤلّف	:	العميد الركن الدكتور سامي ريحانا
قياس الكتاب	:	20x28 سم
عدد الصفحات	:	248
عدد صفحات الموسوعة	:	5920
مكان النشر	:	بيروت – لبنان
دار النشر والتوزيع	:	دار نوبليس
تلفاكس	:	961 1 58 34 75
هاتف	:	961 (1) 58 11 21 - 961 (3) 58 11 21
بريد إلكتروني	:	NOBILIS_INTERNATIONAL@hotmail.com
الطبعة الأولى	:	2007

العميد الركن سامي ريحانا

دكتور في التاريخ

معارك العرب

منذ ما قبل الإسلام
وحتى حروب الخليج

المجلّد (11)

الخلافة العباسيّة (2)

العصر العبّاسي الثاني أو سيطرة الترك

NOBILIS
2007

المقدّمة

العصر العبّاسي الثاني

يبدأ العصر العبّاسي الثاني بخلافة جعفر المتوكل على الله السنة ٢٣٢هـ، وينتهي بانتهاء خلافة المتقي بالله السنة ٣٣٣هـ. وهو عصر سيطر فيه الضباط الأتراك على الخلافة.

كان الخلفاء الأوائل، في العصر العبّاسي الأول، بدءاً من السفّاح والمنصور، وصولاً إلى هارون الرشيد، قد تمكّنوا من تثبيت حكم الخلافة العباسية، وتذليل كلّ الصعوبات التي اعترضت مسيرتها، وإخضاع الثورات التي قامت في وجهها، حتى بلغت هذه الخلافة ذروة تطوّرها في عهد هارون الرشيد (١٧٠هـ - ١٩٣هـ) وشقّت حضارتها على العالم الذي كان معروفاً يومذاك؛ لكنّ الخلفاء الذين جاؤوا بعد الرشيد كانوا قد تعوّدوا حياة القصور والرفاهية والترف ومظاهر الاحترام، وهذا ما دفعهم إلى الانغماس في حياة اللهو والخلاعة، فأقاموا مجالس الأنس والشراب والغناء، بدءاً بمحمّد الأمين الذي قامت في وجهه ثورة عارمة على يد المأمون انتهت بمقتله وتسلّم هذا الأخير الخلافة، ممّا جعل مركز الخلافة يهتزّ بسبب قتل الأمين بطريقة مذلّة.

علاوة على ذلك، بدأ الخلفاء بالانصراف عن إدارة شؤون الدولة للاهتمام بمجالس الأنس والمجون، تاركين هذه الإدارة للوزراء والقادة الذين سيطروا على القصر والخلافة، وحتى على الخليفة نفسه الذي أصبح، في العصر

العبّاسي الثاني، يتبع تعليماتهم وينفّذ رغباتهم.

أما استمرار الخلافة القويّة في عصور المأمون والمعتصم والواثق، فيعود إلى القوّة والاندفاع اللذين كان قد زرعهما فيها الخلفاء الأوائل. لذلك استمرّت الخلافة مهابة وقوية في النصف الثاني من العصر العباسي الأول، رغم اهتزاز صورتها وتراجع هيبتها وتأثيرها.

غير أن هذه الخلافة لم تستطع الاستمرار في القوّة والعزم نفسهما خلال العصر العبّاسي الثاني، كونها اتّسمت بظواهر أهمها:

- انعدام هيبة الخلافة.
- سيطرة الأتراك على القصر والخلافة وبدء عصر نفوذهم.
- تفكّك وحدة الدولة وتمرّد الأطراف عليها.

فعلى صعيد الخلافة لم يعد للخليفة العبّاسي خلال العصر الثاني الهيبة والجلال والقوّة عينها التي كان يتمتّع بها خلال العصر الأول، إذ إنه أصبح ألعوبة في يد قادته الأتراك، وأحياناً محجوزاً عليه في قصره. كما انتهى أمر بعضهم بالقتل أو الخلع من قِبَل هؤلاء القادة، لذلك لم يكن الخليفة العبّاسي يحظى بالقدر الكافي من الاحترام في أطراف دولته، بل بات رمزاً دينياً فقط.

وعلى صعيد سيطرة الترك على الخلافة العبّاسية في العصر العباسي الثاني بعد ازدياد نفوذهم منذ عهد المعتصم، فقد امتدّ تأثير هؤلاء من عاصمة الخلافة إلى ولاياتها وأمصارها، بعد أن راح الخلفاء يمنحون الإقطاعات لقادتهم مقابل دفع ثمنها لهم.

وكان صبيان الأتراك يُحملون إلى بلاط الخلفاء، في مطلع الدولة العباسية، هدايا من عمال الأمصار في تركستان. وكان الخلفاء يختارون أقواهم بنية وأجملهم خلقاً لاستخدامهم في قصورهم، ويسمّونهم المماليك. ودخل هؤلاء الفتيان في الإسلام وتثقّفوا، فبرزت مؤهّلاتهم سريعاً، فولاّهم الخلفاء مناصب الدولة وأخذوا يرتقون فيها إلى أن بلغوا أعلاها.

ومنذ عهد المعتصم، سيطر الضباط الأتراك على العاصمة بغداد، مما ولّد تذمّراً واحتجاجاً لدى الفئات الأخرى من الشعب، خاصة أن هؤلاء الأتراك بدأوا يرتكبون المخالفات ويستبدّون بسكّان

العاصمة، وهذا ما دفع المعتصم إلى بناء مدينة سامراء لهم لإبعادهم وإبعاد خطرهم عن العاصمة وسكانها.

أما الفئات التي أظهرت استياءها من سيطرة الترك، من العرب والفرس والخراسانيين، فقد ترجمت ذلك بالثورات التي قامت ضد الخلافة العبّاسية. فالخراسانيون والفرس، ورغم أن الخلافة العبّاسية كانت قد قامت على أكتافهم منذ بدايتها، فإنهم لم يتوصّلوا إلى السيطرة على الخلفاء الأقوياء خلال العصر العبّاسي الأول. والمثال الأبرز على ذلك نستشفّه من حال أبي مسلم الخراساني الذي كان أبرز وأقوى رجل في الخلافة بعد الخليفة، والذي لم يستطع السيطرة على الخليفة نفسه، بل إن المنصور أرسل في طلبه وقتله وتخلّص منه.

كذلك الحال مع البرامكة الذين كانوا وزراء لدى الخليفة هارون الرشيد، وكانت لهم القوّة والمكانة والثراء والكرم، ما جعلهم في مركز يحسدهم الخليفة عليه. إلاّ أنهم لم يسيطروا على الخليفة نفسه الذي، ما أن شك في ولائهم، حتى أنزل بهم الضربة القاضية التي أنهت، ليس فقط سيطرتهم، بل وجودهم أيضاً.

لكنّ الحال تغيّرت مع سيطرة الأتراك، الذين توصّل أحدهم ويدعى «إيتاخ» إلى السيطرة كلّياً على مقدرات الدولة في عهد الخليفة المتوكل إذ كان مسؤولاً عن الجيش والبريد والحجابة ودار الخلافة، ولا يجري أمرٌ فيها إلاّ بمعرفته وأوامره.(١)

أمّا الخليفة المعتز، الذي خاف من الأتراك فاصطنع المغاربة والفراغنة لموازنتهم في السلطة، فقد انتهى أمره بأن قتل السنة ٢٥٥هـ. على يد الأتراك الذين أعلنوا الثورة ضدّه لأنّه قصّر في عطائهم.

وأمّا طريقة قتل المعتز، فتُظهر بوضوح مدى استخفاف الجند بالخليفة، إذ ذكر جرجي زيدان تفاصيل مقتله المهين، فكتب:(٢)

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتب العملية، بيروت، ٢٠٠٣، جزء ٦، ص ١٠١.

(٢) جرجي زيدان، المؤلّفات الكاملة، دار نوبليس، بيروت، ٢٠٠٣ - ٢٠٠٤، جزء ٣١، ص ١٠٥.

- انظر ملحق رقم ١: طريقة وفاة الخلفاء العباسيين.

«دخلوا حجرته وجرّوه برجله إلى باب الحجرة، وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه، وأوقفوه في الشمس، فكان يرفع رجلاً ويضع الأخرى لشدّة الحرّ. وبقي بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده، وأدخلوه حجرة وأحضروا ابن أبي الشوارب القاضي وجماعة فأشهدوهم على خلعه، ثم سلّموه إلى من يعذّبه، ومنعوه الطعام والشراب ثلاثة أيام. ثم أدخلوه سرداباً وجصصوه عليه فمات».

ونظراً إلى هذا الوضع ضعفت سلطة الدولة وتقلّصت سلطة الخلفاء، حتى اقتصرت على السواد ما بين دجلة والفرات. ولم يدخل القرن الرابع للهجرة حتى انحصرت سلطتهم في مدينة بغداد، فراحت الدولة العباسية تتفكّك بعد أن استهان ولاة الأقاليم بالسلطة المركزية، فراحت الولايات تستقل وتتشكّل في كلّ منها أسرة حاكمة يتولّى أفرادها السلطة عن طريق الوراثة.

وكانت تبعيّة هذه الولايات للسلطة المركزية دينية وإسمية فقط، إذ ظلّ الخليفة يعتبر الرأس الديني للدولة الإسلامية، يذكر اسمه فقط في الخطبة، وترسل إليه الأموال أحياناً. وبلغ الأمر ببعض حكّام الولايات أن اصطدموا بجيوش الخلافة في أحيان عديدة، وهذا ما دفع المؤرّخين إلى اعتبار الدولة العبّاسية مفكّكة خلال العصر العبّاسي الثاني، الذي سنحصر دراستنا عنه بالعمليات العسكرية التي حصلت من دون العودة إلى ما جاء في هذه المقدّمة من أفكار.(١)

---

(١) انظر خريطة الدول المستقلّة عن الخلافة في الشرق الإسلامي.

ملحق رقم ١

طريقة وفاة الخلفاء العباسيين

المستند: مجموعة ابن الأثير، دار الكتب العملية، بيروت، ٢٠٠٣.

أولاً – العصر العباسي الثاني

الخليفة	سنة الوفاة	سبب الوفاة
المتوكل على الله	٢٤٧ هـ	قتله الأتراك.
المنتصر بالله	٢٤٨ هـ	وفاة طبيعية بسبب ورم في معدته.
المستعين	٢٥٢ هـ	خلع نفسه من الخلافة وبايع المعتزّ بضغط من الأتراك.
المعتزّ	٢٥٤ هـ	قتله الأتراك.
المهتدي	٢٥٧ هـ	خلعه الأتراك وقتلوه.
الموفّق	٢٧٨ هـ	توفي بسبب المرض.
المعتمد	٢٧٩ هـ	قيل انه اغتيل بالسم. وقيل إنه خُنق.
المعتضد	٢٨٩ هـ	توفي بعد مرض.
المكتفي	٢٩٥ هـ	توفي بعد مرضه أشهراً عدّة.
المقتدر	٢٩٦ هـ	خلع على يد القادة والقضاة والكتاب والوزير العبّاس ابن الحسن. ثمّ قتل سنة ٣٢٠ في معركة مع مؤنس المظفّر. القادة هم من الأتراك.
	٣٢٢ هـ	ابتدأت دولة بني بويه.
القاهر بالله	٣٢٣ هـ	خلعه الجند.
الراضي بالله	٣٢٩ هـ	مات بمرض الاستسقاء.
المتقي بالله	٣٣٣ هـ	ضلع من قبل توزون (من القادة الأتراك).

ثانياً – العصر العباسي الثالث

الخليفة	سنة الوفاة	سبب الوفاة
المستكفي بالله	٣٣٤ هـ	خلع على يد الديلم ونهبت دار الخلافة حتى لم يبقَ فيها شيء. ثمّ حبس وسملت عيناه وتوفي السنة ٣٣٨.
المطيع لله	٣٦٣ هـ	خلع بأمر سبكتكين (مولى).
الطائع لله	٣٨١ هـ	قبض عليه بهاء الدولة (من الديلم) ونهبت دار الخلافة. توفي السنة ٣٩٣.
القادر بالله	٤٢٢ هـ	توفي وفاة طبيعية.
القائم بأمر الله	٤٦٧ هـ	مرض وتوفي.

ثالثاً – العصر العباسي الرابع

الخليفة	سنة الوفاة	سبب الوفاة
المقتدي بأمر الله	٤٨٧هـ	قيل إنه سمّم
المستظهر بالله	٥١٢ هـ	توفي بعد مرضه.
المسترشد بالله	٥٢٩ هـ	قتل. كان السلطان مسعود قد وضع عليه شروطاً أن لا يجمع عسكراً وأن لا يخرج من داره. قتله ٢٤ رجلاً من الباطنية، ومثّلوا به فجدعوا أنفه وثلموا أذنيه، وتركوه عرياناً. كما قتل نفر من أصحابه.

الخليفة	سنة الوفاة	سبب الوفاة
الراشد بالله	٥٣٢ هـ	كان قد كتب ورقة للسلطان مسعود بخط يده جاء فيها: «إني متى جندت أو خرجت أو لقيت أحداً من أصحاب السلطان بالسيف، فقد خلعت نفسي من الأمر». السنة ٥٣٠ خرج مع عماد الدين زنكي من بغداد بعد محاصرتها وانعدام الأمن فيها، فخلعه مسعود من الخلافة، ثمّ قتلته الباطنية السنة ٥٣٢.
المقتفي لأمر الله	٥٥٥ هـ	توفي بعد مرضه.
المستنجد بالله	٥٦٦ هـ	مرض واشتدّ مرضه، فاتفق أستاذ الدار عضد الدولة أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء، وقطب الدين قايماز أكبر أمراء بغداد، فأمرا الطبيب بأن يصف له ما يؤذيه، ففعل، فمات الخليفة.
	٥٦٧ هـ	إقامة الخطبة العبّاسية بمصر وانتهاء الخلافة الفاطمية فيها.
المستضيء بأمر الله	٥٧٥ هـ	توفي بطريقة طبيعية.
الناصر لدين الله	٦٢٢ هـ	توفي بطريقة طبيعية.
الظاهر بأمر الله	٦٢٣ هـ	توفي بطريقة طبيعية.

ملاحظات:

- خلال العصر العبّاسي الثاني، ومن أصل ثلاثة عشر خليفة، توفي خمسة فقط بسبب المرض، وقتل ثلاثة، وخلع من الخلافة خمسة خلفاء.

- خلال العصر العبّاسي الثالث، ومن أصل خمسة خلفاء، توفي اثنان في صورة طبيعية، وخلع ثلاثة ونهبت دار الخلافة مرتين.

- خلال العصر العبّاسي الرابع، ومن أصل تسعة خلفاء، توفي خمسة في صورة طبيعية، وقتل اثنان، وسمم اثنان.

- تمكننا ملاحظة العدد الكبير من الخلفاء الذين قتلوا أو سمّموا أو خلعوا. فمن أصل ٢٧ خليفة توفي في صورة طبيعية ١٢ فقط. أما الخمسة عشر الآخرون، فقد قُتلوا أو خُلعوا أو سُمّموا أي ٥٥،٥٥٪.

الفصل الأول

العمليات العسكرية في عهد المتوكّل

أول خلفاء العصر العبّاسي الثاني كان المتوكل، واسمه جعفر بن المعتصم. بُويع في السنة الثانية والثلاثين بعد المائتين إثر وفاة الواثق. وكانت قد حضرت إلى دار الواثق جماعة من الكبار، فيهم القائد التركي إيتاخ، وقرروا البيعة لمحمّد بن الواثق، وكان غلاماً أمرد، فألبسوه درّاعة سوداء فإذا هو قصير، فقال وصيف: «أما تتّقون الله، تولون الخلافة مثل هذا».(١)

ثمّ تناظروا في من يولونه، فأحضروا جعفراً بن المعتصم، فألبسوه الدّراعة وعمّموه وقالوا له: السلام عليك يا أمير المؤمنين، ورحمة الله وبركاته. وكان عمره يومذاك ستاً وعشرين سنة.(٢)

وكانت أيام المتوكل أحسن الأيام لاستقامته وشمول الناس بالأمن والعدل والكرم. وكان الفتح بن خاقان التركي أقرب الناس إليه وأكثرهم تقدّماً منه.(٣)

وبايع المتوكل لبنيه الثلاثة: محمهد المنتصر بالله وأبي عبدالله المعتز بالله، والمستعين بالله، وقد تسلّموا الخلافة الواحد بعد الآخر.

---

(١) ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني بيروت، ١٩٩٩، جزء ٥، ص ٥٧٨.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٩٤.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، جزء ٤، ص ٩٨ - ١٠٢.

وسخط المتوكل على وزير الواثق محمد بن عبد الملك الزيات بعد خلافته بأشهر، فصادر أمواله وعذّبه حتى مات، وقلّد مكانه أبا الوزير.

وأعطى المتوكل الشاكرية من الجند ثمانية أشهر، وللمغاربة أربعة، ولغيرهم ثلاثة، فاستبشر الناس به.[1]

١ - القتال ضدّ محمد بن البعيث[2]

في السنة الرابعة والثلاثين والمائتين للهجرة كان محمد بن البعيث بن الحليس ممتنعاً في حصونه بأذربيجان وأعظمها حصن «مَرَند».[3] إلاّ أنه جيء به أسيراً من أذربيجان إلى سامراء، أول أيام المتوكل، حيث سجن فيها.[4] لكن ابن البعيث هرب من سجنه إلى حصن مرند حيث جمع الطعام.

واجتمع إليه من أراد الفتنة من ربيعة وغيرهم، فأصبح في نحو ألفين ومائتي رجل، فأرسل المتوكل جيوشاً عدّة لقتاله، نقل أخبارها الطبري الذي كتب:[5]

«وكان الوالي بأذربيجان محمد بن حاتم بن هرثمة، فقصّر في طلبه (أي في طلب ابن البعيث) فولّى المتوكل حمدويه بن عليّ بن الفضل السعديّ أذربيجان، ووجّهه من سامرّاء على البريد. فلما صار إليها جمع الجند والشاكريّة ومَن استجاب له، فصار في عشرة آلاف، فزحف إلى ابن البَعيث، فألجأه إلى مدينة مَرَند - وهي مدينة استدارتها فرسخان وفي داخلها بساتين كثيرة، ومن خارجها كما تدور شجر إلاّ في موضع أبوابها - وقد جمع فيها ابن البعيث آلة الحصار، وفيها عيون ماء. فلمّا طالت مدّته، وجّه المتوكل زِيرَك التركيّ في مائتي ألف فارس من الأتراك؛ فلم يصنع شيئاً

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، جزء ١٠، ص ٣٣٠.

(٢) في ابن خلدون: البغيث.

(٣) مرند: من مشاهير مدن أذربيجان - وهي مدينة حصينة فيها عيون ماء ولها بساتين كثيرة داخل الحصن.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٨١.

(٥) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، جزء ٥، ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

فوجّه إليه المتوكل عمرو بن سيسل بن كال في تسعمائة من الشاكرية، فلم يُغن شيئاً. فوجّه إليه بغا الشرابيّ في أربعة آلاف ما بين تركيّ وشاكريّ ومغربيّ، وكان حمدويه بن عليّ وعمر بن سيسل وزيرك زحفوا إلى مدينة مَرَند، وقطعوا ما حولها من الشجر، فقطعوا نحواً من مائة ألف شجرة وغير ذلك من شجر الغِياض. ونصبوا عليها عشرين منجنيقا، وبنوا بحذاء المدينة ما يستكنّون فيه. ونصب عليهم ابن البعيث من المجانيق مثل ذلك؛ وكان مَن معه من علوج رساتيقه يرمون بالمقاليع، فكان الرّجل لا يقدر على الدنوّ من سور المدينة، فقُتل من أولياء السلطان في حَربه في ثمانية أشهر نحو من مائة رجل، وجُرح نحو من أربعمائة، وقتل وجرح أصحابه مثل ذلك.

أمام مقاومة ابن البعيث الشديدة، أرسل المتوكل القائد بغا الشرابي في ألفي فارس[1] الذي أمّن من بداخل الحصن فخرج ابن البعيث منه هارباً فلاحقة بغا وأخذه أسيراً.

كتب ابن الأثير عن نهاية القتال حول مرند:[2]

«ولمّا قرب بغا الشرابي من مرند بعث عيسى بن الشيخ بن الشليل ومعه أمان لوجوه أصحاب ابن البعيث أن ينزلوا وأمان لابن البعيث أن ينزل على حكم المتوكل فنزل من أصحابه خلق كثير بالأمان. ثمّ فتحوا باب المدينة فدخل أصحاب المتوكل وخرج ابن البعيث هارباً فلحقه قوم من الجند فأخذوه أسيراً وانتهب الجند منزله ومنازل أصحابه وبعض منازل أهل المدينة. ثمّ نودي بالأمان، وأخذوا لابن البعيث أختين، وثلاث بنات، وعدّة من السراري. ثمّ وافاهم بغا الشرابي من غد فأمر فنودي بالمنع من النهب وكتب بالفتح لنفسه وأخذ ابن البعيث إليه».

ولمّا احضر ابن البعيث أمام المتوكل، أمر بقطع رأسه، لكنه عاد وعفا عنه، غير أنه توفي بعد شهر في سامراء.

---

(١) في الطبري: أربعة آلاف فارس.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٠١.

٢ - نكبة القائد إيتاخ[١]

سبق الحديث في المقدّمة عن القائد التركي إيتاخ، وما كان يملك من سلطة في عهد المتوكل الذي قرّر، بعد جلسة شرب معه، قتله.

نقل ابن خلدون الرواية الكاملة عن إيتاخ ونكبته، فكتب:[٢]

«كان إيتاخ مولى السلام الابرص، وكان عنده ناخوريا طبّاخاً وكان شجاعاً فاشتراه المعتصم منه سنة تسع وتسعين وارتفع في دولته ودولة الواثق ابنه. وكان له المؤنة في سامراء مع اسحاق بن إبراهيم بن مصعب، وكانت نكبة العظماء في الدولة على يديه وحبسهم بداره، مثل أولاد المأمون وابن الزيّات وصالح وعجيف وعمر بن الفرَج وابن الجُنيد وأمثالهم. وكان له البريد والحجابة والجيش والمغاربة والأتراك. وشرب ذات ليلة مع المتوكل فعربد على إيتاخ، وهمّ إيتاخ بقتله ثمّ غدا عليه فاعتذر له ودسّ عليه من زيّن له الحج فاستأذن المتوكل فأذن له وخلع عليه وجعله أمير كلّ بلد يمرّ به.

وسار لذلك في ذي القعدة سنة أربع وثلاثين أو ثلاث وثلاثين، وسار العسكر بين يديه وجعلت الحجابة إلى وصيف الخادم. ولمّا عاد إيتاخ من الحج بعث إليه المتوكل بالهدايا والألطاف، وكتب إلى اسحاق بن إبراهيم بن مصعب يأمره بحبسه. فلما قارب بغداد كتب إليه إسحاق بأنّ المتوكل أمر أن يدخل بغداد وأن تلقاه بنو هاشم ووجوه الناس، وأن يقعد بدار خُزيمة بن خازم فيأمر للناس بالجوائز على قدر طبقاتهم، ففعل ذلك. ووقف إسحاق على باب الدار فمنع أصحابه من الدخول إليه، ووكل بالأبواب ثمّ قبض على ولديه منصور ومظفّر وكاتبيه سليمان بن وهب وقدامة بن زياد، وبعث إيتاخ إليه يسأله الرفق بالولدين ففعل. ولم يزل إيتاخ مقيداً بالسجن إلى أن مات فقيل إنهم منعوه الماء. وبقي إبناه محبوسين إلى أن أطلقهما المنتصر بعد المتوكل».

---

(١) في ابن خلدون: اتياخ - ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٨٠.

(٢) ابن خلدون، المرجع نفسه، ص ٥٨٠ - ٥٨١.

٣ - ثورة أرمينيا

في السنة السابعة والثلاثين والمائتين للهجرة حصلت ثورة في أرمينيا ضد الخليفة المتوكل، كان سببها أنه كان على أرمينيا الوالي يوسف بن محمد، فجاءه في أحد الأيام بطريق بطارقتها يطلب الأمان فألقى يوسف القبض عليه وعلى ابنه نعمة وسيّرهما إلى الخليفة المتوكل.

كتب الطبري عن اندلاع الثورة في ارمينيا:(١)

«فذُكر أن يوسف لمّا حمل بقراط بن أشُوط اجتمع عليه ابن أخي بُقراط بن أشوط وجماعة من بطارقة أرمينيا. وكان الثلج قد وقع في المدينة التي فيها يوسف، وهي - فيما قيل - طرون. فلما سكن الثلج أناخوا عليها من كلّ ناحية، وحاصروا يوسف ومَن معه في المدينة، فخرج يوسف إلى باب المدينة، فقاتلهم فقتلوه وكلّ مَن قاتل معه. فأما مَن لم يقاتل معه؛ فإنهم قالوا له: ضع ثيابك، وانج عرياناً؛ فطرح قوم منهم كثير ثيابهم، ونجوا عُراة حُفاة، فمات أكثرهم من البرد، وسقطت أصابع قوم منهم ونجوا. وكانت البطارقة لمّا حمل يوسف بقراط بن أشوط تحالفوا على قتله، ونذروا دمه، ووافقهم على ذلك موسى بن زرارة، وهو على ابنة بقراط. فنهى سوادة بن عبد الحميد الحجّافيّ يوسف بن أبي سعيد عن المقام بموضعه، وأعلمه بما أتاه من أخبار البطارقة، فأبى أن يفعل، فوافاه القوم في شهر رمضان، فأحدقوا بسور المدينة والثلج ما بين عشرين ذراعاً إلى أقلّ حول المدينة إلى خِلاط إلى دُبَيل، والدنيا كلّها ثلج.

وكان يوسف قبل ذلك قد فرّق أصحابه في رساتيق عمله، فتوجّه إلى كلّ ناحية منها قوم من أصحابه. فوجّه إلى كلّ طائفة منهم من البطارقة، وممن معهم جماعة، فقتلوهم في يوم واحد، وكانوا قد حاصروه في المدينة أياماً، فخرج إليهم فقاتل حتى قُتل».

أمام هذه الثورة، أرسل الخليفة القائد بغا الكبير لإخمادها فنفّذ سلسلة عمليات ناجحة اختصرها ابن خلدون الذي كتب:(٢)

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣١٣.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء٥ ، ص ٥٨٤ - ٥٨٥.

«فسرّح المتوكل بغا الكبير، فسار على الموصل والجزيرة وأناخ على أردن[1] حتى أخذها وحمل موسى وإخوته إلى المتوكل. وقتل منهم ثلاثين ألفاً وسبى خَلقاً وسار إلى مدينة دبيل فأقام بها شهراً، ثمّ سار إلى تفليس فحاصرها وبعث في مقدّمته ربزك التركي. وكان بتفليس إسحاق بن إسماعيل بن إسحاق مولى بني أمية فخرج وقاتلهم. وكانت المدينة كلّها مشيَّدة من خشب الصنوبر، فأمر بغا أن يرمي عليها بالنفط فاضطرمت النار في الخشب، واحترقت قصور إسحاق وجواريه وخمسون ألف إنسان وأسر الباقون. وأحاطت الأتراك والمغاربة بإسحاق فأسروه وقتله بغا لوقته. ونجا أهل إسحاق بأمواله إلى صعدنيل، مدينة حذاء تفليس على نهر الكرمن من شرقيّه بناها أنوشروان وحصنها إسحاق، وجعل أمواله فيها فاستباحها بغا. ثمّ بعث الجند إلى قلعة أخرى بين بَردَعَة وتفليس ففتحوها وأسروا بطريقها. ثمّ سار إلى عيسى بن يوسف في قلعة كيس من كور البليقان ففتحها وأسره وحمل معه جماعة من البطارقة، وذلك سنة ثمان وثلاثين ومائتين».

٤ – المعارك في جزيرة صقلية وفتح قصريانة

في السنة السابعة والثلاثين والمائتين توفي أمير صقلية محمد بن عبد الله، فاجمع المسلمون فيها على ولاية العباس بن الفضل بن يعقوب، فولوه أمرهم. وكان العباس يغير ويرسل السرايا وتأتيه الغنائم؛ فلمّا ولي الجزيرة خرج بنفسه، وعلى مقدّمته عمه رباح الذي أرسله في سرية إلى قلعة أبي ثور ففتحها وأسر بعضاً من سكانها. ثمّ توجّه إلى قصريانة فنهب وأحرق وخرّب من دون أن يستطيع فتحها.

وفي السنة ثمان وثلاثين ومائتين خرج، ومعه جيش كبير، حتى بلغ قصريانة فغنم وخرّب في قطانية وسرقوسة ونوطس ورغوس، ونزل على بثيرة وحاصرها خمسة أشهر، فصالحه أهلها على خمسة آلاف رأس.

---

(١) في ابن الأثير: ارزن.

وفي السنة أربعة وأربعين ومائتين تمكن العباس من فتح قصريانة في حملة نقل أخبارها ابن الأثير وأخبار إنجازات العباس في جزيرة صقلية، فكتب:(١)

«في سنة أربع وأربعين ومائتين فتح المسلمون مدينة قصريانة – وهي المدينة التي بها دار الملك بصقلية. وكان الملك قبلها يسكن سرقوسة، فلمّا ملك المسلمون بعض الجزيرة نقل دار الملك إلى قصريانة لحصانتها. وسبب فتحها أن العباس سار في جيوش المسلمين إلى مدينة قصريانة، وسرقوسة وسيّر جيشاً في البحر فلقيهم أربعون شلندي للروم فاقتتلوا أشدّ قتال فانهزم الروم وأخذ منهم المسلمون عشر شلنديات برجالها وعاد العباس إلى مدينته. فلمّا كان الشتاء سيّر سرية فبلغت قصريانة فنهبوا وخربوا وعادوا ومعهم رجل كان له عند الروم قدر ومنزلة فأمر العباس بقتله، فقال: استبقني ولك عندي نصيحة. قال: وما هي؟ قال: أملّكك قصريانة والطريق في ذلك أن القوم في هذا الشتاء وهذه الثلوج آمنون من قصدكم إليهم فهم غير محترسين. ترسل معي طائفة من عسكركم حتى أدخلكم المدينة. فانتخب العباس ألفي فارس أنجاد أبطال وسار إلى أن قاربها وكمن هناك مستتراً وسيّر عمّه رباحاً في شجعانهم فساروا مستخفين في الليل والرومي معهم مقيَّد بين يدي رباح، فأراهم الموضع الذي ينبغي أن يملك منه. فنصبوا السلاليم وصعدوا الجبل ثمّ وصلوا إلى سور المدينة قريباً من الصبح والحرس نيام فدخلوا من نحو باب صغير فيه يدخل منه الماء وتلقى فيه الأقذار. فدخل المسلمون كلّهم فوضعوا السيف في الروم وفتحوا الأبواب.

وجاء العباس في باقي العسكر فدخلوا المدينة وصلّوا الصبح يوم الخميس منتصف شوال وبنى فيها في الحال مسجداً ونصب فيه منبراً وخطب فيه يوم الجمعة. وقتل من وجد فيها من المقاتلة وأخذوا ما فيها من بنات البطارقة بحليهن وأبناء الملوك وأصابوا فيها ما يعجز الوصف عنه، وذل الشرك يومئذ بصقلية ذلاً عظيماً. ولما سمع الروم بذلك أرسل ملكهم بطريقاً من القسطنطينية

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١١٣ – ١١٤.

في ثلاثمائة شلندي وعسكر كثير فوصلوا إلى سرقوسة فخرج إليهم العباس من المدينة ولقي الروم وقاتلهم فهزمهم فركبوا في مراكبهم هاربين وغنم المسلمون منهم مائة شلندي. وكثر القتل فيهم ولم يصب من المسلمين ذلك اليوم غير ثلاثة نفر بالنشاب.

وفي سنة ست وأربعين ومائتين نكث كثير من قلاع صقلية وهي سطر وابلا، وأبلاطنوا، وقلعة عبد المؤمن، وقلعة البلوط، وقلعة أبي ثور، وغيرها من القلاع. فخرج العباس إليهم فلقيهم عساكر الروم فاقتتلوا فانهزم الروم وقتل منهم كثير. وسار إلى قلعة عبد المؤمن وقلعة ابلاطنوا فحصرها فأتاه الخبر بأن كثيراً من عساكر الروم قد وصلت فرحل إليهم فالتقوا بجفلودي وجرى بينهم قتال شديد فانهزمت الروم وعادوا إلى سرقوسة وعاد العباس إلى المدينة وعمر قصريانة وحصنها وشحنها بالعساكر.

وفي سنة سبع وأربعين ومائتين سار العباس إلى سرقوسة فغنم. وسار إلى غيران قرقنة فاعتلّ ذلك اليوم ومات بعد ثلاثة أيام ثالث جمادى الآخرة فدفن هناك فنبشه الروم وأحرقوه. وكانت ولايته إحدى عشرة سنة وأدام الجهاد شتاء وصيفاً وغزا أرض قلورية، وانكبردة وأسكنها المسلمين».

٥ – انتفاضة أهل حمص

في السنة السابعة والثلاثين والمائتين،[١] انتفض أهل حمص وطردوا عاملها، فبعث إليهم المتوكل جنداً من دمشق والرملة فتمكّن منهم. كتب ابن خلدون عن انتفاضة حمص ما يلي:[٢]

«في سنة سبع وثلاثين وثب أهل حمص بعاملهم أبي المُغيث موسى بن إبراهيم الرافقي بسبب قتله بعض رؤسائهم، فأخرجوه وقتلوا من أصحابه. فوُلّيَ مكانه محمد بن عبدويه الأنباري، فأساء إليهم وعسف فيهم فوثبوا به. وأمدّه المتوكل بجند من مشق والرملة فظفر بهم وقتل منهم

---

(١) في ابن الأثير: في سنة ٢٤٠هـ.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٨٥ – ٥٨٦.

جماعة، وأخرج النصاري منها، وهدم كنائسهم وأدخل منها بيعة في الجامع كانت تجاوره».

٦ - غزو الروم لمصر

في السنة الثامنة والثلاثين والمائتين غزا الروم مصر في ثلاثمائة مركب، وكانت دمياط أول مدينة هوجمت.

نقل الطبري تفاصيل مهاجمة مراكب الروم لدمياط، فكتب:[١]

«وفي هذه السنة جاءت للروم ثلاثمائة مركب مع عرفا وابن قطونا وأمر دناقه - وهم كانوا الرؤساء في البحر - مع كلّ واحد منهم مائة مركب. فأناخ ابن قطونا بدمياط، وبينها وبين الشطّ شبيه بالبحيرة يكون فيها الماء إلى صدر الرجل؛ فمن جازها إلى الأرض أمِن من مراكب البحر. فجازها قوم فسلِموا، وغرق قوم كثير من نساء وصبيان. واحتمل من كانت له قوّة في السفن؛ فنجوا إلى ناحية الفسطاط، وبينها وبين الفسطاط مسيرة أربعة أيام. وكان والي معونة مصر عنبسة بن إسحاق الضّبيّ، فلما قرب العيد، أمر الجند الذين بدمياط أن يحضروا الفسطاط لتحمل لهم في العيد، وأخلى دمياط من الجند. فانتهى مراكب الروم من ناحية شطا التي يعمل فيها الشطويّ، فأناخ بها مائة مركب من الشلنديّة؛ يحمل كلّ مركب ما بين الخمسين رجلاً إلى المائة؛ فخرجوا إليه وأحرقوا ما وصلوا إليه من دورها وأخصاصها، واحتملوا سلاحاً كان فيها أرادوا حمله إلى أبي حفص صاحب إقريطش نحواً من ألف قناة وآلتها، وقتلوا مَن أمكنهم قتله من الرجال، وأخذوا من الأمتعة والقَند والكتّان ما كان عُبّئ ليُحمل إلى العراق، وسبوا من المسلمات والقبطيات نحواً من ستمائة امرأة. ويقال إن المسلمات منهنّ مائة وخمس وعشرون امرأة والباقي من نساء القِبط.

ويقال إن الروم الذين كانوا في الشلنديات التي أناخت بدمياط كانوا نحواً من خمسة آلاف رجُل، فأوقروا سفنهم من

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣١٧.

المتاع والأموال والنساء، وأحرقوا خزانة القلوع وهي شُرُع السفن، وأحرقوا مسجد الجامع بدمياط، وأحرقوا كنائس. وكان مَن حُزر منهم ممن غرق في بحيرة دمياط من النساء والصبيان أكثر ممن سباه الرّوم. ثمّ رحل الروم عنها.

وذُكر أنّ ابن الأكشف كان محبوساً في سجن دمياط، حبسه عنبسة، فكسر قيده وخرج؛ فقاتلهم، وأعانه قوم، فقتل من الروم جماعة. ثمّ صاروا إلى أشتوم تِنّيس، فلم يحمل الماء سفنهم إليها، فخشوا أن توحَل؛ فلما لم يحملهم الماء صاروا إلى أشتومها - وهي مرسى بينه وبين تِنّيس أربعة فراسخ وأقلّ، وله سور وباب حديد كان المعتصم أمر بعمله. فخرّبوا عامته، وأحرقوا ما فيه من المجانيق والعرّادات، وأخذوا بابيه الحديد، فحملوهما، ثمّ توجّهوا إلى بلادهم، لم يعرض لهم أحد».

٧ - الفداء بين المسلمين والروم

في السنة الحادية والأربعين حصل تبادل للأسرى بين المسلمين والروم، فعاد من الأسر سبعماية وخمسة وثمانون رجلاً ومائة وخمساً وعشرون امرأة.

كتب ابن الأثير عن هذا التبادل: (١)

«كان الفداء بين المسلمين والروم بعد أن قتلت تدورة ملكة الروم من أسرى المسلمين اثني عشر ألفاً. فإنها عرضت النصرانية على الأسرى، فمن تنصّر جعلته أسوة من قتله من المتنصرة، ومن أبى قتلته؛ وأرسلت تطلب المفاداة لمن بقي منهم. فأرسل المتوكل شنيفاً الخادم على الفداء وطلب قاضي القضاة جعفر بن عبد الواحد أن يحضر الفداء ويستخلف على القضاء من يقوم مقامه فأذن له فحضره واستخلف على القضاء ابن أبي الشوارب - وهو شاب. ووقع الفداء على نهر اللامس، فكان أسرى المسلمين من الرجال سبعمائة وخمسة

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٢٢.

وثمانين رجلاً ومن النساء مائة وخمساً وعشرين امرأة».

٨ - غارات البجاة[١] على مصر

منذ فتح مصر اتُفق على هدنة بين المسلمين والبجاة. وكانت بلادهم تنتج معدن الذهب الذي يقاسمونه مع من يعمل فيها ويؤدّون منه الخمس إلى أهل مصر.[٢]

وفي عهد المتوكّل امتنعوا عن أداء الخراج وقتلوا من وجدوه من المسلمين في منطقتهم وسبوا عدّة من ذراريهم ونسائهم. وذكروا أنّ المعادن لهم في بلادهم وأنهم لا يأذنون للمسلمين في دخولها. وقد أوحش ذلك كلّ من كان يعمل في المعادن من المسلمين، فانصرفوا عنها خوفاً على أنفسهم وذراريهم، فانقطع بذلك ما كان يؤخذ للخليفة بحقّ الخمس من الذهب والفضة والجوهر الذي يستخرج من المعادن.[٣]

وكان المتوكل قد ولّى بريد مصر رجلاً من خدمه يقال له يعقوب بن إبراهيم الباذغيسي المعروف بقوصرة، وجعل إليه بريد مصر والإسكندرية وبرقة ونواحي المغرب. فكتب يعقوب إلى المتوكل يخبره أن البجاة قد نقضوا العهد الذي كان لهم مع المسلمين وخرجوا من بلادهم إلى منطقة المعادن.

نقل ابن كثير ردّة فعل المتوكل والقتال مع البجاة وإخضاعهم لحكم الخليفة، فكتب:[٤]

«فغضب المتوكل من ذلك غضباً شديداً، وشاور في أمر البجة فقيل له: يا أمير المؤمنين إنهم قوم أهل إبل وبادية، وإن بلادهم بعيدة ومعطشة، ويحتاج الجيش الذاهبون إليها أن يتزودوا لمقامهم بها طعاماً وماءً، فصدّه ذلك عن البعث إليهم. ثمّ بلغه أنهم يغيرون على أطراف الصعيد، ويخشى أهل مصر على أولادهم منهم، فجهّز لحربهم محمد بن عبد الله القمي،

(١) البجاة (في الطبري البجة) هم من أحد أجناس الأحباش في النوبة والسودان.
(٢) ذكر الطبري أن ما يؤدّونه ٤٠٠ مثقال من التبر قبل ان يطبخ ويصفّى.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣٢٢.
(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص ٣٤٥ - ٣٤٦.

وجعل إليه نيابة تلك البلاد كلّها المتاخمة لأرضهم. وكتب إلى عمّال مصر أن يعينوه بكلّ ما يحتاج إليه من الطعام وغير ذلك، فتخلص وتخلص معه من الجيوش الذين انضافوا إليه من تلك البلاد حتى دخل بلادهم في عشرين ألف فارس وراجل. وحمل معه الطعام الأدام في مراكب سبعة، وأمر الذين هم بها أن يلجوا بها في البحر فيوافوه بها إذا توسّط بلاد البجة. ثمّ سار حتى دخل بلادهم وجاوز معادنهم. وأقبل إليه ملك البجة - واسمه علي بابا - في جمع عظيم أضعاف من مع محمد بن عبد الله القمي، وهم قوم مشركون يعبدون الأصنام. فجعل الملك يطاول المسلمين في القتال لعلّه تنفد أزوادهم فيأخذونهم بالأيدي. فلمّا نفد ما عند المسلمين، طمع فيهم السودان فيسّر الله وله الحمد بوصول تلك المراكب وفيها من الطعام والتمر والزيت وغير ذلك مما يحتاجون إليه شيء كثير جداً، فقسمه الأمير بين المسلمين بحسب حاجاتهم. فيئس السودان من هلاك المسلمين جوعاً فشرعوا في التأهّب لقتال المسلمين، ومركبهم الإبل شبيهة بالهجن زعرة[1] جداً كثيرة النفار، لا تكاد ترى شيئاً ولا تسمع شيئاً إلاّ جفلت منه. فلمّا كان يوم الحرب عمد أمير المسلمين إلى جميع الأجراس التي معهم في الجيش فجعلها في رقاب الخيول. فلمّا كانت الوقعة حمل المسلمون حملة رجل واحد فنفرت بهم إبلهم من أصوات تلك الأجراس في كلّ وجه، وتفرّقوا شذر مذر. وأتبعهم المسلمون يقتلون من شاؤوا، لا يمتنع منهم أحد، فلا يعلم عدد من قتلوا منهم إلاّ الله عزّ وجل. ثمّ أصبحوا وقد اجتمعوا رجالة فكبسهم القمي من حيث لا يشعرون فقتل عامة من بقي منهم وأخذ ملكهم بالأمان، وأدى ما كان عليه من الحمل، وأخذه معه أسيراً إلى الخليفة. وكانت هذه الوقعة في أول يوم من هذه السنة [وكان وصوله إلى الخليفة في أواخر هذه السنة]،[2] فولاه

---

(١) زعرة: قليلة الشعر.

(٢) سنة ٢٤١ هـ.

الخليفة على بلاده كما كان، وجعل إلى ابن القمي أمر تلك الناحية والنظر في أمرها ولله الحمد والمنّة».

٩ - غزوات إلى بلاد الروم

خلال خلافة المتوكل جرت حروب عديدة مع الروم نختصرها بالآتي:[١]

* غزا الصائفة السنة سبع وثلاثين ومائتين للهجرة علي بن يحيى الأرمني فغنم وعاد سالماً. كما غزا علي الصائفة في السنة التالية.

* في السنة الحادية والأربعين والمائتين خرجت الروم من ناحية سميساط[٢]، بعد خروج علي بن يحيى الأرمني من الصائفة، حتى قاربوا آمد وخرجوا من الثغور الجزرية حتى انتهبوا وأسروا نحواً من عشرة آلاف. وكان دخولهم من ناحية أرين (قرية قريباس)، ثمّ رجعوا. فخرج قريباس وعمرو بن عبد الله الأقطع وقوم من المتطوّعة في آثارهم، فلم يلحقوهم، فكتب المتوكل إلى علي بن يحيى أن يسير إلى بلادهم شاتياً.

* في السنة الرابعة والأربعين والمائتين غزا الصائفة بغا الكبير فافتتح صلمة.

* في السنة التالية أغارت الروم على سميساط فقتلوا وسبوا وأسروا خلقاً كثيراً.

وغزا الصائفة علياً بن يحيى الأرمني.

وفيها منع أهل لؤلؤة رئيسهم من الصعود إليها ثلاثين يوماً، فبعث إليهم ملك الروم بطريقاً يضمن لكلّ رجل منهم ألفا دينار على أن يسلموا له لؤلؤة، فلم يقبلوا.

* في السنة السادسة والأربعين والمائتين غزا عمرو بن عبد الله الأقطع الصائفة فأخرج سبعة عشر ألف[٣] رأس.

وغزا الفضل بن قارن في نحوٍ من عشرين مركباً فافتتح حصن أنطاكية، وغزا بلكجور فغنم وسبى. وغزا علي بن يحيى فأخرج خمسة آلاف رأس من الدواب ونحواً من عشرة آلاف رأس.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١١١ - ١٤٥.

(٢) في الطبري شمشاط والأصح سميساط - وهي مدينة على شاطىء الفرات لناحية بلاد الروم.

(٣) في الطبري: سبعة آلاف رأس.

وفي السنة عينها كان الفداء بين الأسرى المسلمين والروم على يد علي بن يحيى الأرمني، ففودي بألفين وثلاثمائة وسبعة وستين مسلماً.

١٠ - مقتل المتوكل

في السنة السابعة والأربعين والمائتين قتل الخليفة المتوكل على الله على يد ولده المنتصر.[١] وكان المتوكل قد عهد بولاية العهد إلى المنتصر، ثمّ ندم وأبغضه وكان يسميه «المستعجل». كما أن المنتصر تنكّر عليه بسبب السماح لندمائه بشتم الإمام علي علانية. وهذا ما دفع بالمتوكل إلى إعطاء الأمر لوزيره بصفع ابنه المنتصر.[٢]

علاوة على ذلك أمر المتوكل ابنه عبد الله المعتز، الذي كان ولي العهد بعد المنتصر، بأن يخطب بالناس يوم الجمعة فأدّاها أداءً بليغاً، فغضب المنتصر.[٣]

وكان بعض الأمراء قد حقدوا على المتوكل بسبب تصرّفاته تجاههم، منهم بغا ووصيف الكبير والصغير ودواجن وغيرهم. كما أن المتوكل كان قد صادر ضياع وصيف الكبير بأصبهان وأقطعها الفتح بن خاقان. وهكذا أصبح الجو مؤاتياً للمنتصر للفتك بوالده.

فلما كان يوم عيد الفطر، خطب المتوكل بالناس وعنده بعض ضعف من علّة به، ثمّ انتقل إلى خيام كانت قد ضربت له فنزل فيها. ثمّ استدعى في الثالث من شوال ندمائه على عادته فأكل وشرب. ثمّ اتفق ولده المنتصر مع جماعة الأمراء على الفتك به، فدخلوا عليه ليلة الأربعاء لأربع خلون من شعبان، وهو على السماط، فابتدروه بالسيوف فقتلوه وولوا بعده ابنه المنتصر.[٤]

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١٠، ص ٣٧٢.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٩٢.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣٣٤.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٣٨.
- المسعودي، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٣٨ - ١٣٩.

١١ – الدروس والعِبَر والنتائج

أ – في القتال ضد ابن البعيث، وبغية تأمين حرية عمل جيش الخلافة العباسية، اتخذ قائده بغا الشرابي تدابير ميدانية نذكر منها:

* – قطع الأشجار المحيطة بالمدينة والتي كانت تشكّل عائقاً أمام بلوغها.
* نصب عشرين منجنيقاً حول المدينة والرمي إلى داخلها.
* تشييد أكواخ حولها لاستراحة الجند.

إنما، ورغم ذلك، لم يتمكّن هذا الجيش من فتح المدينة، الأمر الذي دفع قائده إلى تأمين أهله وحاميته الذين فتحوا بابها أمام المهاجمين، ما أنهى القتال لمصلحة الشرابي.

فالذي فشل الجيش العباسي من تحقيقه من خلال الحرب تمكّن قائده من إنجازه بالتفاوض. لذلك نرى أنه على القائد العسكري استنفاد كلّ الوسائل السلمية قبل اللجوء إلى العنف، خاصة خلال عمليات الأمن داخل البلاد «فالحرب هي متابعة السياسة بوسائل أخرى»، فإن نجحت السياسة أو المفاوضات في حلّ المشكلة أمكن تجنّب الحرب.

ب – كان المسلمون قد عجزوا عن فتح قصريانة، في جزيرة صقلية، بسبب حصانتها ومنعة أسوارها. ودام الوضع كذلك إلى أن قادهم إلى داخلها أحد الأسرى الروم الذي استأمن بعدما كان قد تقرّر قتله. أرسل المسلمون جيشاً من ألفي فارس، سار الرومي في طليعته عبر مسالك سرّية وأراضٍ تغطيها الثلوج، فبلغوا المدينة التي دخلوها فيما الحرس نيامٌ مطمئنون لاقتناعهم بصعوبة بلوغ المدينة عبر الجهة التي قدم منها المسلمون. وهذا ما أدى إلى سقوط المدينة بيد الجيش الإسلامي.

من خلال دراسة هذه الحادثة نؤكّد على ما يأتي:

* ضرورة الحصول على معلومات وافية عن العدو قبل خوض القتال ضده، وبجميع الوسائل، وخاصة عبر أعمال الجاسوسية وعملاء الاستخبارات الذين يزرعون في صفوفه، أو أسراه الذين يقررون العمل مع القيادة الصديقة.
* خلال الدفاع عن موقع أو حصنٍ أو مدينة، ينبغي عدم إهمال أي جانب من جوانب القطاع الدفاعي والذي قد يهاجم

العدو المدينة عبره. علاوة على ذلك، ينبغي إبقاء المدافعين في تأهب دائم، وتنظيم دوريات مراقبة وتفتيش للتأكد من سهرهم الدائم على الحراسة. هذا مع التأكيد أن العدو قد يستغل الظروف المناخية الصعبة لتوجيه ضربته.

ج - سبقت الملاحظة إلى أن المبادرة العسكرية كانت خلال العصر العباسي الأول بأيدي المسلمين نظراً لمنعة الدولة واستقرارها وتولي الخلفاء القادرين للسلطة. ومنذ عهد المتوكل أي منذ بداية العصر العباسي الثاني، عادت الإمبراطورية البيزنطية إلى أخذ زمام المبادرة، فسيّرت أول حملة بحرية قوية ضمّت ثلاثمائة مركب إلى مصر. وقد تمكّنت هذه الحملة من الدخول إلى دمياط وإحراقها ومصادرة ما فيها وقتل عدد كبير من رجالها، وسبي حوالى ستمائة امرأة.

لذلك نعود للتأكيد على ان الوضع العسكري الخارجي للدولة يعكس وضعها الداخلي الذي، إذا كان مستقراً وآمناً، أصبح بإمكان الدولة مدّ قوتها إلى الخارج والتوسع على حساب جيرانها. وعندما يسود الدولة عدم استقرار يتراجع أداؤها العسكري الخارجي إلى مستوياته الدنيا.

د - إنتفض أهل حمص وطردوا عامل المتوكل الذي أرسل جيشاً أعاد إخضاع المدينة. لقد أخطأ أهل حمص في تقدير «ميزان القوى» بينهم وبين عدوّهم، فأخلّوا بمبدأ الحرب الأول أي نسبية الأهداف للوسائل، وهُزموا.

هـ - وفي القتال ضد البجاة، ورغم بُعد بلادهم وصعوبة بلوغها، فإن الخليفة المتوكل تمكّن من إخضاع الثائرين بعد اتخاذ تدابير ميدانية مهمّة نذكر منها:

* تسيير حملة كبيرة لقتالهم.
* تعيين قائد الحملة والياً على بلادهم وما جاورها، الأمر الذي حفّزه القتال وإلى بذل كلّ جهوده في سبيل إنجاح مهمته.
* طبّق قاعدة حشد القوى من جميع أعمال مصر تطبيقاً لمبدأ الحرب الأول.
* لوجستياً، كلّف عمال مصر بتأمين الطعام للجيش عندما يعبر مناطقهم. ونقل الطعام في السفن عبر النهر، الأمر الذي أمّن للجيش الاكتفاء الذاتي من الطعام واللوجستية.

أما قائد الحملة، فقد لجأ إلى وسيلة مبتكرة لتنفير إبل السودانيين إذ جعل أجراساً في رقاب خيول فرسانه مؤمِّناً بذلك مبدَأَيْ الحرب الثاني (حرية العمل) والثالث (الحصيل الأقصى للوسائل). كما تمكّن من الفصل بين هجّانة[1] البجاة ومشاتهم فأفقدهم حرية عملهم وتفوقهم العددي، الأمر الذي سمح له بسحقهم.

أما ملك البجاة، فقد راح يطاول المسلمين مراهناً على نفاذ طعامهم فأخطأ في ذلك ويئس من هلاكهم جوعاً.

(١) هجّانة: راكبو الإبل.



الفصل الثاني

العمليات العسكرية في عهد خلفاء المتوكل

كان بنو العباس قد وُلوا الخلافة وامتدّت سلطتهم إلى كلّ ولاياتها، كما كان بنو أمية من قبلهم. ثمّ سار عبد الرحمن بن معاوية بن هشام إلى الأندلس حيث أقام الإمارة الأموية التي لم تعترف بالولاء للخلافة العباسية. هذه الإمارة أصبحت في عهد عبدالرحمن الناصر خلافة قائمة في ذاتها، مستقلّة عن الخلافة العباسية.

وبعد قتل داعية الشيعة حسين بن علي بن حسن المثنى وجماعة من أهل بيته سنة تسع وتسعين ومائة، فرّ إدريس بن عبد الله بن حسن إلى المغرب الأقصى، وقام بدعوته هناك، فاقتطع المغرب عن الخلافة العباسية وأقام فيه الدولة الإدريسية.

داخلياً، ضعفت الدولة العباسية بعد أن تغلّب القادة الأتراك على الخليفة الذي أصبح تحت رحمتهم. ثمّ قتل المتوكل وحدثت الفتنة في بغداد، وانتقل العلويون إلى إعلان دعوتهم جهاراً، فدعا أبو عبد الله الشيعي سنة ست وثمانين ومائتين بأفريقيا لعبيد الله المهدي بن محمد بن جعفر بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وبايع له. ثمّ انتزع أفريقيا الشمالية من بني الأغلب واستولى عليها وعلى المغرب الأقصى ومصر والشام حيث أقيمت الخلافة الفاطمية التي اقتطعت هذه المناطق من الدولة العباسية.

ثمّ ظهر في طبرستان الحسن بن زيد وعرف بالداعي العلوي، فخرج سنة خمسين ومائتين للهجرة إلى الديلم الذين أسلموا على يديه. بعد ذلك استولى على طبرستان

ونواحيها، حيث أقام دولته التي استولى عليها الديلم في ما بعد.

وفي اليمن أظهر ابن إبراهيم طباطبا الدعوة الزيدية وملك بلاد اليمن، مستقلاً بذلك عن الدولة العباسية.

وفي نواحي البصرة أقام يحيى بن الحسين بن القاسم دولته العلوية سنة تسعين ومائتين.

كما ظهرت في نواحي البحرين وعُمان دولة نادت بالدعوة لعبد الله المهدي، خرجت عن طاعة بني العباس وبقيت قائمة حتى آخر المائة الرابعة للهجرة.

وفي ما وراء النهر استبدّ بنو سامان آخر الستين ومائتين وأقاموا دولتهم التي لم تعترف بالولاء للخليفة العباسي وبقيت حتى آخر المائة الرابعة للهجرة أيضاً.

ثمّ كانت للديلم دولة أخرى استولوا فيها على النواحي، قبل أن يسيروا إلى بغداد ويملكوها، فيصبح الخليفة تحت حمايتهم. وقد أصبحت دولتهم يومذاك من أعظم الدول.

كما قامت دولة السلاجقة من الغزّ وهم أحد شعوب الترك، وذلك من السنة الأربعين والأربعمائة إلى آخر المائة السادسة، وكانت أيضاً من أعظم الدول.

وهكذا بدا أن بني العباس يسيطرون فقط على ما بين دجلة والفرات وأعمال السواد وبعض أعمال فارس فقط، إلى أن خرج التتار من الصين وزحفوا إلى الدولة السلجوقية، وهم على دين المجوسية، وهاجموا بغداد فقتلوا الخليفة المستعصم السنة ٦٥٦ هجرية، فانتقلت الخلافة مع المماليك إلى مصر.

لذلك، وبعد وفاة المتوكّل مقتولاً، بدأت مساحة الدولة العباسية في الانحسار إلى أن زالت من الوجود السنة ٦٥٦هـ.

في هذا الفصل سنتكلّم عن العمليات العسكرية في عهد خلفاء المتوكل، بدءاً بزمن ابنه وخليفته المنتصر.

١ - مبايعة المنتصر

بويع محمد بن جعفر المنتصر في صبيحة الليلة التي قتل فيها المتوكل في السنة السابعة والأربعين بعد المائتين. واستخلف، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وكانت بيعته

بالقصر المعروف بالجعفري الذي أحدث بناءه المتوكل. وكان الموضع الذي قتل فيه المتوكل هو الموضع الذي قتل فيه شيرويه أباه كسرى إبرويز، واسمه الماخورة. وقد أقام فيه المنتصر سبعة أيام، ثمّ انتقلَ عنه وأمر بتخريبه.(١)

كتب ابن الأثير عن مبايعة المنتصر أنه «لمّا أصبح يوم الأربعاء حضر الناس الجعفرية من القواد والكتاب والوجوه والشاكرية والجند، وغيرهم، فقرأ عليهم أحمد بن الخصيب كتاباً يخبر فيه عن المنتصر أن الفتح ابن خاقان قتل المتوكل، فقتله به، فبايع الناس وحضر عبيد الله بن خاقان فبايع وانصرف».(٢)

ولما بويع المنتصر ولّى على المظالم أبا عمرو أحمد بن سعيد، وعلى دمشق عيسى بن محمد النوشزي وعلى وزارته أحمد بن الخصيب.(٣)

٢ - خلع المعتز والمؤيد

بعدما استقامت الأمور للمنتصر، تفاوض وصيف وبغا وأحمد بن الخصيب في شأن المعتزّ والمؤيّد لما توقّعوا من سطوتهما بسبب قتل المتوكل، فحملوا المنتصر على خلعهما لأربعين يوماً من خلافته.(٤) فبعث إليهما بذلك، فأجاب المؤيد وامتنع المعتز. كتب ابن خلدون عن المبايعة هذه:(٥)

«وامتنع المعتز، فأغلظوا عليه وأوهموه القتل، فخلا به المؤيد وتلطّف به حتى أجاب وخلع نفسه، وكتبا ذلك بخطهما. ثمّ دخلا على المنتصر فأجلسهما واعتذر لهما بسمع من الأمراء بأنهم الذين حملوه على خلعهما فأجبتهم إلى ذلك خوفاً عليكما منهم، فقبّلا يده وشكرا له وشهد عليهما القضاة وبنو هاشم والقواد ووجوه الناس».

---

(١) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٤٨.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٤١.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٩٧.
(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣٤٧.
(٥) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٩٧ - ٥٩٨.

٣ - العمليات العسكرية في عهد المنتصر

لم يحكم المنتصر أكثر من سنة، إذ بويع سنة سبعٍ وأربعين ومائتين وتوفي في السنة التالية.

أما العمليات التي جرت في عهده فنذكر منها:

أ - في صقلية:

أخرج أميرها عبد الله بن العباس السرايا ففتح قلاعاً متعدّدة، منها جبل أبي مالك وقلعة الأرمنين وقلعة المشارعة. كما قصدت سرية سرسوقة [١] فغنم قائدها وخرّب وأحرق، وقاتل جندها فظفر بهم. ثمّ استأمن إليه أهل رغوس فأمنهم.[٢]

وفتحت أيضاً مدينة نوطس، وسبب ذلك أن بعض أهلها أخبر المسلمين بموضع دخلوا منه إليها فملكوها وغنموا منها أموالاً طائلة.

وسار القائد خفاجة السنة اثنتين وخمسين إلى سرقوقة، ثمّ إلى جبل النار، فجاءه رسل أهل طبرمين[٣] يطلبون الأمان، فأمّنهم. ثمّ غدر هؤلاء فأرسل خفاجة أحد قادته في جيش إليها ففتحها وسبى أهلها.

علاوة على طبرمين افتتح خفاجة حصوناً كثيرة في صقلية. وفي السنة التالية سار من بالرم إلى سرقوسة وقطانية[٤] وخرّب بلادها وزرعها وعاد إلى بالرم.

أما العمليات الأخرى في صقلية فذكرها ابن الأثير الذي كتب:[٥]

«وفي سنة أربع وخمسين ومائتين سار خفاجة في العشرين من ربيع الأول وسيّر

(١) سرسوقة هي أكبر مدن صقلية.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٤٣.

(٣) طبرمين: قلعة حصينة بصقلية.

لقد أكملنا الحديث عن العمليات في صقلية رغم أنها جرت بعد عهد المنتصر، وذلك لجمعها في مكان واحد.

(٤) قطانية: مدينة كبيرة في صقلية - في معجم البلدان كتبت قطانة.

(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٤٤ - ١٤٥.

ابنه محمداً على الحراقات وسيّر سرية إلى سرقوسة فغنموا. وأتاهم الخبر أن بطريقاً قد سار من القسطنطينية في جمع كثير فوصل إلى صقلية فلقيه جمع من المسلمين فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم الروم وقتل منهم خلق كثير وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة. ورحل خفاجة إلى سرقوسة فأفسد زرعها وغنم منها وعاد إلى بَلرم. وسيّر ابنه محمداً في البحر مستهل رجب إلى مدينة غيطة فحصرها وبثّ العساكر في نواحيها وشحن مراكبه بالغنائم وانصرف إلى بلرم في شوال.

وفي سنة خمس وخمسين ومائتين سيّر خفاجة ابنه محمداً إلى مدينة طَبَرمين وهي من أحسن مدن صقلية فسار في صفر إليهما، وكان قد أتاهم من وعدهم أن يدخلهم إليها من طريق يعرفه فسيّره مع ولده. فلمّا قربوا منها تأخّر محمد وتقدّم بعض عسكره رجالة مع الدليل فأدخلهم المدينة وملكوا بابها وسورها وشرعوا في السبي والغنائم. وتأخّر محمد بن خفاجة فيمن معه من العسكر عن الوقت الذي وعدهم أنه يأتيهم فيه، فلمّا تأخّر عنهم ظنوا أن العدو قد أوقع بهم فمنعهم من السبي فخرجوا عنها منهزمين. ووصل محمد إلى باب المدينة ومن معه من العسكر فرأى المسلمين قد خرجوا منها فعاد راجعاً. وفيها في ربيع الأول خرج خفاجة وسار إلى مرسة وسير ابنه في جماعة كثيرة إلى سرقوسة فلقيه العدو في جمع كثير فاقتتلوا فوهن المسلمون وقتل منهم. ورجعوا إلى خفاجة، فسار إلى سرقوسة فحصرها وأقام عليها وضيّق على أهلها وأفسد بلادها وأهلك زرعهم. وعاد عنها يريد بَلَرم فنزل بوادي الطين وسار منه ليلاً فاغتاله رجل من عسكره فطعنه طعنة فقتله وذلك مستهل رجب وهرب الذي قتله إلى سرقوسة وحمل خفاجة إلى بَلَرم فدفن بها. وولى الناس عليهم بعده ابنه محمداً وكتبوا بذلك إلى الأمير محمد بن أحمد أمير إفريقية فأقره على الولاية وسير له العهد والخلع».

ب - غزوات إلى بلاد الروم:

في السنة الثامنة والأربعين والمائتين كلّف المنتصر وصيفاً التركي بغزو بلاد الروم. وسبب ذلك أنه كان بين وصيف وأحمد بن الخصيب وزير المنتصر جفوة وتباغض، فحرّض ابن الخصيب الخليفة على وصيف

وأشار إليه بإخراجه في جند للغزو. فأمر المنتصر بإحضار وصيف وقال له:[1]

«أتانا عن طاغية الروم أنه أقبل يريد الثغور، وهذا أمر لا يمكن الإمساك عنه، فإما شخصتَ وإما شخصتُ أنا». فقال وصيف: «بل اشخص يا أمير المؤمنين».

فأمر الخليفة وزيره أحمد بن الخصيب بتزويده بما يحتاج إليه، ففعل، وانتخب له من الرجال اثنتي عشر ألفاً.

سار وصيف وعلى مقدمته مزاحم بن خاقان. وبعد مسيره جاءه أمر المنتصر يأمره بالمقام في الثغر أربع سنين يغزو في أوقات الغزو منها، إلى أن يأتيه أمره.[2]

٤ - وفاة المنتصر وبيعة المستعين

في السنة الثامنة والأربعين ومائتين للهجرة توفي المنتصر في يوم الأحد لخمس خَلَوْن من ربيع الآخر، وكانت علّته الذبحة في حلقه. وقيل إن علته كانت من ورم في معدته صعد إلى فؤاده فمات. وقيل إن أحد أطبائه فصده بمبضع مسموم فمات منه. وصلى عليه أحمد بن محمد المستعين.[3] وكان عمره عند وفاته خمساً وعشرين سنة، وكانت خلافته ستة أشهر ويومين، وحصلت وفاته في سامراء.

وبعد وفاته بويع بالخلافة المستعين، بعد أن اجتمع الموالي وفيهم بغا الكبير وبغا الصغير وأتامش فاستحلفوا قواد الأتراك والمغاربة والأشروسنية على أن يرضوا بمن رضي به هؤلاء الثلاثة، وذلك بتدبير الوزير أحمد بن الخصيب. فحلف القوم وتشاوروا، وكرهوا أن يتولى الخلافة أحد أبناء المتوكل فينتقم منهم لمقتل والده.[4]

وهكذا أجمع الوزير أحمد بن الخصيب ومن حضر من الموالي على بيعة أحمد بن محمد بن المعتصم.

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣٤٥.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء٥، ص ٥٩٨.
(٣) المسعودي، مرجع سابق، جزء٤، ص ١٥٣.
(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣٥٠.

٥ – قتال في دار العامة

وحصل قتال خلال تولية المستعين الذي ما أن سار إلى دار العامة في زي الخلافة حتى حصل القتال الذي نقل روايته ابن الأثير فكتب:(١)

«فاستكتب أحمد بن الخصيب واستوزر أتامش. فلما كان يوم الاثنين سار المستعين إلى دار العامة في زي الخلافة وحمل إبراهيم بن إسحاق بين يديه الحربة، وصفّ واجن الأشروسني أصحابه صفين وقام هو وعدّة من وجوه أصحابه. وحضر الدار أصحاب المراتب من العباسيين والطالبيين وغيرهم. فبينما هم كذلك إذ جاءت صيحة من ناحية الشارع والسوق وإذا نحو من خمسين فارساً ذكروا أنهم من أصحاب محمد بن عبد الله بن طاهر ومعهم غيرهم من أخلاط الناس والغوغاء والسوقة فشهروا السلاح وصاحوا نفير يا منصور. وشدوا على أصحاب الأشروسني فتضعضعوا وانضمّ بعضهم إلى بعض، وتحرّك من على باب العامة من المبيضة، والشاكرية وكثروا فحمل عليهم المغاربة وبعض الأشروسنية فهزموهم حتى أدخلوهم درب زرافة. ثمّ نشبت الحرب بينهم فقتل جماعة، وانصرف الأتراك بعد ثلاث ساعات وقد بايعوا المستعين هم ومن حضر من الهاشميين وغيرهم. ودخل الغوغاء والمنتهبة دار العامة فانتهبوا الخزانة التي فيها السلاح، والدروع، والجواشن، والسيوف، والتروس، وغير ذلك. وكان الذين نهبوا ذلك الغوغاء، وأصحاب الحمامات، وغلمان أصحاب الباقلا، وأصحاب الفقاع، فأتاهم بُغا الكبير في جماعة فأجلوهم عن الخزانة وقتلوا منهم عدّة وكثر القتل من الفريقين. وتحرّك أهل السجن في سامراء وهرب منهم جماعة، ثمّ وضع العطاء على البيعة، وبعث بكتاب البيعة إلى محمد بن عبد الله بن طاهر فبايع له هو والناس ببغداد».

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٥٠.

٦ – العمليات العسكرية في عهد المستعين

في السنة الثامنة والأربعين والمائتين، وبعد تسلّم المستعين مهام الخلافة، شغب أهل حمص على عاملها كيدر بن عبيد الله، فأخرجوه منها، فوجه إليهم المستعين الفضل بن قارن، فمكر بهم حتى أخذهم وقتل منهم خلقاً كثيراً، وحمل منهم مائة من أعيانهم إلى سامراء، وهدم سور حمص.(١)

وفي السنة نفسها غزا الصائفة وصيف، وكان مقيماً بالثغر الشامي، فدخل بلاد الروم فافتتح حصن فرورية.(٢)

أ – غزو الروم:

في السنة التاسعة والأربعين والمائتين للهجرة غزا جعفر بن دينار الصائفة فافتتح حصن مطامير. واستأذنه عمر بن عبيد الله الأقطع في المسير إلى بلاد الروم، فأذن له. فسار في جيش كبير من أهل ملطية فاصطدم بملك الروم الذي كان معه جيش كبير أيضاً، وذلك بمرج الأسقف حيث جرت معركة عنيفة قتل فيها من الجانبين خلق كثير. ثمّ أحاطت الروم، وهم خمسون ألفاً، بالمسلمين، فقتل عمر وألفان منهم. بعد ذلك خرج الروم إلى الثغور الجزرية وهاجموا المسلمين، فبلغ ذلك علي بن يحيى وهو عائد من أرمينيا إلى ميا فارقين في جماعة من أهلها ومن أهل السلسلة، فانطلق لمجابهة الروم في نحو أربعمائة رجل.(٣)

ب – الفتنة في بغداد:

في السنة التاسعة والأربعين والمائتين للهجرة شغب الجند والشاكرية والعامة في بغداد، بعد مقتل القائدين عمر بن عبيد الله الأقطع وعلي بن يحيى الأرمني في قتال مع الروم. وقد استنفر هؤلاء واجتمعوا لقتال

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٣.
(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣٥٥ – ٣٥٦.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٠٠.

الروم، فلم يأمر الخليفة بإرسالهم إلى هذا القتال.[1]

نقل ابن الأثير تفاصيل الشغب في بغداد، فكتب:[2]

«وكان سبب ذلك أن الخبر لما اتصل بهم وفي سامراء وما قرب منها بقتل عمر بن عبيد الله، وعلي بن يحيى وكانا من شجعان الإسلام شديداً بأسهما عظيماً عناؤهما عن المسلمين في الثغور، شقّ ذلك عليهم مع قرب مقتل أحدهما من الآخر وما لحقهم من استعظامهم قتل الأتراك للمتوكل واستيلائهم على أمور المسلمين يقتلون من يريدون من الخلفاء ويستخلفون من أحبوا من غير ديانة ولا نظر للمسلمين. فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفير وانضمّ إليها الأبناء، والشاكرية تظهر أنها تطلب الأرزاق، وكان ذلك أول صفر. ففتحوا السجون وأخرجوا من فيها وأحرقوا أحد الجسرين وقطعوا الآخر وانتهبوا دار بشر، وابراهيم ابني هارون كاتبي محمد بن عبد الله. ثمّ أخرج أهل اليسار من بغداد وسامراء أموالاً كثيرة ففرقوها فيمن نهض إلى الثغور، وأقبلت العامة من نواحي الجبال وفارس والأهواز وغيرها لغزو الروم فلم يأمر الخليفة في ذلك بشيء ولا يوجه عسكره».

ج - الفتنة في سامراء:

في ربيع الأول من السنة نفسها، وبصورة مفاجئة، وثب أهل العامة في سامراء ففتحوا السجون وأخرجوا السجناء منها وهزموا مجموعة من الموالي أرسلت لقتالهم. ثمّ أُرسل ثلاثة من القادة الأتراك الكبار فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وانتهبوا منازلهم.[3]

نقل الطبري تفاصيل هذه الفتنة فكتب:[4]

«ولتِسْع بَقَيْنَ من شهر ربيع الأول، وثب نفر من النّاس لا يُدرى مَن هم يوم الجمعة

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٠١.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٥٣ - ١٥٤.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٤.

(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣٥٨.

في سامراء، ففتحوا السجن بها، وأخرجوا مَن فيه. فوجّه في طلب النّفر الذين فعلوا ذلك زُرافة في جماعة من الموالي، فوثبت بهم العامّة فهزموهم. ثمّ ركب في ذلك أوتامش ووصيف وبُغا وعامة الأترك، فقتلوا من العامة جماعة، وألقي على وصيف - فيما ذكر لي - قدر مطبوخ. ويقال: بل رماه قوم من العامة عند السريجة بحجر؛ فأمر وصيف النفاطين، فقذفوا ما هنالك من حوانيت التجار ومنازل الناس بالنار؛ فأنا رأيت ذلك الموضع محترقاً؛ وذلك في سامراء عند دار إسحاق.

وذُكر أن المغاربة انتهبت منازل جماعة من العامة في ذلك اليوم، ثمّ سكن الأمر في آخر ذلك اليوم. وعُزل بسبب ما كان من العامة والنفر الذي ذكرت في ذلك اليوم من الحركة، أحمد بن جميل عمّا كان إليه من المعونة بسامُرّا، وولي مكانه إبراهيم بن سهل الدّراج».

د - انتفاضة يحيى بن عمر الطالبي:

في السنة الخمسين والمائتين ظهر في الكوفة يحيى بن عمر الطالبي (يعود بنسبه إلى الامام الحسين بن علي)، بعد أن نالته ضيقة حال ولزمه دين ضاق به ذرعاً ولم يتمكّن من إيفائه.

وهكذا اجتمع الناس على يحيى، الذي مضى إلى بيت مال الكوفة فأخذ ما فيه وأظهر أمره في الكوفة، حيث فتح السجون وأخرج من فيها فانضمّوا إلى رجاله بعد أن دعا للرضى من آل محمد.(١)

أُرسل عبد الله بن محمود السرخسي عامل السواد لقتاله فهزمه يحيى وأخذ ما مع سريته من الدواب والمال. وخرج إلى سواد الكوفة فتبعته جماعة من الزيدية ومن أهل تلك النواحي، فسار إلى واسط حيث كثر أتباعه.(٢)

كتب محمد بن عبد الله نائب العراق إلى عامل الكوفة أبي أيوب بن الحسن بن

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٠٢.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٦.

موسى يأمره بقتاله، بعدما عاد إلى الكوفة حيث تلقّاه عبد الرحمن بن الخطاب الملقّب وجه الفلس، فقاتله قتالاً شديداً انهزم خلاله وجه الفلس فدخل يحيى بن عمر الكوفة.[1]

والتحق بيحيى أهل بغداد من العامة وغيرهم ممن يُنسب إليهم التشيّع، وشرع في جمع السلاح وأعداد آلات القتال وجمع الرجال بعد أن هرب عامل الكوفة منها إلى ظاهرها.[2]

واجتمعت إلى عامل الكوفة إمدادات كثيرة أرسلها الخليفة مع محمد بن عبد الله بن طاهر.

فلمّا كان اليوم الثاني عشر من رجب أشار على يحيى معاونوه أن يتصدى للحسين بن عبد الله ويفاجيء جيشه، فركب في جيش كبير فيه الكثير من الفرسان والمشاة من عامة أهل الكوفة، وسار إليهم فاقتتلوا قتالاً شديداً في ظلمة الليل. فما أن طلع الفجر حتى انكشف أصحاب يحيى بن عمر بعد أن طعن في ظهره فخرّ شهيداً فأخذوه وقطعوا رأسه وحملوه إلى ابن طاهر الذي أرسله إلى الخليفة فنصبه عند الجسر.[3]

وكان الخليفة المستعين قد وجّه أميراً إلى الحسين بن إسماعيل نائب الكوفة؛ فلمّا قتل يحيى بن عمر ودخلت جيوش الخليفة الكوفة، أراد ذلك الأمير، وهو محمد بن عبد الله بن طاهر، أن يضع السيف في أهلها، فمنعه الحسين وأمّن الجميع، وأطفأ بذلك الفتنة.[4]

هـ - خروج الحسن بن زيد العلوي على الخليفة:

في السنة الخمسين والمائتين خرج الحسن بن زيد (من ذرية الإمام علي) بناحية طبرستان. وسبب خروجه على الخليفة أنه، لمّا قتل يحيى بن عمر، أقطع الخليفة المستعين

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣٦١.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٥٧.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣٦١.

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٧.

محمد بن عبد الله بن طاهر قسماً من أرض تلك الناحية مكافأة له على انتصاره على يحيى بن عمر.[١]

أرسل محمد كاتباً له اسمه جابر بن هارون لتسلّم تلك الأراضي فكره أصحابها ذلك فجاؤوا الحسن بن زيد وبايعوه، والتحقت به مجموعات من الديلم وجماعة الأمراء في تلك النواحي. سار الحسن بجيشه ودخل آمل بطبرستان وأخذها عنوة وجبى خراجها.[٢]

واجتمع على بيعة الحسن الديلم وأهل كلار وشالوس والرويان؛ كما انضمّت إليه جبال طبرستان كأصمغان وقاوشان وجماعة من أهل السفح فاقتتل قتالاً شديداً مع عامل الخلافة وهزمه.[٣]

ولمّا استولى الحسن على آمل كثر جمعه وأتاه كلّ طالب نهب أو فتنة، فأقام في آمل أياماً، ثمّ سار نحو سارية لقتال عامل طبرستان سليمان بن عبد الله. فخرج إليه سليمان واقتتلا خارج مدينة سارية فسار بعض قواد الحسن إلى سارية فدخلوها. فلمّا علم سليمان بذلك انهزم ومن معه وترك أهله وعياله وكلّ ماله بسارية التي استولى عليها الحسن وأصحابه.[٤]

وبعد أن ملك سارية، بعث الحسن أهل سليمان وأولاده في البحر إلى جرجان واستولى على جميع ماله الذي كان موجوداً في سارية.[٥] ثمّ ملك الحسن الري بعد أن أرسل إليها خيلاً بقيادة محمد بن جعفر الطالبي. وهكذا اجتمعت إلى الحسن طبرستان والري وصولاً إلى همذان.

وورد الخبر إلى الخليفة المستعين فوجه إسماعيل بن فراشة في جيش إلى همذان لمنع الحسن من السيطرة عليها.

أما محمد بن جعفر الطالبي فقد ظهرت منه أمور كرهها أهل الري، فوجّه محمد بن

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٠٤.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٥٩.
(٣) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ١٥٩.
(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٠٥.
(٥) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٧.

طاهر أحد قادته، محمد بن ميكال، لقتاله. التقى الجيشان خارج الري فجرى قتال شديد هزم فيه محمد بن جعفر الذي أسره ابن ميكال. ودخل الجيش التابع للخليفة إلى الري، لكن الحسن بن زيد عاد وأرسل جيشاً من الفرسان عليه قائد من أهل اللازر يقال له واجن. فلمّا بلغ واجن الري خرج إليه محمد بن ميكال فاقتتلا فهزم ابن ميكال وجيشه ودخل واجن الري التي عادت إلى سيطرة الحسن بن زيد العلوي.(١)

وبقي الحسن بن زيد مسيطراً على طبرستان حتى السنة خمس وخمسين ومائتين حين سار القائد مفلح إليها فحارب الحسن الذي انهزم ولحق بالديلم ودخل مفلح البلد وأحرق منازل الحسن. ثمّ سار إلى الديلم في طلبه فأتاه كتاب موسى بن بغا بالعودة فعاد عنها. وسبب إرسال الكتاب يعود للخلافات الداخلية في بغداد والتي سنعود لمعالجتها لاحقاً في هذا الجزء.(٢)

وفي السنة الستين والمائتين واقع القائد يعقوب بن الليث الحسن بن زيد فهزمه ودخل طبرستان، فانصرف الحسن نحو الشرز وأرض الديلم، ودخل يعقوب سارية وآمل وجبى الخراج من أهلهما.(٣)

ولاحق يعقوب الحسن في مناطق جبلية فخسر أربعين ألفاً من جيشه من دون أن يتمكّن منه. كتب ابن الأثير عن ذلك:(٤)

«ثمّ سار في طلب الحسن، فسار إلى بعض جبال طبرستان وتتابعت عليه الأمطار نحواً من أربعين يوماً فلم يتخلّص إلاّ بمشقة شديدة وهلك عامة ما معه من الظهر. ثمّ أراد الدخول خلف الحسن فوقف على الطريق الذي يريد أن يسلكه وأمر أصحابه بالوقوف. ثمّ تقدّم وحده وتأمّل الطريق ثمّ رجع إليهم فأمرهم بالانصراف، فقال لهم: إن لم يكن طريق غير هذا وإلا لا طريق إليه. وكان نساء أهل تلك الناحية قلن للرجال: دعوه يدخل فإنه إن دخل كفيناكم أمره وعلينا أسره لكم.

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣٦٥.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٩٩.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٤٦.

فلما خرج من طبرستان عرض رجاله ففُقد منهم أربعون ألفاً وذهب أكثر ما كان معه من الخيل، والإبل، والبغال، والأثقال».

وفي السنة سبعين ومائتين توفي الحسن بن زيد الذي كانت ولايته في طبرستان تسع عشرة سنة وثمانية أشهر، وولي مكانه أخوه محمد بن زيد.

وفي السنة اثنتين وسبعين ومائتين وقع قتال شديد بين القائد أذكوتكين ومحمد بن زيد العلوي هزم فيه الأخير، وكتب عنه ابن الأثير:[1]

«كانت حرب شديدة بين أذكوتكين، وبين محمد بن زيد العلويّ صاحب طبرستان. ثمّ سار أذكوتكين من قزوين إلى الرّي ومعه أربعة آلاف فارس. وكان مع محمد بن زيد من الديلم، والطّبرية، والخراسانية عالم كبير، فاقتتلوا، فانهزم عسكر محمد بن زيد وتفرّقوا وقَتَل منهم ستة آلاف وأُسر ألفان. وغنم أذكوتكين وعسكره من أثقالهم وأموالهم ودوابهم شيئاً لم يروا مثله. ودخل أذكوتكين الرّي فأقام بها وأخذ من أهلها مائة ألف ألف دينار وفرّق عماله في أعمال الرّي».

وفي السنة السابعة والثمانين والمائتين قتل محمد بن زيد وأُسر ابنه زيد في قتال مع القائد أحمد محمد بن هارون. كتب الطبري عن القتال الذي أنهى انتفاضة الحسن بن زيد العلوي وأخيه محمد:[2]

«ذُكر أن محمد بن زيد خرج، لمّا اتصل به الخبر عن أسر إسماعيل بن أحمد عمرو بن الليث، في جيش كثيف نحو خراسان، طامعاً فيها، ظناً منه أنّ إسماعيل بن أحمد لا يتجاوز عمله الذي كان يتولاّه أيام ولاية عمرو بن الليث الصفّار خراسان، وأنه لا دافع له عن خراسان، إذ كان عمرو قد أُسر، ولا عامل للسلطان به. فلما صار إلى جُرجان واستقرّ به، كتب إليه يسأله الرجوع إلى طبرستان، وترك جرجان له، فأبى ذلك عليه ابن زيد. فندب إسماعيل - فيما ذكر لي - خليفة كان لرافع بن هرثمة أيام ولاية رافع خراسان يدعى محمد بن هارون، لحرب

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، جزء ٦، ص ٣٤٥.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٣٥.

محمد بن زيد، فانتدب له، فضمّ إليه جمعاً كثيراً من رجاله وجنده، ووجّهه إلى ابن زيد لحربه. فشخص محمد بن هارون نحو ابن زيد، فالتقيا على باب جرجان، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم عسكر محمد بن هارون.

ثم إن محمد بن هارون رجع، وقد انتفضت صفوف العلويّ، فانهزم عسكر محمد بن زيد، وولّوا هاربين، وقتل منهم - فيما ذكر - بشر كثير. وأصابت ابن زيد ضربات، وأُسر ابنه زيد، وحوى محمد بن هارون عسكره وما كان فيه. ثمّ مات محمد بن زيد بعد هذه الوقعة بأيام من الضّربات كانت فيه، فدُفن على باب جرجان، وحُمل ابنه زيد إلى إسماعيل بن أحمد، وشخص محمد بن هارون إلى طبريستان».

و - انتفاضة أهل حمص:

في السنة الخمسين والمائتين وثب أهل حمص وقوم من كلب على عاملها الفضل بن قارن فقتلوه.[١] وجّه الخليفة المستعين إليهم القائد موسى بن بغا الكبير، الذي سار من سامراء نحو حمص. ولمّا قرب منها لاقاه أهلها في المنطقة ما بينها وبين الرستن، فحاربهم وهزمهم وفتح حمص وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأحرقها وأسر جماعة من رؤساء أهلها.[٢]

ز - مقتل القائد التركي باغر:

في السنة الحادية والخمسين والمائتين قتل القائد التركي باغر، أحد قتلة الخليفة المتوكل. وسبب ذلك أن القائدين التركين وصيف وبغا قرّرا التخلّص منه فأحسّ بذلك، فجمع أنصاره الذين كانوا قد بايعوه على قتل المتوكل، ومعه غيرهم، وجدّد العهد عليهم في قتل المستعين وبغا ووصيف، على أن يبايعوا بالخلافة علياً بن المعتصم أو ابن الواثق.[٣]

انتهى الخبر إلى المستعين فبعث إلى بغا ووصيف وقال لهما:[٤] «أنتما جعلتماني خليفة، ثمّ تريدان قتلي». فحلفا أنهما ما علما

(١) الطبري، المرجع نفسه، ص ٣٦٦.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٦١.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٨.
(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣٦٨.

بذلك. فاعلمهما الخبر، فاتفق رأيهم على أخذ باغر ورجلين معه من الأتراك وحبسهم. وهكذا حصل.(١)

بلغ الخبر الاتراك فوثبوا على اسطبل الخليفة ونهبوه، ثمّ ركبوا خيولهم وحصروا الجوسق حيث يوجد باغر مسجوناً. عند ذلك أمر بغا ووصيف بقتل باغر فقتل.(٢)

ملاحظة: هذا مثال واضح على خلافات القادة الأتراك مع بعضهم البعض ومع الخليفة، ومدى تحكّمهم به وبأوضاع الخلافة ومصيرها.

ح - مبايعة المعتز بالله وخلع المستعين:

في السنة الحادية والخمسين والمائتين للهجرة، ولمّا انتهى خبر مقتل باغر إلى الأتراك، شغبت جماعة منهم في سامراء فقصدوا دار دُليل(٣) ودور أهله وجيرانه فنهبوها. وهذا ما دفع المستعين إلى ترك سامراء والتوجه مع بغا ووصيف وشاهك الخادم وأحمد بن صالح بن شيرزاد إلى بغداد.(٤)

فلمّا استقرّ المستعين ببغداد قدم إليه قوم من الأتراك الذين كانوا قد شغبوا في سامراء، وطلبوا منه مسامحتهم ففعل. ثمّ طلبوا منه التوجه معهم إلى سامراء فلم يقبل. فاجتمع رأيهم على إخراج المعتز، وكان في سجن الجوسق، فأخرجوه وبايعوه بالخلافة فاستحوذ على حواصل بيت المال فإذا فيها خمسمائة ألف دينار، وفي خزانة أم المستعين مليون دينار، وفي خزانة العباس بن المستعين ستماية ألف دينار، فوزعها المعتز على الجند الأتراك.(٥)

التحضيرات للقتال بين المستعين والمعتز:

حيال هذا الواقع راح كلّ من المستعين والمعتز يتأهبان للقتال بينهما.

(١) الطبري، المرجع نفسه.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٠٨.

(٣) دُليل بن يعقوب.

(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣٦٨.

(٥) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٨.

نـقـل ابـن كـثير خبر هـذه الـتـحضيرات فكتب:[١]

«واستفحل أمر المعتز في سامرا. وأمر المستعين لمحمد بن عبد الله بن طاهر أن يـحصّـن بـغـداد ويـعـمـل فـي الـسـوريـن والخندق، وغرم على ذلك ثلاثمائة ألف دينار وثلاثين ألف دينار، ووكل بكلّ باب أميراً يحفظه. ونصب على السور خمسة مجانيق، منها واحد كبير جداً، يقال له الغضبان، وست عرّادات.[٢] وأعدوا آلات الحرب والحصار والعدد، وقطعت القناطر من كـلّ ناحية لئلا يصل الجيش إليهم. وكتب المعتز إلى محمّد بن عبد الله بن طاهر يدعوه إلى الدخول معه في أمره، ويذكّره ما كان أخذه عليهم أبوه المتوكل من العهود والمواثيق، من أنه ولي العهد بعده؛ فلم يلتفت إليه بل ردّ عليه واحتجّ بحجج يطول ذكرها. وكتب كلّ واحد من المستعين والمعتز إلى موسى بن بغا الكبير وهو مقيم بأطراف الشام لحرب أهل حمص يدعوه إلى نفسه وبعث إليه بألوية يعقدها لمن اختار من أصحابه. وكتب إليه المستعين يأمره بالمسير إليه إلى بغداد ويأمره أن يستنيب في عمله، فركب مسرعاً فسار إلى سامراء فكان مع المعتز على المستعين. كذلك هرب عبد الله بن بغا الصغير من عند أبيه من بغداد إلى المعتز، وكذلك غيره من الأمراء والأتراك. وعقد المعتز لأخيه أبي أحمد بن المتوكل على حرب المستعين وجهز معه جيشاً لذلك، فسار في خمسة آلاف من الأتراك وغيرهم نحو بغداد، وصلّى بعكبرا يوم الجمعة، ودعا لأخيه المعتز. ثمّ وصل إلى بغداد في ليلة الأحد لسبع خلون من صفر فاجتمعت العساكر هنالك».

ووصف الطبري الاستعدادات العسكرية للمستعين على أبواب بغداد فكتب:[٣]

«وأمر المستعين محمد بن عبد الله بن طاهر بتحصين بغداد؛ فتقدّم في ذلك؛ فأدير عليها السور من دجلة من باب الشّماسية

(١) ابن كثير، المرجع نفسه، ص

(٢) عرادات: جمع عرادة، وهي آلة حربية مثل المنجنيق ترمي السهام والحجارة.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣٧٢.

إلى سوق الثلاثاء حتى أورده دجلة ومن دِجلة من باب قطيعة أم جعفر، حتى أورده قصر حميد بن عبد الحميد. ورتّب على كلّ باب قائداً في جماعة من أصحابه وغيرهم وأمر بحفر الخنادق حول السورين كما يدوران في الجانبين جميعاً ومظلاّت يأوي إليها الفرسان في الحرّ والأمطار؛ فبلغت النفقة - فيما ذكر - على السورين وحفر الخنادق والمظلات ثلاثمائة ألف دينار وثلاثين ألف دينار. وجعل على باب الشماسية خمس شدّاخات بعرض الطريق؛ فيها العوارض والألواح والمسامير الطّوال الظاهرة، وجُعل من خارج الباب الثاني باب معلّق بمقدار الباب ثخين، قد ألبس بصفائح الحديد، وشُدّ بالحبال كي إن وافى أحد ذلك الباب أُرسل عليه الباب المعلّق، فقتل من تحته. وجعل على الباب الداخل عرّادة، وعلى الباب الخارج خمسة مجانيق كبار؛ وفيها واحد كبير سَمّوه الغضبان، وستّ عرّادات ترمي بها إلى ناحية رقّه الشمّاسيّة. وصُيّر على باب البَرَدان ثماني عرّادات، في كلّ ناحية أربع، وأربع شدّاخات وكذلك على كلّ باب من أبواب بغداد في الجانب الشرقيّ والغربيّ. وجعل على كلّ باب من أبوابها قوّاداً برجالهم، وجعل لكلّ باب من أبوابها دهليزاً بسقائف تسع مائة فارس ومائة راجل؛ ولكلّ منجنيق وعرّادة رجالاً مرتّبين يمدّون بحباله، ورامياً يرمي إذا كان القتال. وفرض فروضاً ببغداد. ومرّ قوم من أهل خراسان قدموا حجّاجاً، فسألوا المعونة على قتال الأتراك، فأعينوا. وأمر محمد بن عبد الله بن طاهر أن يُفرَض من العيّارين فرض، وأن يُجعل عليهم عريف، ويُعمل لهم تراس من البواريّ المقيّرة، وأن يُعمل لهم مخال تملأ حجارة. ففعل ذلك وتولى - فيما ذكر - عمل البواريّ المقيّرة محمد بن أبي عون».

أما ابن الأثير فكتب أن المعتز جعل التدبير في جيشه إلى كلباتكين التركي الذي سار في خمسين ألفاً من الأتراك والفراغنة، وألفين من المغاربة حتى بلغ عكبرا.

وكان أهل عكبرا على خوف شديد من مسير الجيش إليهم ومحاربتهم، فقاموا بنهب القرى ما بين عكبرا وبغداد، فخربت الضياع وأُخذ الناس في الطريق.[1]

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٠٨ - ٦٠٩.

ونزل أحمد بن المتوكل بباب الشماسية فولى المستعين هذا الباب إلى الحسين بن اسماعيل.

القتال بين المستعين والمعتز:

وافت طلائع الأتراك إلى باب الشماسية فركب محمّد بن عبد الله بن طاهر من قبل المستعين، ومعه بغا ووصيف والفقهاء والقضاة، فدعاهم للعودة إلى طاعة المستعين فلم يقبلوا بذلك.

ثمّ جاء الأتراك في اليوم التالي فاقتتلوا مع القواد. وبلغ ابن طاهر أن جماعة من الأتراك ساروا نحو النهروان، فبعث قائداً من أصحابه فرجع منهزماً إلى بغداد. ووجّه الأتراك برؤوس القتلى إلى سامراء واستولوا على طريق خراسان فانقطعت الطريق عن بغداد.[1]

وجّه المعتز جنداً إلى بغداد فجازوا قطر بل وضربوا معسكرهم هناك لاثنتي عشرة ليلة خلت من صفر. فلمّا كان الغد وجه محمد بن عبد الله عسكراً إليهم بقيادة الشاه بن ميكال، فاقتتلوا فانهزم جند المعتز فوضع فيهم أصحاب محمد السيف فقتلوا أكثرهم ولم يفلت منهم سوى القليل؛ ونهب عسكرهم، ومن سلم منهم ألقى بنفسه في دجلة.[2]

ثمّ أمر ابن طاهر بهدم الدور والحوانيت أمام باب الشماسية ليتسع المجال للحرب. وقدمت عليه الأموال من فارس والأهواز، فخرج الأتراك لاعتراضها، فبعث ابن طاهر سرية لحمايتها، فبلغ المال بغداد من دون أن يتمكّن الأتراك منه، فمضوا نحو النهروان واحرقوا سفن الجسر (وهي عشرون سفينة).[3]

وطال حصار بغداد واشتدّت الحرب حولها ونهبت أسواقها. وورد الخبر من الثغور بأن بلكاجور حمل الناس على بيعة المعتز.

وكانت للأتراك وقعة بباب الشماسية، حيث قاتلوا قتالاً شديداً حتى كشفوا من عليه ورموه بالمنجنيق والنفط فلم يحترق. ثمّ

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٦٩.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣٧٦.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦١٠.

كثر جند الخليفة على الباب فردوهم عنه بعد وقوع قتلى وجرحى من الجانبين.

بعث ابن طاهر جيشاً من ثلاثة آلاف مقاتل إلى المدائن، كما بعث إلى الأنبار حوبة بن قيس فشق الماء إلى خندقها من الفرات، لكن المعتزّ أرسل جنداً له فسبق جيش المستعين إلى الأنبار التي ملكها، فرجع حوبة إلى بغداد.[1]

عاد ابن طاهر وأرسل جيشاً بقيادة الحسين بن إسماعيل إلى الأنبار؛ وفيما كان الحسين يقيم معسكره فيها هاجمته فرقة من الأتراك فهزمته وغرق عدد من جنده في الفرات، وأخذ الأتراك معسكره، فعاد منهزماً إلى بغداد.

ثمّ كانت وقعات عدّة بين الفريقين قتل من كلاهما كثيرون. ودخل الأتراك في كثير من الأحيان بغداد، ثمّ أخرجوا منها، ثمّ ساروا إلى المدائن فملكوها. وقدم الأتراك الذين كانوا بالأنبار إلى الجانب الغربي من بغداد، وطال الحصار حتى شهر ذي القعدة.

وخرج ابن طاهر في بعض أيامه في جنده إلى الأتراك، فقاتلهم وهزمهم وقتل منهم عدداً كبيراً. ثمّ عاد الأتراك وشنوا هجمات هزموا فيها أهل بغداد.

وهكذا كان القتال سجالاً بين الجانبين.

نقل ابن الأثير رواية عن هذا القتال فكتب:[2]

«وندب عبد الله بن عبد الله بن طاهر الناس فخرجوا معه، وأمر الموكل بباب قطربل أن لا يدع منهزماً يدخله. ونشبت الحرب فانهزم أصحاب عبد الله وثبت أسد بن داود حتى قتل. وكان إغلاق الباب على المنهزمين أشد من الأتراك فأخذوا منهم الأسرى وقتلوا فأكثروا وحملوا الأسرى والرؤوس إلى سامراء. فلما قربوا منها غطوا رؤوس الأسرى. فلما رآهم أهل سامراء بكوا وضجوا وارتفعت أصواتهم وأصوات نسائهم فبلغ ذلك المعتز فكره أن تغلظ قلوب الناس عليه فأمر لكلّ أسير بدينار.[3] وأمر بالرؤوس فدفنت.

(١) ابن خلدون، المرجع نفسه، ص ٦١٠.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٧٢.

(٣) في الطبري: بدينارين.

وكانت وقعة بينهم لسَبْعٍ خَلَوْن من ربيع الآخر قتل من الأتراك سبعمائة ومن أصحاب محمد ثلاثمائة».

خلع المستعين وبيعة المعتز:

ولّما طال القتال من دون نتيجة طالب ابن طاهر المستعين بخلع نفسه بشروط أهمها:(١)

- أن يبذلوا له خمسين ألف دينار.
- يعطوه غلّة ثلاثين ألف دينار.
- يقيم بالحجاز متردداً بين الحرمين.
- يكون بغا والياً على الحجاز، ووصيف على الجبل.

امتنع المستعين أولاً. إلاّ أنه، وعندما تبيّن أنّ بغا ووصيف موافقان على ذلك، استجاب للأمر، وأدخل عليه الفقهاء والقضاة وأشهدهم بأنه قد صيّر أمره إلى ابن طاهر. ثمّ أحضر القواد وأخبرهم بأنه قصد من ذلك حقن الدماء، وسيّرهم إلى المعتز ليوافق بخطه على كتاب الشروط، على أن يشهد القادة على إقراره.(٢)

ولّما وافق المعتز على الشروط أُخذت له البيعة من أهل بغداد وخطب له وبايع له المستعين وأخذ البُردة والقضيب والخاتم.

وهكذا انتهى القتال بين المستعين والمعتز باستخلاف هذا الأخير.

مقتل المستعين:

ثمّ عزم المعتز على قتل المستعين فكتب إلى نائبه عبد الله بن طاهر يأمره بتجهيز جيش نحو المستعين، فأرسل أحمد بن طولون التركي الذي قصده وأخرجه لست بَقَيْن من رمضان؛ فقدم به القاطول لثلاث مَضَيْن من شوال حيث قتل. وقيل إنه ضرب حتى مات. كما قيل بل غرق في دجيل، وقيل بل ضربت عنقه.(٣)

٧ - الدروس والعبر والنتائج

أ - مع تراجع السيطرة العباسية على مقدرات الخلافة وسيطرة الترك عليها،

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦١٢ - ٦١٣.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٠٦.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٣.

راحت الولايات تخرج عن السيطرة المركزية للدولة، من الأندلس إلى شمال إفريقيا وطبرستان واليمن والبحرين وما وراء النهر، تمشياً مع قاعدة «صعود الأمم وهبوطها».

فالدولة الإسلامية كانت تسيطر على أجزاء واسعة من العالم، من غرب أوروبا إلى شمال أفريقيا والشرق الأدنى وما وراء النهر وفارس وأجزاء من الهند وصولاً إلى حدود الصين، وأجزاء من آسيا الصغرى. هذه المناطق كانت تقطنها شعوب مختلفة الأعراق والإتنيات والأديان والمذاهب، ويلزم للسيطرة عليها سلطة مركزية قوية وجيوش دائمة الجهوز للتحرّك وإخضاع أي انتفاضة أو ثورة أو تحرّك داخلي.

ترافق ذلك مع التغييرات التي حصلت في الدولة العباسية بانتقال السيطرة من الفرس إلى الترك، الأمر الذي هزّ سلطتها المركزية، لاسيما وأن الضباط الأتراك راحوا يتدخّلون بشؤون الخلافة ويستبدلون الخلفاء ويقتلون بعضهم. لذلك جاءت غالبية العمليات المذكورة في هذا الفصل داخلية، من إخضاع انتفاضات وفتن وصراع على السلطة بين الأخوة، بدلاً من توجيه الجيوش لغزو الخارج والتوسّع على حساب الدول المجاورة. هذا باستثناء بعض العمليات الهجومية المنعزلة كغزو جزيرة صقلية وفتح المدن والحصون فيها، والغزوات القليلة إلى بلاد الروم التي قادها وصيف التركي.

ب - وفي عهد المستعين، تحرّكت العامة في بغداد للمرّة الأولى فأفسدت فيها، وساد المدينة جو من عدم الاستقرار وانعدام الأمن. ونهبت العامة الأسلحة من دار العامة، الأمر الذي استدعى قتالهم من قِبَل القائد بغا الكبير الذي كان المسيطر الفعلي على المدينة.

كما ثارت العامة في سامراء وفتحت السجون وأخرجت السجناء ونهبت المنازل.

إن تحرّكات العامة هذه تعكس عدم السيطرة العسكرية الفاعلة على عاصمة الخلافة بغداد، وعلى مركز الجند الأتراك في سامراء. ومن أهم أسباب هذا التهاون العسكري الخلافات في رأس الهرم السياسي للدولة، إذ إن الوضع السياسي ينعكس على الوضع العسكري الداخلي للدولة بسبب الترابط بينهما.

جاء في كتابنا «المجتمعات العنسكرية عبر التاريخ» ما يأتي:[1]

«ترتدي العلاقة بين الجيش والدولة أهمية خاصة في حياة المجتمع والشعب. وكلّما كان الانسجام تاماً كانت الدولة في استقرار وتلاحم وقوّة. وكلّما بَعد الشق بينهما، ساد المجتمع اهتزاز واضطراب ومشاكل وحتى حروب أهلية لا حصر لها.

وكلّما كان الجيش منبثقاً من شعبه وأمته، كان وطنياً أكثر، يشعر شعور المجتمع نفسه ويلاحق تطلعاته ويعمل على تنفيذ سياسته وحماية منجزات حضارته، ويحافظ على تراثه الطويل وتاريخه الحافل. وكلّما ابتعدت مصادر وحدات الجيش عن الشعب أضحى مرتزقاً، قد تجمعهما مصالح لا يمكنها أن تنسجم بصورة دائمة، بل تختلف في قضايا أساسية تؤدي إلى شرخ يكبر أو يصغر بين الأمة والجيش مؤثراً على ديمومة الدولة واستقلالها».

فالمجتمع العربي في العراق لم يكن يجمعه مع الجيوش التركية المسيطرة عليه التاريخ والحضارة والتراث والتطلّعات نفسها. لذلك فإن الانسجام بينهما لم يكن كاملاً.

ج - أثناء خروج الحسن بن زيد على الخلافة، طبّق قواعد التعبئة العامة وحشد القوى محققاً بذلك مبدأ الحرب الأول (نسبية الأهداف للوسائل)، فتمكن من الانتصار على عامل الخلافة العباسية في طبرستان، ومن السيطرة على الري وطبرستان وهمذان.

تلا ذلك صراع طويل بين جيوش الخلافة وجيوش الحسن دون حسم القتال لمصلحة أي من الطرفين بسبب توازن القوى، وكون الحسن كان يقاتل في منطقة يؤيده سكانها.

وعندما لاحقة جيش عباسي بقيادة يعقوب سارية في مناطق جبلية وعرة، تعرض هذا الجيش لخسائر فادحة بالأرواح والمعدات لأسباب أهمها:

* عدم معرفته الجيدة بطبيعة الأرض. والأرض هي حليفة من يحسن استغلالها.

(١) العميد الركن سامي ريحانا، المجتمعات العسكرية عبر التاريخ، مرجع سابق، ص ٢٥ - ٢٦.

* تعرضه لظروف مناخية صعبة طوال أربعين يوماً.
* فقدان عدد كبير من خيله وإبله وبغاله وأثقاله إثر سلوكه طريقاً صعبة في جبال طبرستان.

د - أثناء القتال بين المعتز والمستعين، أحسن هذا الأخير في اتخاذ التدابير العملانية لتحصين بغداد، والتي نذكر منها:

* تحصين الأسوار وخفر الخنادق حولها.
* تكليف قادة لحفظ أبواب المدينة بعد أن دعمها وحصّنها وجعل دهليزاً لكلّ منها يتسع لمائة فارس ومائة راجل.
* نصب خمسة مجانيق وست عرادات عند السور.
* إعداد آلات الحرب والحصار.
* قطع القناطر كي لا يستعملها جيش المعتز لدخول بغداد.
* محاولة استمالة قادة جيش المعتز.
* هدم الدور والحوانيت أمام باب الشماسية كي يتسع المجال للقتال.
* جمع الأموال من مختلف الولايات لصرفها أثناء الحرب.
* حماية خطوط مواصلاته مع فارس والأهواز بهدف وصول التموين والأموال إليه.

لكن تأييد الأتراك للمعتز أمّن له التفوّق العددي الكبير إذ كان هؤلاء يسيطرون على مقدرات الخلافة وعلى سامراء؛ لذلك اعتمدوا استراتيجية هجومية ضد المستعين رغم التحضيرات التي ذكرت. كما حاصروا بغداد مدّة طويلة تمكّنوا خلالها من إيقاع الهزائم بأهل بغداد.

وهكذا، ومع توازن القوى بين الخصمين، بقيت الحرب سجالاً دون حسم إلى أن خلع المستعين نفسه بشروط، بعد أن وافق قادته عليها، فانتهى القتال بقرار سياسي. فالهدف السياسي هو الغاية، والحرب هي الوسيلة، ولا يمكن تصوّر الوسيلة دون الغاية.

الفصل الثالث
العمليات العسكرية في عهد المعتزّ

بعد خلع المستعين نفسه ومبايعة المعتز بالله بن المتوكل، خُطب للمعتز ببغداد يوم الجمعة لأربع خلون من المحرم وأُخذت له البيعة على كلّ من بها من الجند في السنة اثنتين وخمسين ومائتين للهجرة.

واستوزر المعتز أحمد بن أبي إسرائيل وخلع عليه، ورجع أخوه أبو أحمد إلى سامراء فخلع عليه المعتز وتُوّج ووشح بوشاحين.(١)

ثمّ كتب المعتز إلى ابن طاهر بإسقاط بغا ووصيف ومن معهما من الدواوين، ثمّ عاد ورضي عنهم جميعاً.(٢)

وعندما بويع بالخلافة كان له ثماني عشرة سنة من العمر.

١ – الفتنة بين جند بغداد وطاهر

في السنة الثانية والخمسين والمائتين حصلت فتنة بين جند بغداد ومحمّد بن عبد الله بن طاهر في شهر رمضان.

نقل ابن الأثير تفاصيل القتال الذي جرى بينهما، فكتب:(٣)

«وكان سبب ذلك أن الشاكرية وأصحاب القروض اجتمعوا إلى دار محمد يطلبون أرزاقهم في رمضان، فقال لهم: إني كتبت إلى أمير المؤمنين في إطلاق أرزاقهم، فكتب

(١) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٤، ص ١٨٨.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦١٤.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٨٤.

في الجواب: إن كنت تريد الجند لنفسك فأعطهم أرزاقهم؛ وإن كنت تريدهم لنا فلا حاجة لنا فيهم. فشغبوا عليه وأخرج لهم ألفي دينار ففرقت فيهم فسكتوا. ثمّ اجتمعوا في رمضان أيضاً ومعهم الأعلام، والطبول وضربوا الخيام على باب حرب وعلى باب الشماسية وغيرهما وبنوا بيوتاً من بواري وقصب وباتوا ليلتهم. فلما أصبحوا كثر جمعهم، وأحضر محمد أصحابه فباتوا في داره وشحن داره بالرجال، واجتمع إلى أولئك المشاغبين خلق كثير بباب حرب بالسلاح، والاعلام، والطبول ورئيسهم أبو القاسم عبدون[1] بن الموفق، وكان من نواب عبيد الله بن يحيى ابن خاقان، فحثهم على طلب أرزاقهم وفائتهم. فلما كان يوم الجمعة أرادوا أن يمنعوا الخطيب من الدعاء للمعتز، فعلم الخطيب بذلك فاعتذر بمرض لحقه ولم يخطب. فمضوا يريدون الجسر فوجه إليهم ابن طاهر عدّة من قواده في جماعة من الفرسان والرجال فاقتتلوا فقتل بينهم قتلى. ودفعوا أصحاب ابن طاهر عن الجسر، فلما رأى الذين بالجانب الشرقي أن أصحابهم أزالوا أصحاب ابن طاهر عن الجسر حملوا يريدون العبور إلى أصحابهم.

وكان ابن طاهر قد أعدّ سفينة فيها شوك وقصب فألقى فيها النار وأرسلها إلى الجسر الأعلى فأحرقت سفنه وقطعته. وصارت إلى الجسر الأخر فأدركها أهل الجانب الغربي فغرقوها. وعبر من في الجانب الشرقي إلى الغربي ودفعوا أصحاب ابن طاهر إلى باب داره وقتل بينهم نحو عشرة أنفس. ونهب العامة مجلس الشرط وأخذوا منه شيئاً كثيراً من أصناف المتاع. ولمّا رأى ابن طاهر أن الجند قد ظهروا على أصحابه أمر بالحوانيت التي على باب الجسر أن تحرق فاحترق للتجار متاع كثير فحالت النار بين الفريقين ورجع الجند إلى معسكرهم بباب حرب. وجمع ابن طاهر عامة أصحابه وعباهم تعبية الحرب خوفاً من رجعة الجند فلم يكن لهم عودة».

(١) في الطبري: عبدان.

٢ – خلع المؤيد ومقتله

في السنة نفسها خلع الخليفة المعتز أخاه المؤيد من ولاية العهد بعده. أما السبب، فقد نقله الطبري الذي كتب:[١]

«وكان السبب في ذلك أنّ العلاء بن أحمد عامل أرمينيا بعث إلى إبراهيم المؤيد بخمسة آلاف دينار ليصلح بها أمره، فبعث ابن فرّخانشاه إليه، فأخذها. فأغرى المؤيد الأتراك بعيسى بن فرّخانشاه، وخالفهم المغاربة. فبعث المعتزّ إلى أخويه: المؤيد وأبي أحمد؛ فحبسهما في الجوسق، وقيّد المؤيد وصيّره في حجرة ضيّقة. وأدرّ العطاء للأتراك والمغاربة، وحبس كنجور حاجب المؤيد، وضربه خمسين مقرعة، وضرب خليفته أبا الهول خمسمائة سَوط وطُوِّف به على جمل. ثمّ رضي عنه وعن كنجور، فصُرف إلى منزله.

وقد ذكر أنه ضرب أخاه المؤيد أربعين مقرعة، ثمّ خُلع في سامراء يوم الجمعة لسبع خلون من رجب، وخُلع ببغداد يوم الأحد لإحدى عشرة خلت من رجب، وأخذت رقعة بخطه بخلع نفسه».

وفي شهر رجب قتل المؤيد. أما سبب قتله فيعود إلى أن المعتز بلغه أن الأتراك يريدون إخراجه من السجن. فلمّا كان الغد دعا المعتز القضاة والفقهاء والشهود، فأخرج إليهم إبراهيم المؤيد ميتاً لا أثر فيه ولا جرح. وقيل إنه أقعد في الثلج حتى توفي من البرد.[٢]

٣ – الفتنة بين الأتراك والمغاربة

وفي رجب من السنة الثانية والخمسين والمائتين، وقعت فتنة بين الأتراك والمغاربة.

وسبب ذلك أن المغاربة اجتمعوا مع محمد بن راشد ونصر بن سعيد، فغلبوا الأتراك وأخرجوهم من الجوسق وقالوا لهم:[٣]

«كلّ يوم تقتلون خليفة وتخلعون آخر وتعملون وزيراً».

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤١٤.

(٢) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٠٠ – ٢٠١.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٨٦.

وهكذا أصبح الجوسق وبيت المال في أيدي المغاربة الذين أخذوا الدواب التي تركها الأتراك. وأعانت المغاربة الغوغاء والشاكرية، فضعف الأتراك وانقادوا لهم.

ثمّ قرّر الأتراك استعادة السلطة، فقاموا بقتل محمد بن راشد ونصر بن سعيد كما ذكر الطبري الذي كتب:[1]

«وبلغ الأتراك اجتماع المغاربة إلى محمّد بن راشد ونصر بن سعيد. واجتمع الأتراك إلى بايكباك، فقالوا: نطلب هذين الرأسين؛ فإن ظفرنا بهما فلا أحد ينطق. وكان محمد بن راشد ونصر بن سعيد قد اجتمعا في صدر اليوم الذي عَزَم الأتراكُ فيه على الوثوب بهما، ثمّ انصرفا إلى منازلهما. فبلغهما أن بايكباك قد صار إلى منزل ابن راشد، فعدل محمد بن راشد ونصر بن سعيد إلى منزل محمد بن عزّون ليكونا عنده حتى يسكن الأتراك، ثمّ يرجعا إلى جمعهما. فغمز إلى بايكباك رجل، ودلّه عليهما. وقيل إن ابن عزّون هو الذي دسّ من دلّ بايكباك والأتراك عليهما؛ فأخذهما الأتراك فقتلوهما؛ فبلغ ذلك المعتز، فأراد قتل ابن عزّون، فكلم فيه فنفاه إلى بغداد».

وهكذا نرى أن الصراع على السلطة أصبح، خلال هذه المرحلة من تاريخ الدولة العباسية في عصرها الثاني، بين الأتراك والمغاربة.

٤ – الاستيلاء على كَرَج[2]

في السنة الثالثة والخمسين والمائتين عقد المعتز لقائده موسى بن بغا الكبير على الجبل وسيره لقتال عبد العزيز بن أبي دلف بناحية همذان. كتب ابن كثير عن القتال بين موسى وابن أبي دلف:[3]

«عقد المعتز لموسى بن بغا الكبير على جيش قريب من أربعة آلاف ليذهبوا إلى قتال عبد العزيز بن أبي دلف بناحية همذان

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤١٨.

(٢) كرج: مدينة بين همذان وأصبهان.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٣ – ١٤.

وذلك لأنه خرج عن الطاعة وهو في نحو من عشرين ألفاً، فهزموا عبد العزيز هزيمة فظيعة. ثمّ كانت بينهم وقعة أخرى في رمضان عند الكرج فهزم عبد العزيز أيضاً. وبعثوا إلى الخليفة المعتز سبعين حملاً من الرؤوس وأعلاماً كثيرة. وأُخذ من عبد العزيز ما كان استحوذ عليه من البلاد».

٥ – مقتل القائد التركي وصيف

في السنة الثالثة والخمسين والمائتين للهجرة شغب الأتراك والفراغنة والاشروسنية مطالبين بأرزاقهم لأربعة أشهر. خرج إليهم بُغا ووصيف وسيما فكلّمهم وصيف فلم يقتنعوا. وقال بُغا: نسأل أمير المؤمنين، ونجتمع في دار أشناس. فدخلوا الدار، ومضى سيما وبغا إلى المعتز، وبقي وصيف في أيديهم، فوثبوا عليه وضربه أحدهم بالسيف، وآخر بالسكين. ثمّ ضربوه بالطبرزيات حتى قتلوه.[١] فجعل المعتز ما كان إلى وصيف إلى بغا الصغير وألبسه التاج والوشاحين.[٢]

٦ – الفتنة في أعمال الموصل

في السنة نفسها وقعت حرب بين سليمان بن عمران الأزدي وقبيلة عنزة، وسببها أن سليمان اشترى قسماً من مرجٍ، فطلب رجل من قبيلة عنزة اسمه برهونة الشفعة، فلم يجبه إليها. فسار برهونة إلى عنزة فاستجار بهم وببني شيبان، فأجاروه واجتمع معه جمع كثير فنهبوا الأعمال وأسرفوا في ذلك.[٣]

جمع سليمان جمعاً في الموصل وسار إليهم، فعبر الزاب، وكانت بينهم حرب شديدة قتل فيها عدد كبير من الجانبين، كان الظفر فيها لسليمان.

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٨٩.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦١٩.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٩١.

٧ – مقتل القائد التركي بُغا الشرابي

في السنة الرابعة والخمسين والمائتين للهجرة قُتل القائد التركي بُغا الشرابي.

وكان المعتز قد جعل لبغا ما كان لوصيف وألبسه التاج والوشاحين. ثمّ تغيَّر رأي المعتز فيه بسبب استبداده في الدولة، ومال إلى بابكيال القائد التركي من دون أن يظهر ذلك لبغا.(١)

نقل ابن خلدون ظروف مقتل بغا: فكتب:(٢)

«ثمّ زوج بغا ابنته آمنة من صالح بن وصيف وشغل بجهازها، فركب المعتز في تلك الغفلة ومعه حمدان بن إسرائيل إلى بابكيال في كرخ سامراء، وكانت بينه وبين بغا وحشة شديدة. وبلغ ذلك بغا فركب في خمسمائة من غلمانه وولده وقوّاده، وكان أكثرهم منحرفين عنه ولحق بالسنّ. وأقام المعتز على وجل لا ينام إلاّ بسلاحه. ثمّ تعلّل أصحاب بغا عليه فأعرض عنهم وركب البحر راجعاً إلى بغداد، وجاء الجسر ليلاً لئلا يفطن به الموكلون هنالك. وبعثوا إلى المعتز بخبره، فأمر بقتله وحمل إليه رأسه، ونصب بسامرا وأحرقت المغاربة شلوه، وكان قصد دار صالح بن وصيف ليثبوا على المعتز».

ملاحظة:

نلاحظ مما تقدّم خوف الخليفة من القادة الأتراك، إذ كان لا ينام إلاّ بسلاحه، كذلك تحكم هؤلاء بالدولة وحتى بالخليفة. فبغا كان قد قصد دار صالح بن وصيف ليتآمر معه ضدّ الخليفة. وبالفعل، فإن الخليفة المعتز، كما سنرى لاحقاً، أُبدل بخليفة آخر من قِبَل القادة الأتراك الذين تآمروا عليه.

٨ – استيلاء يعقوب بن الليث على كرمان وفارس

كان قد ظهر في سجستان أحد أهل

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٧.
- المسعودي، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٠٢.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦١٩ – ٦٢٠.

البيت واجتمعت إليه المتطوّعة وقام بقتال الخوارج فيها. وبعد وفاته تسلّم المتطوعة يعقوب بن الليث، وكان شهماً وكريماً فكثر أتباعه، فقام بقتال السراة وانتصر عليهم وأثخن فيهم وخرّب قراهم. ثمّ ملك يعقوب سجستان مظهراً طاعة الخليفة الذي كلفه بحرب السراة.(١)

سار يعقوب من سجستان إلى خراسان، وعليها يومئذ محمّد بن عبد الله بن طاهر، وعلى هراة محمد بن أوس الأنباري الذي جمع جموعه وسار إلى يعقوب على تعبئة كاملة. اقتتل الفريقان فانهزم ابن أوس وملك يعقوب هراة وبو شنج وعظم أمره وهابه صاحب خراسان وغيرها من الأطراف.(٢)

ثمّ استولى يعقوب على كرمان في السنة الخامسة والخمسين والمائتين. وسبب ذلك أن الخليفة المعتز كتب بولاية كرمان إلى كلّ من علي بن الحسين بن شبل عامل فارس ويعقوب بن الليث أيضاً وذلك لإغراء كلّ منهما بصاحبه كونه لا يثق بأي منهما.(٣)

وهكذا وقع الخلاف بينهما فانتصر يعقوب وملك كرمان. وقد استعمل الحيلة والجاسوسية في الحرب مما أمّن له النصر، وفق ما كتب ابن الأثير:(٤)

«فأرسل علي بن الحسين طوق بن المغلس إلى كرمان وسار يعقوب إليها فسبقه طوق واستولى عليها. وأقبل يعقوب حتى بقي بينه وبين كرمان مرحلة فأقام بها شهرين لا يتقدّم إلى طوق ولا طوق يخرج إليه. فلمّا طال ذلك عليه أظهر الارتحال إلى سجستان فارتحل مرحلتين، وبلغ طوقاً ارتحاله فظنّ أنه قد بدا له في حربه وترك كرمان فوضع آلة الحرب وقعد للأكل والشرب والملاهي. واتصل بيعقوب إقبال طوق على الشرب فكرّ راجعاً فطوى المرحلتين في يوم واحد فلم يشعر طوق إلاّ بغبرة عسكره، فقال: ما هذا؟ فقيل: غبرة المواشي. فلم يكن بأسرع من

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٢٠ - ٦٢١.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٨.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٢٧.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٩٧.

موافاة يعقوب فأحاط به وأصحابه؛ فذهب أصحابه يريدون المناهضة والدفع عن أنفسهم، فقال يعقوب لأصحابه: أفرجوا للقوم فمروا هاربين وخلوا كلّ ما لهم وأسر يعقوب طوقاً».

أما القتال بين يعقوب وعلي بن الحسين فقد نقل روايته ابن خلدون مظهراً عبقرية يعقوب وجرأته اللتان أمّنتا انتصاره. كتب ابن خلدون عن هذا القتال:(١)

«وبلغ الخبر إلى علي بن الحسين، وهو في شيراز، فجمع جيشه ونزل على مضيق شيزار، وأقبل عليه يعقوب حتى نزل قبالته، والمضيق متوعر بين جبل ونهر ضيق المسلك بينهما. فاقتحم يعقوب النهر بينهما وأجاز إلى علي بن الحسين وأصحابه فانهزموا، وأُخذ علي أسيراً، واستولى على جميع عسكره، ودخل شيزار وملكها وجبى الخراج ورجع إلى سجستان».

وقيل إن جند علي كان نحواً من خمسة عشر ألفاً من الموالي والأكراد، وإنه وقعت بين الجانبين، بعد عبور يعقوب النهر، حرب شديدة، وإن عدد القتلى من جيش علي بلغ خمسة آلاف قتيل.

ويمكننا تشبيه الحركة الإفراجية التي أمر بها يعقوب لتشتيت جيش طوق بن المغلس بالحركة الإفراجية التي أمر بها خالد بن الوليد في معركة اليرموك،(٢) والتي سبق الحديث عنها في الجزء الثاني من هذه الموسوعة. وهي حركة تظهر عبقرية يعقوب العسكرية.

٩ - تراجع هيبة الخلافة

تراجعت هيبة الخلافة خلال ولاية المعتز وسيطر الأتراك على بغداد واستهانوا بالخليفة الذي دخلوا عليه بسيوفهم وألقوا القبض على كاتبه أحمد بن إسرائيل رغم التماس الخليفة إطلاقه. وسبب ذلك أن الأتراك كانوا قد طلبوا أرزاقهم من المعتز فلم يكن في بيت ماله ما يحقق لهم رغباتهم، وهذا ما أدى إلى خلعه كما سنرى لاحقاً.

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٢٢.

(٢) ياسين سويد، مقدم، معارك خالد بن الوليد، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٣، ص ٢٧٠.

نقل الطبري رواية عن دخول الأتراك بسيوفهم إلى ديوان الخليفة، فكتب:[1]

«أخذ صالح بن وصيف أحمد بن إسرائيل والحسن بن مخلد وأبا نوح عيسى ابن إبراهيم فقيّدهم، وطالبهم بأموال. وكان سبب ذلك، فيما ذكر، أنّ هؤلاء الكتّاب الذين ذكرت كانوا اجتمعوا يوم الأربعاء لليلتين خَلَتا من جمادى الآخرة من هذه السّنة على شراب لهم يشربونه. فلمّا كان يوم الخميس غد ذلك اليوم، ركب ابن إسرائيل في جمع عظيم إلى دار السلطان التي يقعُد فيها، وركب ابن مخلد إلى دار قبيحة أمّ المعتز - وهو كاتبها - وحضر أبو نوح الدّار، والمعتز نائم؛ فانتبه قريباً من انتصاف النّهار، فأذن لهم. فحمل صالح بن وصيف على أحمد بن إسرئيل، وقال للمعتزّ: يا أمير المؤمنين؛ ليس للأتراك عطاء ولا في بيت المال مالٌ؛ وقد ذهب ابن إسرائيل وأصحابه بأموال الدنيا. فقال له أحمد: يا عاصي يا ابن العاصي! ثمّ لم يزالا يتراجعان الكلام حتى سقط صالح مغشياً عليه، فرُشّ على وجهه الماء. وبلغ ذلك أصحابه وهم على الباب، فصاحوا صيحةً واحدة، واخترطوا سيوفهم، ودخلوا على المعتزّ مُصلتين؛ فلما رأى ذلك المعتزّ دخل وتركهم، وأخذ صالح بن وصيف بن إسرائيل وابن مخلد وعيسى بن إبراهيم فقيّدهم، وأثقلهم بالحديد، وحملهم إلى داره. فقال المعتزّ لصالح قبل أن يحملهم: هَب لي أحمد؛ فإنه كاتبي؛ وقد ربّاني، فلم يفعل ذلك صالح. ثمّ ضرب ابن إسرائيل؛ حتى كسرت أسنانه، وبطح ابن مخلد فضُرب مائة سوط؛ وكان عيسى بن إبراهيم محتجماً فلم يزل يُصفع حتى جَرَت الدماء من محاجمه. ثمّ لم يُتركوا حتى أخذت رقاعهم بمال جليل قُسّط عليهم».

١٠ - خلع المعتز ومقتله

في يوم الأربعاء لثلاث بَقَيْن من رجب السنة خمس وخمسين ومائتين للهجرة خلع المعتز وقتل. وسبب ذلك أن الأتراك ساروا

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء٥، ص ٤٢٩ - ٤٣٠.

إليه يطلبون أرزاقهم فلم يكن عنده ما يعطيهم، فسأل أمه أن تقرضه مالاً، وكان لديها الكثير، فلم تعطه، وأظهرت أنها لا تملك أموالاً.[1]

عند ذلك اجتمع الأتراك على خلعه، فأرسلوا إليه ليخرج إليهم، فاعتذر بأنه قد شرب دواء، وأن عنده ضعفاً، وطلب ان يدخل إليه بعضهم.

نقل ابن كثير رواية دخول الأتراك على المعتز وإخراجه من ديوانه وخلعه وقتله، فكتب:[2]

«فدخل إليه بعض الأمراء فتناولوه بالدبابيس يضربونه وجرّوا برجله وأخرجوه وعليه قميص مخرق ملطخ بالدم. فأقاموه في وسط دار الخلافة في حر شديد حتى جعل يراوح بين رجليه من شدّة الحر. وجعل بعضهم يلطمه وهو يبكي ويقول له الضارب اخلعها، والناس مجتمعون. ثمّ أدخلوه حجرة مضيّقاً عليه فيها. وما زالوا عليه بأنواع العذاب حتى خلع نفسه من الخلافة وولّى بعده المهتدي بالله كما سيأتي. ثمّ سلموه إلى من يسومه سوء العذاب بأنواع المثلات.[3] ومنع من الطعام والشراب ثلاثة أيام حتى جعل يطلب شربة من ماء البئر فلم يسقَ. ثمّ أدخلوه سرباً فيه جصّ جبر فدسوه فيه فأصبح ميتاً، فاستلوه من الجص سليم الجسد وأشهدوا عليه جماعة من الأعيان أنه مات وليس به أثر. ودفن مع أخيه المنتصر إلى جانب قصر الصوامع، عن أربع وعشرين سنة. وكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً».

وصلّى عليه المهتدي بالله.

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٢٧.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٨ - ١٩.

(٣) المثلات: ألوان التعذيب وأنواعه.

ملاحظة: كانت قبيحة أم المعتز التي لم تفتدِ ابنها الخليفة بالمال، قد استأمنت صالحاً بن وصيف القائد التركي وأعطته خمسمائة ألف دينار. كما عذّبها على خزائن تحت الأرض فيها مليار وثلاثمائة ألف دينار ومقادير من الزبرجد واللؤلؤ والياقوت الأحمر. وقد ذمّها الناس لأنها عرّضت ابنها للقتل في خمسين ألف دينار، ومعها كلّ هذا المال.

عن ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٢٨.

١١ - الدروس والعِبَر والنتائج

أ - أظهر القتال بين جند بغداد والقائد ابن طاهر أنّ هؤلاء أصبحوا قوّة لا يستهان بها في المدينة، وراحوا يفرضون رأيهم على الخليفة وعلى قائده العام. وسبب القتال كان تأخر رواتب الجند ورفض الخليفة دفعها كونه لا يحتاج إلى خدماتهم وفق ما كتب إلى ابن طاهر. وهذا ما دفعهم إلى السيطرة على أسواق بغداد ومهاجمة منزل القائد ابن طاهر.

ونحن نرى أن عدم دفع رواتب الجند والاستهانة بهم من قِبَل الخليفة عمل على شحن نفوس هؤلاء ضده، الأمر الذي كانت له انعكاسات سلبية أدت إلى خلعه وقتله من قبل الأتراك. فالجيش يحضّر في أيام السلم كي يكون جاهزاً في أيام المحن. وهذا ما لم يفعله المعتز.

قيل: «لا مجال للدرس أثناء القتال، وجلّ ما يمكن صنعه هناك هو تطبيق ما نعرف، ويجب ان نعرف الكثير لنستطيع القليل».

لذلك، على الدولة تحضير عناصر جيشها وتدريبهم ودبّ روح الحماس وغرس الحوافز في نفوسهم، وذلك كي يكونوا على جهوزية كاملة لتحقيق سياستها العسكرية.

كتب الجنرال ديغول:[١]

«إن الدولة التي لا تتعهّد الروح العسكرية إلاّ خلال الأزمات هي دولة سائرة إلى الزوال».

فتحضير الجيوش يُكلّف غالياً دون شك، إنما عدم تحضيرها وتجهيزها قد يكون أكثر كلفة إذ إن البلاد تصبح معرّضة للغزو وللوقوع في براثن كلّ طامع خارجي فيها.

من هنا نرى أن عدم دفع أرزاق الجنود من قبل الخليفة هو خطأ استراتيجي كبير، سيتكرّر غالباً في تاريخ الدولة العباسية. لقد تكرّر فعلاً مع المعتز الذي خلعه الجند الأتراك بسبب تمنّعه عن دفع أعطياتهم.

ب - كان مقتل الخليفة المعتز على يد الأتراك سابقة خطيرة في التاريخ العباسي أدت إلى الاستهانة بموقع الخلافة وتغيير الخلفاء المرة تلو الأخرى. وقد سبق وأوردنا

(١) الجنرال شارل ديغول، نحو الجيش المحترف، دار المكشوف، بيروت، ١٩٤٣، ص ٦٣.

في الجزء السابق من هذه الموسوعة جدولاً بالخلفاء الذين خلعوا وقتلوا.

ج - أمام تفوّق الجند، اعتمد القائد ابن طاهر استراتيجية الأرض المحروقة إذ أحرق السفن وحوانيت التجار مردداً «الغاية تبرّر الوسيلة».

د - ظهر جلياً أن الصراع على السلطة في بغداد أصبح خلال خلافة المعتزّ يدور بين الأتراك والمغاربة، وجميعهم من المرتزقة الذين جنّدهم الخلفاء تخلصاً من سيطرة الفرس.

لذلك نرى أن الدولة التي تعتمد في قوتها على الجنود الغرباء عن شعبها هي دولة تسير نحو التضعضع والضعف. فالجندي المرتزق تحركه الدوافع المادية، فيما يحرّك المقاتل الوطني حبّ الوطن وروح الانتماء إلى جيشه ومجتمعه وشعبه. لقد درجت الإمبراطوريات الكبرى على اعتماد المرتزقة في جيوشها، لذلك كانت دائمة الحذر من ثوراتهم التي كانت شائعة في العهود القديمة.

أما اليوم، فالجيش يجنّد من الشعب الذي تجمعه معه أهداف وتطلّعات وحوافز مشتركة. جاء في كتابنا «المجتمعات العسكرية عبر التاريخ»، عن وحدات المرتزقة، ما يأتي:(1)

«قد يلجأ المرتزقة إلى الإضراب بسبب تأخر معطياتهم، ويترافق ذلك أحياناً مع أعمال عدوانية قد تصل إلى حد العصيان كما حصل في جيش إسبانيا في البلاد المنخفضة بين ١٥٧٢ و١٦٠٧. وفي هذه الحالات قد يتحوّل الإضراب إلى فرار جماعي والتحاق بالجيش المعادي لقاء دفع بدلات أكبر. وقد كثرت هذه الظاهرة خلال حرب الثلاثين سنة الأوروبية التي سجلت العدد الأكبر من المرتزقة غير المنتمين إلى أية جنسية».

---

(١) العميد الركن سامي ريحانا، المجتمعات العسكرية عبر التاريخ، مرجع سابق، ص ٢٥١ - ٢٥٢.

الفصل الرابع

العمليات العسكرية في عهد المهتدي بالله والمعتمد على الله

بويع المهتدي محمّد بن هارون الواثق بالخلافة لليلة بقيت من رجب السنة خمس وخمسين ومائتين للهجرة، وله يومئذٍ سبع وثلاثون سنة. وكان رفض البيعة قبل أن جيء بالمعتز، فخلع وقتل بعد أن مدّ يده وبايع المهتدي.(١)

وبنى المهتدي قبة لها أربعة أبواب، وأسماها «قبّة المظالم»، وجلس فيها للعام والخاص للمظالم. كما أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وحرّم الشراب وأظهر العدل. وكان يحضر كلّ جمعة إلى المسجد الجامع ويخطب في الناس.(٢)

١ – استيلاء مفلح على طبرستان

في السنة الخامسة والخمسين والمائتين سار القائد التركي مفلح، بأمر من موسى بن بغا، إلى طبرستان حيث جرى قتال بينه وبين الحسن بن زيد العلوي انتصر فيه مفلح وانصرف الحسن إلى الديلم. دخل مفلح طبرستان وأحرق منازل الحسن ثمّ سار إلى الديلم بطلبه، لكنه عاد من دون أن يظفر به، لأن موسى بن بغا أمره بالانصراف إلى الري.(٣)

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٣٢.

(٢) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٠٧.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٠٤ – ٢٠٥.

٢ – خروج صاحب الزنج في البصرة

في السنة الخامسة والخمسين والمائتين أيضاً خرج في البصرة رجل زعم أنه يعود بنَسَبِه إلى الإمام علي،[١] وجمع الزنج حوله وعبر دجلة. وكان قد نزل سابقاً البحرين فأحلّه أهلها محلّ نبي، وجبى الخراج منهم وحارب بهم جند الخليفة. ثمّ انتقل إلى الإحساء قبل أن يقصد البصرة وينزل ببني ضبيعة، فتتبعه جماعة منها علي بن أبان المهلبي.[٢]

والزنج طائفة من العبيد الأفارقة الذين كُلِّفوا القيام بالأعمال الشاقة من دون أن يتقاضوا أجراً سوى القليل من التمر والدقيق يقتاتون به. وسط هذه الأوضاع برز صاحب الزنج الذي اشتهر بفصاحته وبلاغته، فاستطاع أن يؤلّب حوله العبيد ويستميل قلوبهم لاسيما في البصرة ونواحيها.

أما الشعار الذي أطلقه فكان أن ساعة القضاء على الرق والعبودية قد حانت.

وهكذا اجتمع إليه من العبيد والموالي خلق كثير، حتى عظم شأنه وقويت شوكته فغزا المدن والحصون وراح ينهب ويستولي على الخيرات ويأسر ويشيع الذعر في نفوس الأهالي، حتى أصبح له مال عظيم وأثرى ثراءً كبيراً.

وانتشر الزنج بقيادة صاحبهم في البلاد العراقية والبحرين وهجر، وأصبحوا يشكلون خطراً على الخلافة نفسها بعد أن تمكّن صاحب الزنج من استقطاب قادة كبار كعلي ابن أبان. عمل الزنج تحت قيادة ابن أبان فتمكّنوا من هزيمة جيوش عديدة أرسلها الخليفة للقضاء عليهم بقيادة قادة كبار موالين له أمثال موسى بن بغا ومنصور بن جعفر الخياط وجعلان وغيرهم.

وهكذا استفحل أمر صاحب الزنج وازداد خطره، ما اضطرّ الخليفة إلى تجنيد جيوش كبيرة وإرسالها بقيادة أخيه الموفق الذي خرج لقتاله السنة ٢٦٧هـ فحاصره في مدينته حتى استولى عليها. ثمّ استمرّ في

(١) زعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.
(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٤٢.

قتاله سنين عديدة حتى اضطره إلى الاستسلام بعد أربع عشرة سنة من القتال (٢٥٥ - ٢٧٠هـ).

سنحاول اتباع مسيرة صاحب الزنج والتطرّق إلى كلّ المعارك التي وقعت خلال القتال معه.

فقد قام عامل البصرة محمد بن رجاء الحضاي بحبس جماعة ممن كانوا يميلون إليه، ومنهم ابنه وزوجته وجارية حامل منه.

ثمّ انتقل إلى بغداد حيث أقام مدّة، زاعماً انه ظهرت له آيات عرف بها ما في ضمائر أصحابه. وهكذا استمال جماعة من أهل بغداد.[١]

وعندما عُزل عامل البصرة محمد بن رجاء وثب رؤساء البلالية والسعدية إلى السجون فأخرجوا من فيها بمن فيهم أهله، فعاد إليها ونزل في قصر القريشي، وأظهر أنه وكيل أولاد الواثق في بيع السباخ[٢]. ومن مكانه دعى غلمان أهل البصرة ووعدهم بأن يقودهم ويملّكهم الأموال، فاجتمع إليه خلق كثير. ثمّ التحق به أحد روساء الزنج، ويعرف بالقصير، في ثلاثمائة من الزنج فكثر أتباعه.

وجرت موقعة بينه وبين عامل الأبلة وكور دجلة «ابن أبي عون» الذي كان يقود أربعة آلاف من الجند فانتصر صاحب الزنج. وقتل من جند ابن أبي عون جماعة ومات قسم منهم عطشاً. وأمر بضرب أعناق الأسرى منهم.[٣]

ثمّ سار إلى القادسية فنهبها، كما نهب داراً لبعض بني هاشم فيها سلاح، فأصبح لدى جنده سلاح يقاتلون به. وجاءته جماعة من أهل البصرة لقتاله، فوجّه يحيى بن محمد في خمسمائة رجل فهزموا البصريين واستولوا على سلاحهم. ثمّ قاتل طائفة أخرى عند قرية تعرف بقرية اليهود فهزمهم أيضاً وأثبت قوته.[٤]

نقل ابن الأثير لائحة بالمعارك التي

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٢١.

(٢) السباخ: منطقة في البصرة.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٤٥.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٠٩.

خاضها صاحب الزنج مع مواليه الذين دعاهم السودانيين، نوردها كما يلي:[١]

* هاجم الجعفرية ووضع السيف في أهلها، فقتل أكثرهم وجاء منهم بأسرى فأطلق سراحم.

* لقي جيشاً كبيراً للبصريين مع رئيس اسمه عقيل، فهزمهم وقتل منهم خلقاً كثيراً، واستولى على سفنهم بعد أن نهب ما فيها.

* نهب القرية المعروفة بالمهلبية وأحرقها وأفسد أرضها.

* اصطدم بأحد قادة الأتراك واسمه «أبو هلال» كان يقود أربعة آلاف مقاتل على نهر الريان، فاقتتلوا وحمل السودان[٢] عليه حملة قوية فقتلوا صاحب علمه، فانهزم هو وأصحابه، فتتبّعهم السودان وقتلوا منهم أكثر من ألف وخمسمائة رجل، وأخذوا منهم أسرى، فأمر صاحب الزنج بقتلهم.

* علم أن «الزينبي» أعدّ الخيول والمتطوعة والبلالية والسعدية لمقاتلته، فأرسل علياً بن أبان في مائة من الجند فاصطدم بجماعة منهم وهزمهم والتحق به من معهم من الموالي.

* صادر ألفاً وخمسمائة سفينة.

* ثمّ قصد جيشاً للبصرة وهاجمه. لكن مجموعات جيش البصرة كبّروا وحملت خيولهم فتراجع الزنج حتى بلغوا جبلاً كان عليه صاحب الزنج. غير أن الزنج عادوا وحملوا على جيش البصرة حملة قوية فانهزم هذا الجيش بعد أن قتل منه عدد كبير من الجند.

* بلغ الزنج بأن كميناً قد نصب لهم، فساروا إليه، فإذا الكمين في أكثر من ألف من المغاربة، فقاتلوهم قتالاً شديداً. ثمّ حمل السودان عليهم فقتلوهم أجمعين واستولوا على سلاحهم.

* وجّه صاحب الزنج أصحابه نحو مائتي سفينة تحمل دقيقاً فاستولوا على الدقيق. ثمّ نهب قرية ميزران التي وجد فيها جمعاً من الزنج وزعهم على قواده.

---

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٢٠٩.

(٢) السودان هم من تابعي صاحب الزنج.

* عبر جيش البصرة النهر المعروف بالرياحي في ثلاثمائة رجل،[1] فصاح الزنج: السلاح السلاح، وقاتلوه من الظهر إلى آخر وقت العصر حين حملوا حملة صادقة فهزموه وقتلوا من أهل البصرة والأعراب زهاء خمسمائة.

* ثمّ حاول الزنج دخول البصرة فلقيهم أهلها في جمع عظيم، فانهزم الزنج وتراجعوا فوقعوا في نهر كبير وقُتلت منهم جماعة وغرقت جماعة وتفرّق الباقون.

بعد هذه المعركة لم يبق مع صاحب الزنج سوى خمسمائة من الموالي.

* اجتمع أهل البصرة وانتدبوا لقتاله رجلاً اسمه حماد الساجي، كان من غزاة البحر وله علم بركوب السفن، فجمع المتطوعة ورماة الأهداف وأهل المسجد الجامع ومن خفّ معه من البلالية والسعديّة. وشحن ثلاثة مراكب وسيّرها في النهر وسيّر الرجالة على شاطئه.

فلمّا علم صاحب الزنج بذلك نصبت طائفة من جنده بقيادة زريق الأصبهاني كميناً في شرق النهر، وطائفة أخرى كميناً في غربه. وأمر فرقة أخرى أن تستتر ولا تظهر حتى يصبح أهل البصرة بين الكمينين، وعندئذ يخرجون ويصيحون عالياً. وبقي هو في عدد قليل من أتباعه.

وبوصول قوات البصرة إلى الكمينين، ظهر جندهما على جانبي النهر ومن وراء السفن والرجالة فهاجموهم فغرقت طائفة من أهل البصرة وهرب الباقون إلى الشط فأدركهم السيف. فمن ثبت قتل، ومن ألقى نفسه في الماء غرق، فهلك أكثر ذلك الجمع وكثر المفقودون من أهل البصرة. وقد دعي ذلك اليوم «يوم البيداء».

وهكذا انتصر صاحب الزنج واستفحل أمره. وتمكّن الرعب في قلوب أهل البصرة منه، فأمسكوا عن حربه؛ فانصرف إلى السبخة (سبخة أبي قرة) وبث أصحابه يميناً ويساراً للغارة والنهب.

ملاحظة: نظراً إلى أن الحرب مع صاحب الزنج طالت، فإننا سنذكر وقائعها ومعاركها تباعاً خلال تقدّمنا في فصول هذا الجزء.

(١) في الطبري: ٣٠٠٠ رجل.

٣ – مقتل القائد صالح بن وصيف

في الثاني عشر من محرّم من السنة السادسة والخمسين والمائتين قَدِمَ القائد موسى بن بغا الكبير إلى سامراء فدخلها في جيش كبير قد عبّأه ميمنة وميسرة وقلباً وجناحين. قدم هؤلاء إلى دار الخلافة واستأذنوا للدخول فأبطأ الإذن ساعة، فدخلوا على الخليفة بالقوّة فأقاموه من مجلسه وانتهبوا ما كان فيه. ثمّ أخذوه مهاناً إلى دار أخرى، فجعل يقول لموسى:(١)

«مالك ويحك؟ إني أرسلت إليك لأتقوى بك على صالح بن وصيف». وحلف الخليفة بذلك فطابت الأنفس وبايعوه بيعة ثانية مشافَهةً. ثمّ بعثوا إلى صالح ليحضر إليهم ويناظرهم في أمر المعتز ومن قتله صالح من الكتّاب وغيرهم، فوعدهم بأن يأتيهم.

ولمّا أبطأ صالح بن وصيف، همّ أصحاب موسى بخلع الخليفة، لكنهم تراجعوا بعد إعطاء رأي العقال منهم.(٢)

فلمّا كان يوم الأحد لثمان بقين من صفر ظفروا بصالح فقتلوه وجاؤوا برأسه إلى المهتدي بالله الذي أمر بدفنه. فلمّا أصبح الصباح من يوم الإثنين رفع الرأس على رمحٍ ونودي عليه في أرجاء البلد: «هذا جزاء من قتل مولاه».(٣)

٤ – خلع المهتدي بالله وولاية المعتمد على الله

في السنة السادسة والخمسين والمائتين وفي الخامس عشر من رجب خلع المهتدي وتوفي لاثنتي عشرة ليلة بقيت منه.(٤)

نقل ابن كثير وقائع الأحداث والقتال الذي أدى إلى مقتل الخليفة المهتدي بالله، فكتب:(٥)

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٥٨.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء٥، ص ٦٣٠.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٢٤ – ٢٥.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٢٠.

(٥) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٢٥.

«لمّا بلغ موسى بن بغا أن مساور الشاري قد عاث بتلك الناحية فساداً ركب إليه في جيش كثيف ومعه مفلح وبايكباك التركي فاقتتلوا هم ومساور الخارجي ولم يظفروا به بل هرب منهم وأعجزهم. وكان قد فعل قبل مجيئهم الأفاعيل المنكرة فرجعوا ولم يقدروا عليه. ثمّ إن الخليفة أراد أن يخالف بين كلمة الأتراك فكتب إلى بايكباك أن يتسلّم الجيش من موسى بن بغا ويكون هو الأمير على الناس وأن يُقبل بهم إلى سامراء. فلما وصل إليه الكتاب أقرأه موسى بن بغا فاشتدّ غضبه على المهتدي واتفقا عليه وقصدا إليه إلى سامراء، وتركا ما كانا فيه. فلما بلغ المهتدي ذلك استخدم من فوره جنداً من المغاربة والفراغنة والأشروسية والأرزكشية والأتراك أيضاً، وركب في جيش كثيف. فلمّا سمعوا به رجع موسى بن بغا إلى طريق خراسان وأظهر بايكباك السمع والطاعة، فدخل في ثاني عشر رجب إلى الخليفة سامعاً مطيعاً. فلما أوقف بين يديه وحوله الأمراء والسادة من بني هاشم شاورهم في قتله؛ فقال له صالح بن علي بن يعقوب بن أبي جعفر المنصور: يا أمير المؤمنين لم يبلغ أحد من الخلفاء في الشجاعة ما بلغت. وقد كان أبو مسلم الخراساني شراً من هذا وأكثر جنداً، ولما قتله المنصور سكنت الفتنة وخمد صوت أصحابه. فأمر عند ذلك بضرب عنق بايكباك ثمّ ألقى رأسه إلى الأتراك. فلما رأوا ذلك أعظموه وأصبحوا من الغد مجتمعين على أخي بايكباك طغوتيا. فخرج إليهم الخليفة فيمن معه؛ فلما التقوا خامرت الأتراك الذين مع الخليفة إلى أصحابهم وصاروا إلباً[1] واحداً على الخليفة. فحمل الخليفة فقتل منهم نحواً من أربعة آلاف؛ ثمّ حملوا عليه فهزموه ومن معه فانهزم الخليفة وبيده السيف صلتاً[2] وهو ينادي: يا أيها الناس انظروا خليفتكم. فدخل دار أحمد ابن جميل صاحب المعونة، فوضع فيها سلاحه ولبس البياض وأراد أن يذهب

(١) إلباً: جماعة واحدة.

(٢) صلتاً: مشهوراً.

فيختفي. فعاجله أحمد بن خاقان منها فأخذه قبل أن يذهب، ورماه بسهم وطعن في خاصرته به وحمل على دابة وخلفه سائس وعليه قميص وسراويل حتى أدخلوه دار أحمد بن خاقان. فجعل من هناك يصفعونه ويبزقون في وجهه، وأخذ خطه بستمائة ألف دينار، وسلموه إلى رجل فلم يزل يجأ[1] خصيتيه ويطؤهما حتى مات رحمه الله. وذلك يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب».

أما ابن الأثير، فقد فصّل وقائع المعركة التي دارت بين الخليفة والأتراك فرأى أن «الخليفة صيّر في الميمنة مسروراً البلخي، وفي الميسرة ياركجوج، ووقف هو في القلب مع إسكارتين وطبايغو، وغيرهما من القواد، فأمر بقتل بابكيال وألقى رأسه إليهم عتاب بن عتاب، فحملوا على عتاب فقتلوه. وعطفت ميمنة المهتدي وميسرته بمن فيها من الأتراك، فصاروا مع إخوانهم الأتراك، فانهزم الباقون عن المهتدي وقتل جماعة من الفريقين، فقيل: قتل سبعماية وثمانون رجلاً. قيل: قتل من الأتراك نحو أربعة آلاف، وقيل: ألفان، وقيل: ألف، وقتل من أصحاب المهتدي خلق كثير...».[2]

ولما أخذ المهتدي بالله وحبس، أحضر أبو العباس أحمد بن المتوكل، وكان محبوساً بالجوسق، فبايعه الناس والأتراك. وكتبوا بذلك إلى موسى بن بغا، وهو بخانقين، فحضر إلى سامراء فبايعه. ولُقّب الخليفة المعتمد على الله.[3] وكان ذلك يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب في السنة السادسة والخمسين والمائتين للهجرة.

وكان المعتمد، لما بويع بالخلافة، ابن خمس وعشرين سنة، فاستوزر عبيدالله بن يحيى بن خاقان. فلما مات عبيدالله استوزر الحسن بن مخلد، ثمّ صارت الوزارة إلى سليمان بن وهب، ثمّ إلى صاعد.[4]

---

(١) يجأ: يضرب.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٢١.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٧٨.

(٤) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٢٦.

٥ - قتال صاحب الزنج

وفي السنة السادسة والخمسين والمائتين أرسل الخليفة القائد جعلان لقتال صاحب الزنج بالبصرة، فنزل في مكان يبعد فرسخاً عن صاحب الزنج وخندق فيه. وأقام ستة أشهر لا يجد للقائه سبيلاً بسبب ضيق المكان وعدم ملاءمته لمناورة الخيالة، وكان أكثر جند جعلان من الفرسان.(١)

فلمّا طال الوقت، أرسل صاحب الزنج مجموعة من قواته إلى مسالك الخندق فهاجموا قوات جعلان وقتلوا منهم جماعة فخاف الباقون خوفاً شديداً، فترك جعلان خندقه وانصرف إلى البصرة فظهر عجزه للخليفة.(٢)

بعد هذا القتال تحوّل صاحب الزنج إلى نهر أبي الخصيب وأخذ أربعة وعشرين مركباً من مراكب البحر واستولى منها على أموال كثيرة وقتل من فيها. كما دخل جنده الأبلة وقتلوا منها خلقاً كثيراً وأحرقوها.(٣)

وبعد أخذ الأبلة، خاف أهل عبادان فكتبوا إلى صاحب الزنج وسلموا إليه حصنهم فأمّنهم واستولى على الحصن وأخذ ما فيه من العبيد والسلاح ففرّقه في أصحابه.

بعد ذلك طمع العلوي صاحب الزنج بالأهواز فسيّر جنده نحو جبى، فخاف أهلها وهربوا منها، فدخلها الزنج وقتلوا من رأوا فيها، وأحرقوا ونهبوا وأخربوا ما وراءها حتى الأهواز. فلما بلغوا الأهواز هرب من فيها من الجند ومن أهلها ولم يبقَ إلاّ القليل، فدخلوها وأخربوها.(٤)

ولمّا وصل خبر ما فعل الزنج بالأهواز وعبادان إلى البصرة انتقل كثيرون من أهلها منها إلى بلدان أخرى.

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٧٦.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٢٥.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٧٧.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٢٦.

٦ - عصيان ابن الصوفي العلوي في مصر

في السنة السادسة والخمسين والمائتين ظهر في صعيد مصر إنسان علوي، ذكر أنه يعود بنسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب واسمه إبراهيم بن محمد بن يحيى، وعرف بابن الصوفي، وملك مدينة إسنا ونهبها وعمّ شرّه البلاد.

سير إليه أحمد بن طولون جيشاً فهزمه ابن الصوفي وأسر قائده وصلبه. عاد ابن طولون وسيّر إليه جيشاً آخر، فالتقى الجيشان في نواحي أخميم حيث جرى قتال عنيف انهزم ابن الصوفي في نهايته وقتل عدد كبير من جنده.[١]

٧ - خروج علي بن زيد العلوي في الكوفة

في السنة نفسها خرج رجل آخر بالكوفة يقال له علي بن زيد الطالبي، واستولى على المدينة وأزال عنها نائب الخليفة واستقرّ فيها.[٢]

نقل ابن الأثير خبر الجيشين اللذين وجههما الخليفة لقتاله الذي انتهى بانهزامه وإخراجه من الكوفة، فكتب:[٣]

«فسيّر إليه الشاه بن ميكال في جيش كثيف، فالتقوا واقتتلوا فانهزم الشاه وقتل جماعة كثيرة من أصحابه ونجا الشاه. ثمّ وجّه المعتمد إلى محاربته كيجور التركي وأمره أن يدعوه إلى الطاعة ويبذل له الأمان. فسار كيجور فنزل بشاهي وأرسل إلى علي ابن زيد يدعوه إلى الطاعة وبذل له الأمان. فطلب علي أموراً لم يجبه إليها كيجور؛ فتنحى علي بن زيد عن الكوفة إلى القادسية فعسكر بها ودخل كيجور إلى الكوفة ثالث شوال من السنة. ومضى علي بن زيد إلى خفان ودخل بلاد بني أسد، وكان قد صاهرهم وأقام هناك ثمّ سار إلى جنبلاء. وبلغ كيجور خبره فأسرى إليه من الكوفة سلخ ذي الحجة من السنة فواقعه فانهزم علي

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٢٧.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٢٧.

ابن زيد. وطلبه كيجور ففاته وقتل نفراً من أصحابه وأسر آخرين وعاد كيجور إلى الكوفة».

٨ – العودة إلى الحرب ضد الزنج

مع دخول السنة السابعة والخمسين والمائتين عاد صاحب الزنج للتحرّك خاصة في منطقة البصرة. استدعى الخليفة المعتمد على الله أخاه أبا أحمد الموفق من مكة وعقد له على الكوفة وبغداد والسواد وواسط وكور دجلة والبصرة والأهواز وفارس، وأمر بأن يُرسل القائد ياركوج[1] إلى البصرة وكور دجلة والبحرين واليمامة، وذلك تمهيداً للقتال ضد الزنج.[2]

جرت وقائع ومعارك عديدة ضد الزنج في مناطق بلاد ما بين النهرين سنختصرها في بالآتي:[3]

* أوقع سعيد الحاجب بجيش من الزنج بجوار النهر المعروف بالمرغاب[4] وهزمهم واستنقذ ما في أيديهم من النساء والنهب. وبلغ سعيداً أن جيشاً لصاحب الزنج موجود بالفرات، فقصده وهزمه وفرّقه فكتب الطبري:[5]

«فلقد رأيت المرأة من سكان الفرات تجد الزنجي مستتراً بتلك الأدغال، فتقبض عليه حتى تأتي به عسكر سعيد ما به منها امتناع».

* عبر سعيد إلى غرب دجلة فأوقع بصاحب الزنج في معارك عدّة، ثمّ عاد وعسكر في منطقة هطمة.

* أوقع صاحب الزنج بالقائد سعيد الذي كان يسير نحوه مع جيشه ليلاً. وانتصر جيش الزنج فقتل من أصحاب سعيد عدداً كبيراً وأحرق معسكره.

(١) في الطبري: يارجوج.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٨٠.

(٣) معلومات مأخوذة عن موسوعات ابن خلدون وابن الأثير والطبري والمسعودي وابن كثير.

(٤) المرغاب: أحد روافد نهر معقل.

(٥) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٨٠.

* أبدل الخليفة سعيداً الحاجب بالقائد منصور بن جعفر الخياط، فقام هذا الأخير بحماية السفن التي تدخل وتخرج من البصرة، فضاقت الميرة بالزنج كونه منعهم عن سلب هذه السفن. وهذا ما دفع صاحب الزنج إلى تركيز كمين له؛ فلما أقبل منصور خرج الزنج عليه فقتلوا من أصحابه عدداً كبيراً وغرق منهم عدد آخر في النهر.

* أرسل صاحب الزنج جيشاً بقيادة علي بن أبان لقطع قنطرة على دجلة تدعى «أربك»؛ فلقيه جيش للخليفة بقيادة إبراهيم بن سيما فأوقع بجيش الزنج وقتل منهم عدداً كبيراً وجرح ابن أبان الذي سار ونزل بالخيزرانية.

سيّر إبراهيم بن سيما كاتبه شاهين بن بسطام مع قسم من جيشه على طريق بجانب نهر جبى. فلقيه ابن أبان بموضع بين نهري جبى وموسى واقتتلا قتالاً شديداً قام الزنج خلاله بهجوم كاسح أدى إلى هزيمة جند الخليفة ومقتل قائده شاهين مع عدد كبير من رجاله.

وسار ابن أبان نحو إبراهيم فأوقع بجيشه أيضاً وقتل منهم أعداداً كبيرة.

بعد سلسلة الهزائم التي مُني بها جيش منصور بن جعفر الذي كان الخليفة قد أرسله لقتال الزنج، ضعفت حماية السفن القادمة من وإلى البصرة، ما أوقع ضيقاً اقتصادياً بأهلها. تزامن ذلك مع هجمات متكرّرة من قبل صاحب الزنج على المدينة.

كتب ابن الأثير عن تطويق البصرة من قِبَل جيوش صاحب الزنج ودخولها والتنكيل بأهلها وقتلهم وإحراقها ما يأتي:[1]

«فلمّا كان في شوال أزمع الخبيث على جمع أصحابه لدخول البصرة والجد في إخرابها لضعف أهلها وتفرّقهم وخراب ما حولها من القرى. ثمّ أمر محمد بن يزيد الدرامي، وهو أحد من صحبه بالبحرين، أن يخرج إلى الأعراب ليجمعهم فأتاه منهم خلق كثير فأناخوا بالقندل. ووجه إليهم العلوي سليمان بن موسى الشعراني وأمرهم بتطرق البصرة والإيقاع بها ليتمرّن

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٣ – ٢٤.

الأعراب على ذلك. ثمّ أنهض علي بن أبان وضمّ إليه طائفة من الأعراب وأمره بإتيان البصرة من ناحية بني سعيد، وأمر يحيى بن محمد البحراني بإتيانها مما يلي نهر عدي وضمّ إليه سائر الأعراب. فكان أول من واقع أهل البصرة علي بن أبان وبفراج يومئذ بالبصرة في جماعة من الجند فأقام يقاتلهم يومين ومال الناس نحوه. وأقبل يحيى بن محمد فيمن معه نحو الجسر فدخل علي بن أبان وقت صلاة الجمعة لثلاث عشرة بقيت من شوال فأقام يقتل ويحرق يوم الجمعة، وليلة السبت، ويوم السبت. وغادر يحيى البصرة يوم الأحد فتلقاه بفراج وبرية في جمع فردوه فرجع فأقام يومه ذلك. ثمّ غاداهم اليوم الآخر فدخل وقد تفرّق الجند وهرب برية وانحاز بفراج ومن معه ولقيه إبراهيم بن يحيى المهلبي فاستأمنه لأهل البصرة فأمنهم. فنادى منادي إبراهيم: من أراد الأمان فليحضر دار إبراهيم، فحضر أهل البصرة قاطبة حتى ملؤوا الرحاب. فلما رأى اجتماعهم انتهز الفرصة لئلا يتفرّقوا فغدر بهم وأمر أصحابه بقتلهم؛ فكان السيف يعمل فيهم وأصواتهم مرتفعة بالشهادة فقتل ذلك الجمع كلّه ولم يسلم إلاّ النادر منهم. ثمّ انصرف يومه ذلك إلى الحربية[١] ودخل علي بن أبان الجامع فأحرقه وأحرقت البصرة في عدّة مواضع منها المربد، وزهران، وغيرهما. واتسع الحريق من الجبل إلى الجبل وعظم الخطب وعمّها القتل والنهب والإحراق وقتلوا كلّ من رأوه بها، فمن كان من أهل اليسار أخذوا ماله وقتلوه ومن كان فقيراً قتلوه لوقته وبقوا كذلك عدّة أيام. ثمّ أمر يحيى أن ينادى بالأمان ليظهروا فلم يظهر أحد. ثمّ انتهى الخبر إلى الخبيث فصرف علي بن أبان عنها وأقرّ يحيى عليها لموافقته هواه في كثرة القتل وصَرَفَ علياً لإبقائه على أهلها، فهرب الناس على وجوههم وصرف الخبيث جيشه عن البصرة».

عند هذا الحد أمر الخليفة المعتمد محمداً المولد بالسير إلى البصرة لحرب الزنج، فسار

---

(١) في الطبري: الخريبة.

حتى نزل الأيلة، وجاء «بريةُ» فنزل البصرة واجتمع إليه من أهلها عدد كبير. أرسل صاحب الزنج قوّة مع يحيى بن محمد قاتلت المولد مدّة عشرة أيام انهزم في نهايتها جيش الخليفة وتبعه الزنج إلى «الجامدة» فأوقعوا بأهلها ونهبوها.(١)

٩ – مقتل القائد منصور بن جعفر الخياط

كان الخليفة قد أرسل جيشاً كبيراً بقيادة منصور بن جعفر الخياط، سبق الحديث عن قتاله مع صاحب الزنج الذي، وما أن فرغ من حصار البصرة ودخولها، حتى وجّه علياً بن أبان لحرب منصور الذي كان يومئذ في الأهواز.(٢) ثمّ وجّه صاحب الزنج قوّة جديدة لحرب منصور بقيادة أبي الليث الأصبهاني وفيها جلّة أصحابه، وأمره بطاعة علي بن أبان.(٣)

لكن الأصبهاني تقدّم نحو منصور من دون إذن علي، حيث جرى قتال بينهما انتصر فيه منصور. ثمّ إن منصوراً سار إلى الخيزرانيه حيث اصطدم بابن أبان فجرى قتال حتى الظهر انهزم خلاله منصور وتفرق عنه أصحابه فأدركته جماعة من الزنج، فحمل عليهم وقاتلهم حتى تكسّر رمحه وفني نشابه. ثمّ دفع حصانه كي يعبر النهر فوقع في الماء فلحق به أحد الزنوج وقتله.(٤)

وكان ذلك في السنة الثامنة والخمسين والمائتين للهجرة.

(١) المعلومات عن القتال ضد الزنج أخذت من المصادر التالية:
- ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٤٦ – ٦٤٧.
- الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٨٠ – ٤٨٧.
- ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٢٥ – ٢٣٢.
- ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٣١ – ٣٣.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٤٧.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٨٨.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٣٥.

١٠ – مسير أبي أحمد الموفق شقيق الخليفة لقتال الزنج

في ربيع الأول من السنة الثامنة والخمسين والمائتين عقد الخليفة المعتمد لأخيه أبي أحمد بن المتوكل على ديار مصر وقنسرين والعواصم وسيّره مع القائد مفلح إلى حرب الزنج بالبصرة.

كتب الطبري عن عظمة جيش الموفّق:[١]

«عاينت الجيش الذي شخص فيه أبو أحمد، وقد اجتازوا بباب الطاق، فسمعت جماعة من مشايخ أهل بغداد يقولون: «قد رأينا جيوشاً كثيرة من الخلفاء، فما رأينا مثل هذا الجيش أحسن عدّة، وأكمل سلاحاً وعتاداً، وأكثر عدداً وجمعاً».

فلمّا نزل جيش أبي أحمد بنهر معقل انسحبت قوتان من قوى الزنج أمامه، فطلب صاحب الزنج من علي بن أبان المسير إليه في من معه. وأمر صاحب الزنج فنودي في الزنوج بالخروج إلى الحرب فخرجوا، فرأوا مفلحاً قد أتاهم في جند فقاتلوه قتالاً شديداً. فبينما مفلح يقاتلهم أتاه سهم أودى بحياته فانهزم جيشه وقتل الزنج منه أعداداً كبيرة وحملوا الرؤوس إلى قائدهم.[٢]

بعد هذه المعركة انتقل أبو أحمد بجيشه إلى واسط حيث أمر بتجديد الآلات وإعطاء الجند أرزاقهم وإصلاح الأسلحة. ثمّ سار إلى عسكر صاحب الزنج، وأمر جماعة من قواده بقصد مواضع سمّاها لهم على نهر أبي خصيب حيث نشب القتال مع الزنج.[٣]

ولمّا رأى الزنج أن أبا أحمد بقي في قلّة من جنده طمعوا فيه فهاجموه، واشتد القتال حوله وكثر القتلى والجرحى من جنده، فيما أحرق جند أبي أحمد منازل الزنوج وأنقذوا جمعاً من النساء منهم.

مع اشتداد القتال ضدّ جند أبي أحمد، أعطى هذا الأخير أوامره لهم بالعودة إلى

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٨٨.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء١١، ص ٣٣.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٩٠.

السفن؛ لكن الزنج منعوا قسماً من جيشه عن العودة إلى هذه السفن فجرى قتال عنيف بين الجانبين قتل خلاله عدد كبير من الزنج وقتل أصحاب أبي أحمد الذين مُنعوا من الوصول إلى السفن، وكانوا مائة وعشرة رجال.[1]

بعد هذه المعركة سار أبو أحمد إلى واسط ومنها إلى سامراء واستخلف على واسط محمداً بن المولد وكلفه بقتال صاحب الزنج.[2]

١١ - مقتل القائد الزنجي يحيى بن محمد البحراني

خلال حملة الموفّق على الزنج قتل القائد الزنجي يحيى بن محمد البحراني. لخص ابن خلدون رواية مقتله، فكتب:[3]

«كان أصطَيخور[4] لما وليَ الأهواز بعد منصور الخيّاط بلغه مسير يحيى بن محمّد قائد الزنج إلى نهر العبّاس عند مسير الموفق إليهم، فخرج إلى أصطَيخور فقاتله وعبر يحيى النهر، وغنم سفن الميرة التي كانت عند أصطَيخور، وبعث طلائعه إلى دجلة فلقوا جيش الموفّق فرجعوا هاربين، وطلائع الموفق في أتباعهم، وعبروا النهر منهزمين. وبقي يحيى فقاتل وانهزم، ودخل في بعض السفن جريحاً وغنم طلائع الموفق غنائمهم والسفن، وأحرقوا بعضها وعبروا الماخورة على يحيى فأنزلوه من سفنهم خشية على أنفسهم، فسعى به طبيب كان يداوي جراحه، وقبض عليه وحمل إلى سامراء وقطع، ثمّ قتل».

١٢ - دخول الزنج الأهواز

في السنة التاسعة والخمسين والمائتين ضمّ صاحب الزنج جيش يحيى البحراني إلى

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٣٨.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء٥، ص ٦٤٩.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) في ابن كثير: اصعجور - وفي الطبري: اصعجون.

جيش علي بن أبان وسيّره إلى الأهواز. وكان المتولي عليها أصطيخور كما تقدّم. فبلغه خبر الزنج، فخرج إليهم والتقى الجيشان بدستميسان[١] حيث جرى قتال عنيف هزم خلاله صاحب الأهواز وقتل مع عدد كبير من جنده، واسر خلق كثير.[٢]

ثمّ حُمل الأسرى ورؤوس القتلى والأعلام إلى صاحب الزنج الذي أمر بسجن الأسرى. ودخل الزنج الأهواز وراحوا يعيثون فيها فساداً في انتظار قدوم موسى بن بغا.[٣]

١٣ – مسير موسى بن بغا لحرب الزنج

في ذي القعدة من السنة التاسعة والخمسين والمائتين أرسل المعتمد القائد موسى بن بغا لحرب الزنج في جيش كبير؛ فبعث إلى الأهواز عبد الرحمن بن مفلح، وإلى البصرة إسحاق بن كنداجق[٤]، وإلى باذرود إبراهيم بن سيما، وأمرهم بمحاربة الزنج.[٥]

نقل ابن خلدون تفاصيل القتال بين جيوش الخليفة وجيوش الزنج فكتب:[٦]

«فسار عبد الرحمن إلى عليّ بن أبان فهزمه أولاً، ثمّ كانت لعبد الرحمن الكرة ثانياً فأثخن فيهم. ورجعوا إلى الخبيث، وجاء عبد الرحمن إلى حصن نَهدي فعسكر به، وزحف إليه عليّ بن أبان فامتنع عليه. فسار إلى إبراهيم بن سيما ببادرود فواقعه، فانهزم أولاً إبراهيم ثمّ كانت له الكرّة ثانياً. وسار ابن أبان في الغياض فأضرموها عليهم ناراً ففرّوا هاربين، وأُسر منهم جماعة. وسار عبد الرحمن إلى عليّ بن أبان، وجاءه المدد من الخبيث في البحر، فبينما عبد الرحمن في

---

(١) في ابن كثير: دشت ميسان – في الطبري: دستماران – وفي المعجم: دستميسان.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٤٩.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٩٦.

(٤) في الطبري: كنداج – في ابن الأثير: كنداجيق – في ابن خلدون: كنداجق.

(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٤٠.

(٦) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٥٠ – ٦٥١.

حربه إذ بعث عليّ جماعة من خلفه وشعر بهم، فرجع القهقرى ولم يصب منهم شيء إلاّ بعض السفن البحريّة. ثمّ راجع عبد الرحمن حرب عليّ بن أبان وفي مقدّمته طاشتمر، فأوقعوا بعلي بن أبان ولحق بالخبيث صاحب الزنج. وأقام عبد الرحمن بن مفلح وإبراهيم يتناوبان حرب الخبيث ويوقعان به، وإسحاق بن كنداجق بالبصرة يقطع عنه المدد، وهو يبعث لكلّ منهما طائفة يقاتلونهم؛ وأقاموا على ذلك سبعة عشر شهراً إلى أن صُرف موسى بن بغا عن حربهم ووليها مسرور البلخي».

١٤ – دخول يعقوب بن الليث سجستان وطبرستان

كان عبد الله السجزي ينازع يعقوب بن الليث بسجستان. فلما قوي عليه يعقوب هرب في السنة التاسعة والخمسين والمائتين ولجأ إلى محمد بن طاهر، الذي رفض تسليمه ما أدى إلى ركوب يعقوب إلى نيسابور ودخولها عنوة حيث قبض على محمد بن طاهر وعيَّن عاملاً آخر على نيسابور، واستولى على خراسان وعيَّن عليها نائباً عنه.(١)

هرب عبد الله إلى طبرستان حيث التحق بالحسن بن زيد العلوي، فسار يعقوب في أثره فاصطدم جيشه بجيش الحسن فجرى قتال عنيف هزم فيه الحسن ففرّ إلى الشّرز وأرض الديلم ودخل يعقوب سارية وجبى خراجها. ثمّ سار في طلب الحسن إلى بعض جبال طبرستان فتتابعت عليه الأمطار نحواً من أربعين يوماً، فلم يتخلص إلاّ بمشقة كبيرة.(٢)

وأراد يعقوب ملاحقة الحسن إلى الشرز، لكنه عاد بسبب وعورة الطريق الجبلية، لاسيما بعد أن كان قد تعرّض للأمطار قبلاً. فلما خرج من طبرستان عرض رجاله فوجد أنه قد فقد أربعين ألفاً منهم وغالبية الخيل والإبل والبغال التي كانت معه.(٣)

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٤٢.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٤٩٩.

(٣) يجب أخذ الأرقام التي يذكرها المؤرخون العرب خاصة عن أعداد المقاتلين بكثير من الحذر كونهم يميلون إلى المبالغة فيها.

ثمّ سار يعقوب إلى الري حيث ألقى القبض على عبد الله وقتله، وكان ذلك في السنة الستين والمائتين للهجرة.[١]

١٥ - القتال ضد البجاة في مصر

في السنة التاسعة والخمسين والمائتين للهجرة قام البجاة بمهاجمة أعالي مصر فنهبوا وقتلوا وعادوا سالمين. وفعلوا ذلك مرات عدّة، فخرج عليهم أبي عبد الرحمن العمري ودخل بلادهم وكمن لهم في طريقهم. فلما عادوا خرج عليهم وقتل مقدمهم ومن معه ونهب بلادهم وقتل فيهم فأكثر. ثمّ تابع عليهم الغارات حتى دفعوا ما عليهم من الجزية، وكانت تلك المرّة الأولى التي يؤدّون فيها الجزية.[٢]

١٦ - الفتنة في الموصل

في السنة التاسعة والخمسين ومائتين للهجرة استعمل المعتمد على الموصل القائد التركي أشاتكين[٣]، فبعث عليها ابنه أذكرتكين الذي تسلّمها وأساء السيرة وارتكب جنده المنكر، الأمر الذي دفع بوجوه البلد للتآمر عليه ومقاتلته وإخراجه من مدينتهم بالقوة وتولية أمرهم إلى يحيى بن سليمان.[٤]

فلما كانت السنة الواحدة والستون ومائتان ولّى أشاتكين على الموصل الهيثم ابن عبد الله بن المعمّر التغلبي الذي جمع جيشاً كبيراً وسار إلى الموصل ونزل بالجانب الشرقي منها، وبينه وبينها دجلة. قاتل أهل الموصل جيش الهيثم، فعبر به إلى الجانب الغربي من المدينة وزحف إلى بابها، فخرج إليه يحيى بن سليمان في أهلها فقاتله قتالاً

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٠٠.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٤٣.
(٣) في ابن الأثير: اساتكين.
(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٥٤.

شديداً وقع خلاله عدد كبير من القتلى من الجانبين، فعاد الهيثم عن الموصل.[1]

عاد أشاتكين وعيّن على الموصل إسحاق ابن أيوب التغلبي، فخرج في جيش من عشرين ألفاً وجدّ في الحرب ضدّ يحيى فانكشف أهل الموصل ودخلها إسحاق حتى بلغ سوق الأربعاء وأحرق سوق الحشيش. ثمّ عاد أهل الموصل وجمعوا جموعهم بقيادة زياد بن عبد الواحد وحملوا حملة قوية على جيش إسحاق واشتدّ قتالهم ضده حتى أخرجوه من مدينتهم التي استقرّت في ولاية يحيى بن سليمان.[2]

١٧ – وقعة رامهرمز

في السنة الحادية والستين والمائتين وقعت معركة رامهرمز بين محمد بن واصل وعبد الرحمن بن مفلح. وكان ابن واصل قد قتل الحرث بن سيما وتغلّب على فارس؛ فأضاف المعتمد إلى موسى بن بغا فارس والأهواز والبصرة والبحرين واليمامة وأمره بقتاله.[3]

وجّه موسى قائده عبد الرحمن بن مفلح إلى الأهواز، فزحف إليه ابن واصل وتلاقى الجيشان في رامهرمز فاقتتلوا قتالاً شديداً هُزم بنتيجته عبد الرحمن وأُخذ أسيراً، وغنم ابن واصل ما في جيشه من الأموال والعدة.[4]

ولّما بلغ خبر هزيمة جيش الخلافة يعقوب الصفّار، عامل سجستان، طمع بفارس، فسار بسرعة نحوها. ولّما بلغ خبره إلى ابن واصل، أرسل خاله أبا بلال مرداساً إليه عارضاً عليه الصلح، فيما سار ابن واصل لملاقاة ابن الصفار بغتة والانتصار عليه. لكن هذا الأخير علم بالأمر فهزم جند ابن واصل وأخذ منهم جميع ما غنموه من ابن مفلح، واستولى على فارس.[5]

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٤٧.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٥٤ – ٦٥٥.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٠١.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٥٥.

(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٥٢.

١٨ - عصيان أهل برقة

في السنة نفسها شقّ أهل برقة عصا الطاعة على أحمد بن طولون وطردوا عامله عليها محمد بن الفرج الفرغاني. بعث ابن طولون جيشاً عليه غلامه لؤلؤة وأمره بالرفق بهم إذا انقادوا له، فسار الجيش حتى بلغ برقة وحاصرها وعاملها باللين. طمع أهل برقة فخرجوا يوماً على قسم من الجيش فأوقعوا بهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً. عندها أمر ابن طولون بالجد في القتال، فنصب لؤلؤة المجانيق وشدد الحصار على المدينة فطلب أهلها الأمان، فأمّنهم ودخلها وعاقب بعض رؤسائها.(١)

١٩ - الحرب بين الموفق والصفار

في السنة الثانية والستين والمائتين، وبعد أن كان قد ملك فارس من يد واصل وخراسان من يد ابن طاهر، سار يعقوب بن الليث الصفار إلى الأهواز. وكان المعتمد قد صرّح بأنه لم يُولّه على هذه الأقاليم، وخرج من سامراء في جيش كبير وسار إلى بغداد ومنها إلى الزعفرانية؛ وسيّر أخاه الموفّق في جيش كبير لمحاربة يعقوب.(٢)

سار الموفّق وعلى ميمنته موسى بن بغا، وعلى ميسرته مسرور البلخي. والتقى الجيشان فحملت ميسرة يعقوب على ميمنة الموفق فهزمتها وقتلت منها جماعة من القادة والجند أبرزهم إبراهيم بن سيما. تراجعت ميمنة الموفّق الذي كشف عن رأسه وقال: «أنا الغلام الهاشمي»، وحمل ومعه جنده حملة قوّة على جيش يعقوب الذين ثبتوا في أماكنهم.(٣)

واشتدّ القتال وجرت موقعة قوية قتل خلالها جماعة من أصحاب يعقوب الذي أصابته أسهم ثلاثة في حلقه ويديه. وبقي القتال مستعراً إلى وقت متأخر من العصر.(٤)

---

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٥٩.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٠٥.

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٣٩.

ولمّا رأى جند يعقوب أن حربه ضد الخليفة الشرعي، وهنوا وكرهوا القتال، فحمل جيش الموفق عليهم حملة شديدة ثبت خلالها يعقوب مع خاصة أصحابه مدّة قبل أن ينهزموا ويتراجعوا عن موقع القتال. ثمّ تبعهم أصحاب الموفق وغنموا ما في معسكرهم، وكان فيه من الدواب أكثر من عشرة آلاف، ومن الأموال الشيء الكثير.[1]

وكانت هذه الوقعة لإحدى عشرة خلت من رجب، غادر بعدها يعقوب الأهواز إلى خوزستان ونزل جند يسابور. أما المعتمد فعاد إلى سامراء، فيما توجّه الموفق إلى بغداد.

أما نهاية يعقوب فقد كتب عنها الطبري:[2]

«ولم يزل الملعون المارق المسمّى يعقوب ابن الليث الصفار ينتحل الطاعة، حتى أحدَثَ الأحداث المنكرة؛ من مصيره إلى صاحب خراسان، وغلبته إياه عليها، وتقلّده الصلاة والإحداث بها، ومصيره إلى فارس مرّة بعد مرّة، واستيلائه على أموالها، وإقباله إلى باب أمير المؤمنين مُظهراً المسألة في أمور أجابه أمير المؤمنين منها ما لم يكن يستحقّه، استصلاحاً له، ودفعاً بالتي هي أحسن؛ فولاّه خُراسان والرّيّ وفارس وقزوين وزنجان والشرطة بمدينة السلام. وأمر بتكنيته في كتبه، وأقطعه الضياع النفسية؛ فما زاده ذلك إلاّ طغياناً وبغياً. فأمره بالرجوع فأبى، فنهض أمير المؤمنين لدفع الملعون حين توسّط الطريق بين مدينة السلام وواسط، وأظهر يعقوب أعلاماً على بعضها الصّلبان. فقدّم أمير المؤمنين أخاه أبا أحمد الموفق بالله وليّ عهد المسلمين في القلب، ومعه أبو عمران موسى بن بغا في الميمنة وفي جناح الميمنة إبراهيم بن سيما، وفي الميسرة أبو هاشم مسرور البلخيّ، وفي جناح الميسرة الديرانيّ. فتسرّع وأشياعه في المحاربة، فحاربه حتى أثخن بالجراح، وحتى انتزع أبو عبد الله محمد بن طاهر سالماً من أيديهم، وولوا منهزمين مجروحين مسلوبين، وسلّم الملعون كلّ ما حواه ملكه».

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٦١.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٠٥.

٢٠ – هزيمة كبرى للزنج

في السنة الثانية والستين والمائتين وقعت معركة كبرى بين الزنج وأحمد بن ليثويه هزم فيها الزنج هزيمة نكراء.

وكان سببها أن مسروراً البلخي وجه أحمداً بن ليثويه إلى كور الأهواز، فنزل السوس. وكان يعقوب الصفّار قد قلّد محمداً بن عبيد الله الكردي الأهواز الذي استنجد بصاحب الزنج لقتال ابن ليثويه. وجّه صاحب الزنج علي بن أُبان في جيش كبير إلى السوس فاصطدم بجيش ابن ليثويه حيث جرى قتال شديد قتل بنتيجته عدد كبير من جند الزنج وأسر عدد آخر.[١]

ثمّ انتقل ابن ليثويه إلى تستر حيث اصطدمت قواته بقوات محمد بن عبيد الله فانهزم ودخل ابن ليثويه تستر.[٢]

ثمّ سار ابن ليثويه لقتال علي بن أبان مجدداً فالتقيا واقتتل الجيشان. وخلال المعركة، استأمن جماعة من جند علي إلى ابن ليثويه فأمّنهم، فانتقلوا إلى معسكره، فأدّى ذلك إلى هزيمة باقي جند علي بن أبان الذي فرّ من المعركة جريحاً بعد أن قُتل عدد كبير من جنده.

نقل الطبري تفاصيل المعركة هذه التي هزم فيها ابن أبان، فكتب:[٣]

«لمّا استقرّ أحمد بن ليثويه بتُستر، خرج إليه علي بن أبان بجيشه، فنزل قرية يقال لها برنجان، ووجّه طلائع يأتونه بأخباره. فرجعوا إليه، فأخبروه أنّ ابن ليثويه قد أقبل نحوه، وأنّ أوائل خيله قد وافت قرية تعرف بالباهليّين. فزحف عليّ بن أبان إليه، وهو يبشّر أصحابه، ويعدهم الظفر، ويحكي لهم ذلك عن الخبيث. فلمّا وافى الباهليين تلقاه ابن ليثويه في خيله، وهي زهاء أربعمائة فارس؛ فلم يلبثوا أن أتاهم مدد خيل، فكثرت خيل أصحاب السلطان. واستأمن جماعة من الأعراب الذين كانوا مع عليّ بن

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٦٢.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٦٤.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥١١.

أبان إلى ابن ليثويه. وانهزم باقي خيل عليّ بن أبان، وثبت جُمَيِّعة من الرَّجّالة، وتفرّق عنه أكثرهم، واشتدّ القتال بين الفريقين. وترجّل عليّ بن أبان، وباشر القتال بنفسه راجلاً، وبين يديه غلام من أصحابه يقال له فَتح، يعرف بغلام أبي الحديد، فجعل يقاتل معه. وبصر بعليّ أبو نصر سلهب وبدر الروميّ المعروف بالشعرانيّ فعرفاه، فأنذرا الناس به، فانصرف هارباً حتى لجأ إلى المسرُقان، فألقى بنفسه فيه، وتلاه فتح، فألقى نفسه معه، فغرق فتح. ولحق عليّ بن أبان نصر المعروف بالروميّ، فتخلّصه من الماء، فألقاه في سُميريّة ورُمي عليّ بسهم، وأصيب به في ساقه، وانصرف مفلولاً، وقتل من أنجاد السودان وأبطالهم جماعة كثيرة».

ولمّا انهزم ابن أبان جريحاً، عاد إلى الأهواز يداوي جراحه. وفي السنة الثالثة والستين والمائتين وجه أخاه الخليل بن أبان في جيش كبير لقتال أحمد بن ليثويه. كمن أحمد للجيش وخرج إلى قتاله فالتقى الجيشان واقتتلا أشدّ قتال، وخرج الكمين على الزنج فانهزموا وتفرقوا وقُتل عدد كبير منهم.(1)

٢١ - دخول الزنج واسط

في السنة الرابعة والستين والمائتين سار سليمان بن جامع إلى صاحب الزنج بعد أن استأذنه بذلك، ومرّ في طريقه بعسكر تكين البخاري ببردود. فلمّا كان على فرسخ منه أشار عليه الجناني(2) أن يُغير على جند تكين البخاري في النهر، فرسم لذلك الجناني الخطة التالية:(3)

- يقيم الجناني في مكانه حيث ينصب الكمائن.
- يمضي الحياتي في سفن فيشتبك مع جند تكين، ثمّ يتظاهر بالهرب أمامهم.
- يتبعه جند تكين إلى مكان المكائن التي تطبق عليه، ثمّ يعود الحياتي لمقاتلته.

(1) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٧١.

(2) في ابن الأثير: الحياتي - في الطبري: احمد بن مهدي الجبائي - في ابن خلدون: الجناني.

(3) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٧٤ - ٢٧٥.

وهذا ما حصل فعلاً، إذ خرج الكمين من خلف جند تكين وهاجمه الجناني من الوراء والحياتي من الأمام. وراح الزنج يقتلون أعداداً كبيرة من جند تكين الذي انهزم وترك معسكره فغنم الزنج ما فيه.

ثمّ سار سليمان إلى محمد بن علي بن حبيب فأوقع به وقعة عظيمة وغنم غنائم كثيرة. ثمّ سار إلى قرية «حسان» فهزم قائدها ونهبها وأحرقها. ثمّ سار إلى الرصافة فأوقع بحاميتها وغنم غنائم كثيرة وأحرقها واستباحها لجنده.

ثمّ دخل سليمان مدينة واسط فقتل فيها خلقاً كثيراً ونهبها وأحرقها بعد أن حارب صاحبها منكجور البخاري وهزمه. ثمّ انصرف وعسكر بنهر الأمير.(١)

٢٢ - فتح مدينة سرقوسة بصقلية

في السنة الرابعة والستين والمائتين غزا أمير صقلية جعفر بن محمد سرقوسة فأفسد زرعها وزرع قطانية وطبرمين ورمطة وغيرها من بلاد صقلية التي هي بيد الروم. ثمّ حاصر سرقوسة براً وبحراً وسيطر على بعض أرباضها.(٢)

وصلت مراكب للروم لنجدة المدينة، فسيّر إليها جعفر أسطولاً عربياً وجرت معركة بحرية انتصر فيها الأسطول الإسلامي فأمّن حرية العمل البري.(٣)

وهذه الحرية سمحت لجعفر بمتابعة حصار سرسوقة لمدّة تسعة أشهر، ومن ثمّ فتحها وقتل آلاف عدّة من أهلها وإصابة غنائم كثيرة جداً. وأقام المسلمون فيها بعد فتحها

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٦٨.

والطبري، مرجع سابق، جزء٥، ص ٥١٧ - ٥١٨.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٧٩.

(٣) حرية العمل هو المبدأ الثاني من مبادىء الحرب الثلاثة التي تطبقها الجيوش الحديثة، أما المبدأين الأول والثالث فهما «نسبية الأهداف للوسائل» و«الحصيل الأقصى للوسائل».

شهرين ثمّ هدموها. وبعد هدمها وصل أسطول من القسطنطينية فالتقى مع الأسطول الإسلامي فهزم الروم واستولى المسلمون على أربع قطع بحرية بعد أن قتلوا من فيها.(١)

٢٣ - الدروس والعبر والنتائج

أ - منذ بداية خلافة المهتدي برزت قوّة جديدة في العالم الإسلامي في البصرة وقامت بثورة عامة على الخلافة التي أمضت عشرات السنين لقمعها. فغياب السلطة المركزية والجيش القوي عن الساحة الإسلامية في العراق أدى إلى تعدّد القوى العسكرية على ساحتها، وقيامها بتحدّي الخلافة في عقر دارها. فالأمن لا يمكن أن يستقرّ إلاّ إذا كان لدى الدولة قوّة أمنية فاعلة.

جاء في كتابنا «المجتمعات العسكرية عبر التاريخ» الآتي:(٢)

«الثابت والأكيد في التاريخ العسكري الطويل أن الأمة والشعب والمجتمع هم بحاجة إلى جيش دائم ومتأهّب ومجهّز ومنسجم معهم، وذلك بهدف الحفاظ على كرامتهم وعزتهم وحفظ تراثهم وحضارتهم وتأمين مستقبلهم».

لم تكن الدولة العباسية تتعهّد الجيش إلاّ عند حاجتها إليه. كتب الخليفة المعتز إلى قائد جنده محمّد بن عبد الله بن طاهر، عندما طلب منه هذا الأخير أرزاق جند بغداد، ما يأتي:(٣)

«إن كنتَ تريد الجند لنفسك فاعطهم أرزاقهم. وإن كنتَ تريده لنا فلا حاجة لنا فيهم».

ودفع المعتز ثمن تخليه عن جنده، إذ إن الأتراك خلعوه وقتلوه واستبدلوه بخليفة آخر.

ب - استغلّ صاحب الزنج، الذي خرج على الخلافة، شعار «إن ساعة القضاء على الرق والعبودية قد حانت»؛ فاستمال إليه

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ١٨٤.
(٢) العميد الركن سامي ريحانا، مرجع سابق، ص ٢٥.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء٦ ، ص ١٨٤.

مجموعات من الرقيق والعبيد بسبب شعبية هذا الشعار الذي سبق وأدى إلى ثورات كبرى في التاريخ أهمها ثورة سبارتكوس ضد الرومان وثورة الموالي ضد الحكم الأندلسي.

وتمكّن صاحب الزنج من استقطاب القادة والجنود والعبيد بعد أن كثر ماله وهزم جيوش عدّة أرسلها الخليفة لإخضاعه. ولمّا لم يكلّف الخليفة جيشاً كبيراً بإخضاعه، أفاد من الفراغ العسكري في المناطق والمدن التي راح يغزوها الواحدة تلو الأخرى فيسيطر عليها مستفرداً أصحابها الذين لم يتمكّنوا من الاتفاق وتوحيد جيوشهم للتصدي له. كما هاجم السجون وأخرج السجناء الذين التحقوا بجيشه فتقوّى بهم، واستولى على الأسلحة والسفن والأموال والأطعمة التي عزّز بها مكانته فكثر أتباعه.

فأعداد الثوار تتكاثر وتصبح ككرة الثلج إذا لم يتصد لها جيش السلطة المركزية في معركة عامة يحشد فيها جميع ما يمكنه من قوى.

ج - لما سارت قوة نهرية تواكبها قوة بريّة لقتال صاحب الزنج، أحسن هذا الأخير إدارة المعركة ففاجأ أخصامه وهزمهم من خلال قيامه بالآتي:

* نصب كمين على جانبي النهر.
* الاحتفاظ باحتياط مستتر لاستعماله بعد دخول القوّة إلى بقعة الكمين.
* مفاجأة القوة ومهاجمتها من كلّ الجهات.

د - عندما سار القائد جعلان لقتال الزنج في البصرة، أخطأ في اختيار مكان المعركة ففقد حرية عمله. ففيما كانت عناصر جيشه من الفرسان، نزل في مكان ضيق لا يتسع لمناورة الخيالة، فأرسل صاحب الزنج مجموعة من رجالته هاجمت قوات جعلان وقتلت جماعة منهم فأنزلت الرعب في نفوس الباقين الذين انهزموا.

فكما سبق القول إن «الأرض هي صديقة الجيش الذي يحسن استعمالها»، والقائد الناجح يختار مكاناً للمعركة يتناسب مع تشكيل جيشه حفاظاً على حرية تحرّكه. فالخيالة يلزمها مكان فسيح للمناورة، فيما الرجالة تتناسب حركتها مع طبيعة الأرض المتعرّجة والجبلية، ورماة السهام يتناسب عملهم مع الأراضي المتعرّجة والسهلية على السواء.

هـ - بعد المعارك الناجحة للعلوي صاحب الزنج راحت المدن تستسلم له دون قتال إذ إن الرعب الذي نشره جنوده في المدن المفتتحة عنوة، جعل هؤلاء يفضلون عدم محاربة قوة تفوقهم عدداً وعدّة وتحدوها روح قتالية عالية، وذلك تحقيقاً لمبدأي الحرب، الأول (نسبية الأهداف للوسائل)، والثاني (الحصيل الأقصى للوسائل).

و - لوجستياً، راح صاحب الزنج يستولي على قوافل السفن التي تنقل المؤن إلى البصرة عبر النهر، ما أوقع ضيقاً اقتصادياً بأهلها ترافق مع هجمات متكرّرة للزنج عليها.

وهكذا كانت المبادرة العسكرية حول البصرة بيد العلوي صاحب الزنج الذي استغلّ جميع الوسائل في قتاله ضد جيوش الخلافة محققاً انتصارات باهرة ومطبقاً مبدأي الحرب الثاني أي حرية العمل، والثالث أي الحصيل الأقصى للوسائل.

ثمّ وزّع العلوي المهام على قادته الذين كلّفهم مهاجمة البصرة من كلّ الجهات، فدخلوها وأعملوا السيف في رقاب أهلها. وكان أحد قادته قد استخدم الخدعة لدخول المدينة إذ أمّن سكانها الذين حضروا إليه فقتلهم تمشياً مع قاعدة: «الحرب خدعة»، رغم أننا لا نوافق هذا القائد على تصرّفه الشائن. فالشرف العسكري ينبغي أن يسود تصرفات القائد بعد استسلام الخصم الذي تحميه حالياً اتفاقية جنيف التي تمنع قتل الأسير.

ز - خلال قتال الخليفة المهتدي ضد القائدين موسى بن بغا وبايكباك، أخطأ الخليفة في تقدير ميزان القوى فخالف مبدأ الحرب الأول أي نسبية الأهداف للوسائل. فقد تبين أنهما متفوقان على جيشه عسكرياً، الأمر الذي أدى إلى خلعه وقتله رغم ما أظهره من شجاعة وحسن إدارة للمعركة ضدهما. فجيشه لم يكن شديد الولاء فانحاز الأتراك منه إلى جانب رفاقهم وانهزم الباقون.

ح - أثناء القتال على سجستان وطبرستان، ورغم انتصارات الجيش العباسي، فإن قائده يعقوب بن الليث أخطأ بملاحقة أخصامه عبر مسالك جبلية وعرة بعد تعرّضه لأمطار غزيرة طيلة أربعين يوماً. وهكذا فقد عدداً كبيراً من عناصره بسبب مخالفته مبدأ الحرب الثاني أي حرية العمل.

ط - أساء والي الموصل معاملة الأهالي الذين تآمروا عليه وأخرجوه من مدينتهم عنوة وولّوا أحد وجوهها واسمه يحيى بن سليمان، وأنزلوا هزائم متتالية بالجيوش التي أرسلت لإخضاعهم.

لقد أخطأ والي البصرة في تقدير ميزان القوى ومقارنة قوّته بقوّة أهل الموصل الذين كانت تحرّكهم الدوافع والحوافز القوية لقتاله بسبب إساءته معاملتهم. فكما سبق القول إن «الدافع الأبرز والأعمق الذي يحرّك الإنسان ويدفعه للقتال في سبيل بلاده هو واجب الدفاع عن العائلة والممتلكات والأرض ضدّ كلّ اعتداء».

لذلك نرى ان السياسة المتبعة من قبل القائد العسكري الذي يُكلّف بحفظ منطقة ما ينبغي أن يسودها التفاهم المتبادل وحسن المعاملة والرأفة إذ أن ما يمكن تحقيقه بهذه الطريقة قد لا يمكن إنجازه باستخدام القوّة العسكرية. «فالهدف السياسي هو الغاية، فيما الحرب هي الوسيلة. ولا يمكن تصوّر الوسيلة مستقلّة عن الغاية».(١)

ي - خلال القتال بين جيش الخلافة العباسية بقيادة الموفّق شقيق الخليفة المعتمد وجيش يعقوب بن الليث الخارج على السلطة الشرعية، ورغم حسن أداء هذا الأخير وجيشه خلال الوقائع، فإن جنده وهنت عزائمهم وكرهوا القتال بعد أن بلغهم أن قتالهم موجهٌ ضد الخليفة الشرعي، فتراجعوا عن ساحة المعركة وهُزم يعقوب.

فالدافع للقتال يقوى ويشتدّ عند ملاحقة هدفٍ سامٍ، وعند الدفاع عن الوطن والشعب والأمة. فالتعلّق بالوطن والحضارة والتراث والتقاليد والإنجازات، وبأرض الأجداد؛ والشعور بالانتماء إلى الدولة، شكّلت عبر التاريخ أبرز الحوافز التي تحرّك الجند للاستبسال في القتال. لذلك كان على القادة العسكريين، عبر التاريخ، واجب خلق مثلٍ أعلى لجنودهم للتعلّق به والدفاع عنه، كي لا يخسروا ولاءهم بسرعة.

---

(١) Clausewitz, De la guerre, ed. de Minuit, Paris, p 59.



الفصل الخامس

إنهاء تمرّد الزنج ضد الخلافة

طالت ثورة الزنج وترافقت مع أحداث عسكرية أخرى في ولايات مختلفة من ولايات الخلافة العباسية، ما كلف هذه الخلافة الكثير من القتلى والجرحى والأسرى والخسائر المادية. من المدن المهدّمة إلى الأساطيل النهرية المحطّمة، إلى فراغ بيت المال من محتوياته.

من جهة أخرى، أثقل العمال الأهالي بالضرائب واستبدّوا بالولايات وامتنعوا عن حمل الخراج إلى دار الخلافة.

لكلّ هذه الأسباب، هزّت ثورة الزنج ركائز الخلافة العباسية التي انحصرت عملياتها العسكرية في داخل حدودها من دون أن تتابع أعمال الجهاد الخارجية ضد الروم خاصة.

تزامن ذلك مع اتصالات قام بها شقيق الخليفة الموفّق مباشرة مع حاكم مصر أحمد بن طولون لحمل مال مصر إليه لمتابعة القتال ضد الزنج. لكنّ الخليفة المعتمد علم بهذه الاتصالات فأرسل كتاباً إلى ابن طولون يأمره فيه بضرورة توجيه المال إلى دار الخلافة مباشرة. ولّما لم يتجاوب ابن طولون مع الخليفة عزله عن الثغور الشامية التي كان قد سيطر عليها سابقاً.

كتب ابن كثير عن تراجع هيبة المعتمد:(١)

«ولّما رأى الخليفة المعتمد أن أخاه أبا أحمد قد استحوذ على أمور الخلافة وصار هو الحاكم الآمر الناهي، وإليه تجلب

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٤٧.

التقادم وتُحمل الأموال والخراج، وهو الذي يولّي ويعزل، كتب إلى أحمد بن طولون يشكو إليه ذلك. فكتب إليه ابن طولون أن يتحوّل إلى عنده إلى مصر ووعده النصر والقيام معه. فاستغنم غيبة أخيه الموفق وركب في جمادى الأولى ومعه جماعة من القوّاد، وقد أرصد له ابن طولون جيشاً بالرقة يتلقونه. فلما اجتاز الخليفة بإسحاق بن كنداج نائب الموصل وعامة الجزيرة اعتقله عنده عن المسير إلى ابن طولون، وقيّد أعيان الأمراء الذين معه. وعاتب الخليفة ولامه على هذا الصنع أشدّ اللوم، ثمّ ألزمه العود إلى سامراء ومن معه من الأمراء، فرجعوا إليها في غاية الذلة والإهانة. ولما بلغ ذلك الموفق شكر سعي إسحاق وولاه جميع أعمال أحمد بن طولون إلى أقصى بلاد إفريقية، وكتب إلى ابن أخيه أن يلعن ابن طولون في دار العامة، فلم يمكن المعتمد إلاّ إجابته إلى ذلك، وهو كاره. وكان ابن طولون قد قطع ذكر الموفّق في الخطب وأسقط اسمه عن الطرازات».

في هذا الفصل، سنحصر الحديث بالعمليات العسكرية التي أدّت إلى إنهاء ثورة الزنج ومقتل صاحبها.

١ – وقائع مع الزنج

في السنة الخامسة والستين والمائتين للهجرة جرت معارك عدّة مع الزنج نختصرها بالآتي:

* واقع أحمد بن ليثويه سليمان بن جامع والزنج الذين كانوا يعملون في نهر اسمه «الزهري» فهزم الزنج وقتل منهم عدداً كبيراً من الجند وأربعون قائداً.[1]

* دخل الزنج مدينة النعمانية فأحرقوها وسبوا من فيها.

* حاصر علي بن أبان والزنج تستر فخاف أهلها وعزموا على تسليمها، لكن وصول تكين البخاري في جيش للخليفة منع سقوطها. وقد جرى قتال بين تكين وابن أبان هُزم فيه هذا الأخير وقتل من الزنج كثيرون وتفرّق الباقون. وهذه الوقعة الشهيرة تعرف

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥١٩.

بوقعة «باب كورك».[1] بعد هذه الوقعة مال تكين إلى الزنج فقام مسرور البلخي بعزله وتولية «أغرتمش» مكانه.

* جرى قتال بين جيشي علي بن أبان وأغرتمش انتصر فيه علي وذلك في السنة السادسة والستين والمائتين للهجرة.

* سار علي بن أبان إلى رامهرمز فهرب عاملها محمد بن عبيد الله، فدخلها الزنج واستباحوها.[2]

* جرت معركة بين ابن أبان والأكراد انتصر فيها الأكراد.[3]

* سار علي بن أبان لحصار مؤتة مستكثراً من آلات الحصار. وعلم بذلك مسرور البلخي وهو بكور الأهواز فسار إليه وواقعه أمام المدينة فانهزم ابن أبان وقتل من الزنج خلق كثير.[4]

٢ – استرجاع ابن الموفق ما غلب عليه الزنج من أعمال دجلة

في السنة السابعة والستين والمائتين، وإثر دخول الزنج واسط، وجّه الموفق ولده أبا العباس[5] في عشرة آلاف فارس وراجل في أفضل تسليح، وأرسل معه السفن في النهر عليها أبو حمزة نصر، وذلك لقتال الزنج.[6]

أبلغت الطليعة ابن الموفق بموافاة جيش الزنج وأن أولهم في الصلح وآخرهم في أسفل واسط. وكان الزنج قد طمعوا فيه كونه صغير السن. لكن أبا العباس سار نحوهم وركب في إحدى السفن وحف به أصحابه من جميع الجهات. واصطدم جيشه بجيش الزنج براً وبحراً فجرت معركة شديدة كثر فيها القتل فانهزم الزنج فتبعهم جيش أبي

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٤٢.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٧٢.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٢٦.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٨٨.
(٥) هو الذي ولي الخلافة بعد المعتمد ودعي المعتضد.
(٦) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٤٤.

العباس وأكثر القتل فيهم واستولى على خمس سفن وأسر جماعة منهم وأمّن جماعة أخرى، فكان هذا أول الفتح.(١)

ثمّ خاض أبو العباس معركة أخرى في البرّ والبحر حيث ركب أيضاً إحدى السفن. وكان سليمان بن جامع وسليمان بن موسى الشعراني قد سارا بجيشيهما لملاقاته ونصبا الكمائن لجيشه.

منع أبو العباس جيشه من ملاحقة المتراجعين أمامه من جيش الزنج خوفاً من الوقوع بالكمائن؛ وسار بسفينته في النهر ومعه جماعة من خاصته، وأمر خيالته بأن تسير بمحاذاته على شاطىء النهر. وتقدّم نحو جيش الزنج فنشب قتال عنيف بين الجانبين وقعت الهزيمة فيه على الزنج وغنم أبو العباس منهم عشر سفن.(٢)

وجرت تحضيرات بحرية وبرية من الجهتين بانتظار المعارك اللاحقة فصّلها الطبري ورأينا وجوب إدراجها بتفاصيلها كونها تعطي فكرة واضحة عن وسائل وطرق القتال البري والبحري بين الجهتين. كتب الطبري:(٣)

«ورجع أبو العباس، وأقام بمعسكره في العمر، وأمر بإصلاح ما أخذ منهم من الشّذا والسميريّات(٤) وترتيب الرجال فيها. وأقام الزّنج بعد ذلك عشرين يوماً؛ لا يظهر منهم أحد. وكان الجبائيّ يجيء في الطلائع في كلّ ثلاثة أيام وينصرف، وحفر آباراً فوق نهر سنداد، وصيّر فيها سفافيد حديد، وغشّاها بالبواريّ، وأخفى مواضعها، وجعلها على سنن مسير الخيل ليتهوّر فيها المجتازون بها. وكان يوافي طرف العسكر متعرّضاً لأهله، فتخرج الخيل طالبةً له. فجاء في بعض أيامه، وطلبته الخيل كما كانت تطلبه، فقطر فرس رجل من قوّاد الفراغنة في بعض تلك الآبار، فوقف أصحاب أبي العباس بما ناله من ذلك على ما دبّر الجُبائيّ، فحذروا ذلك، وتنكّبوا سلوك ذلك الطريق. وألحّ الزّنج في مغاداة

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٩٣.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٧٣.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٣٠ - ٥٣١.
(٤) الشذا والسميريات: أنواع من السفن النهرية.

العسكر في كلّ يوم للحرب، وعسكروا بنهر الأمير في جمع كثير، فلمّا لم يجد ذلك عليهم أمسكوا عن الحرب قدر شهر.

وكتب سليمان إلى صاحب الزّنج يسأله إمداده بسُميريّات؛ لكلّ واحدة منهنّ أربعون مجدافاً، فوافاه من ذلك في مقدار عشرين يوماً أربعون سميريّة، في كلّ سُميريّة مقاتلان، ومع ملاحيها السيوف والرماح والتّراس. وجعل الجُبائي موقفه حيال عسكر أبي العباس، وعاودوا التعرّض للحرب في كلّ يوم؛ فإذا خرج إليهم أصحاب أبي العباس انهزموا عنهم، ولم يثبتوا لهم. وخلال ذلك ما تأتى طلائعهم، فتقطع القناطر، وترمي ما ظهر لها من الخيل بالنّشاب، وتضرم ما وجدت في النوبة من المراكب التي مع نصير بالنار؛ فكانوا كذلك قدر شهرين.

ثمّ رأى أبو العباس أن يكمّن لهم كميناً في قرية الرمل، ففعل ذلك. وقدّم لهم سميريّات أمام الجيش ليطمعوا فيها، وأمر أبو العباس فأعدّت له سُميريّة ولزيرك سميريّة وحمل جماعة من غلمانه الذين اختارهم وعرفهم بالنجدة في السميريّات؛ فحمل بدراً ومؤنساً في سُميريّة ورشيقاً الحجّاجي ويُمناً في سميريّة، وخفيفاً ويُسراً في سميريّة، ونذيراً ووصيفاً في سُميريّة. وأعدّ خمس عشرة سُميريّة، وجعل في كلّ سميريّة مقاتلين، وجعلها أمام الجيش.

قال محمّد بن شعيب الاشتيام: وكنت فيمن تقدّم يومئذ، فأخذ الزّنج من السميريّات المتقدّمة عدّة، وأسروا أسرى. فانطلقت مسرعاً، فناديت بصوت عال: قد أخذ القوم سُميريّاتنا. فسمع أبو العباس صوتي وهو يتغدّى، فنهض إلى سُميريّته التي كانت أعدّت له؛ وتقدّم العسكر، ولم ينتظر لحاق أصحابه، فتبعه منهم من خفّ لذلك.

قال: فأدركنا الزّنج، فلمّا رأونا قذف الله الرّعب في قلوبهم، فألقوا أنفسهم في الماء، وانهزموا فتخلّصنا أصحابنا، وحوينا يومئذ إحدى وثلاثين سُميريّة من سُميريّات الزّنج، وأفلت الجبائيّ في ثلاث سُميريّات.

فلمّا وافى عسكره، أمر أبو العباس بإصلاح السميريات المأخوذة من الزنج، وأمر أبا حمزة أن يحصل مقامه بما معه من الشذا في دجلة بحذاء خسرسابور».

وأكمل ابن خلدون رواية أحداث القتال بين أبي العباس والزنج، فكتب:[١]

«ورجع أبو العباس إلى معسكره وأمر بإصلاح السفن المغنومة. وحفر الزنج في طريق الجبل الآبار وغطوها، فوقع بعض الفرسان فيها، فعدل جند السلطان عن ذلك الطريق. وأمر الخبيث أصحابه بالسفن في النهر وأغاروا على سفن أبي العبّاس، وغنموا بعضها وركب في أتباعهم واستنقذ سفنهم، وغنم من سفنهم نحواً من ثلاثين، وجدّ في قتالهم وتحصن ابن جامع بطهتا، وسمى مدينته المنصورة. والشعراني بسوق الخميس، وسمى مدينته المنيعة.

وكان أبو العباس يغير على الميرة التي تأتيهم من سائر النواحي. وركب في بعض الأيام إلى مدينة الشعراني التي سماها المنيعة، وركب نُصَير في النهر وافترقوا في مسيرهم، واعترضت أبا العباس جماعة من الزنج فمنعوه من طريق المدينة وقاتلوه مقدار نهاره. وأشاعوا قتل نصير، وخالفهم نصير إلى المدينة فأثخن فيها وأضرموا النار في بيوتها. وجاء الخبر بذلك إلى أبي العباس بسبرة. ثمّ جاء نصير ومعه أسرى كثيرون فقاتلوا الزنج وهزموهم، ورجع أبو العباس إلى عسكره، وبعث الخبيث إلى ابن أبان وابن جامع فأمرهما بالاجتماع على حرب أبي العبّاس».

٣ – فتح المنيعة والمنصورة

وفي ربيع الأول من السنة سبع وستين ومائتين، وحيال اشتداد حملة الزنج على أبي العباس، سار والده الموفّق من بغداد فوصل إلى واسط حيث اجتمع بابنه فنزل على نهر شداد ونزل أبو العباس شرقي دجلة. وكان الموفق في خمسين ألف مقاتل.[٢]

ثمّ اتجه أبو العبّاس نحو المنيعة وتبعه الموفق فسلك في السفن في نهر مساور وسارت الخيل بإزائه على جانبي النهر. ثمّ

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٧٤.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٤٥.

أمر الموفق ابنه بالتقدّم بالسفن ففعل، فلقيه الزنج فحاربوه حروباً شديدة. عندها وافاهم الموفق بالخيل من جانبي النهر فانهزم الزنج وتفرّقوا. ووصل أبو العباس وجنده إلى المدينة فتسلّقوا السور ووضعوا السيوف فيمن وجده ودخلوا المدينة وقتلوا فيها خلقاً كثيراً وأسروا آخرين.[1]

وأنقذ الموفق من المسلمات زهاء خمسة آلاف امرأة، سوى من ظفر بهنّ من الزنجيات، فحملهنّ إلى واسط ليدفعهنّ إلى أهلهنّ. ثمّ أمر جنده بأخذ ما في المدينة وأمر بهدم سورها وطمر خندقها وإحراق ما بقي فيها من السفن.[2]

ثمّ فتح الموفق وأبو العباس مدينة المنصورة في عملية جريئة ننقل تفاصيلها عن ابن خلدون الذي كتب:[3]

«ورمى أبو العباس بن الموفق أحمد بن مهدي الجناني فمات وأوهن موته. ثمّ ركب يوم السبت آخر ربيع من سنة سبع وعبّى عسكره وبعث السفن إلى البحر الذي يصل إلى المنصورة. ثمّ صلى وابتهل بالدعاء وقدم ابنه أبا العباس إلى السور، واعترضه الجند فقاتلهم عليه واقتحموا وولوا منهزمين إلى الخنادق وراءه فقاتلوه عندها واقتحمها عليهم كلها. ودخلت السفن المدينة من النهر فقتلوا وأسروا وأجلوهم عن المدينة، وما اتصل بها وهو مقدار فرسخ، وملكه الموفق وأفلت ابن جامع في نفر من أصحابه. وبلغ الطلاب في أثره إلى دجلة وكثر القتل في الزنج والأسر، واستنقذ العباس من نساء الكوفة وواسط وصبيانهم أكثر من عشرة آلاف، وأعطى ما وجد في المنصورة من الذخائر والأموال للأجناد، وأسر من نساء سليمان وأولاده عدّة. ولمّا جاء جماعة من الزنج إلى الآجام اختفوا، فأمر بطلبهم وهدم سور المدينة وطمّ خنادقها وأقام سبعة عشر يوماً في ذلك ثمّ رجع إلى واسط».

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٣٣ - ٥٣٤.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٧٥.

(٣) ابن خلدون، المرجع نفسه، ص ٦٧٧.

مدينة المنصورة سميت أيضاً طهيثا (الطبري) اوصهثا (ابن الأثير).

وكان الزنج قد حصّنوا المدينة بخمسة خنادق، وجعلوا أمام كلّ خندق سوراً. لذلك، جعل جند أبي العباس يقفون عند كلّ سور وخندق.[1]

٤ – حصار مدينة صاحب الزنج «المختارة» وفتحها ومقتله

ثمّ إن الموفّق كاتب صاحب الزنج يدعوه إلى الحق فلم يجبه، فسار لحصار مدينته التي دعاها «المختارة». كتب ابن الأثير عن المعركة حول المختارة بتفاصيل رأينا وجوب لحظها في هذا المقام كما هي نظراً لأهميتها، وقد جاء فيها:[2]

«ولمّا أنقذ الموفق الكتاب إلى العلوي ولم يردّ جوابه عرض عسكره وأصلح آلاته، ورتّب قواده، ثمّ سار هو وابنه أبو العباس في العشرين من رجب إلى مدينة الخبيث التي سماها المختارة. وأشرف عليها وتأمّلها ورأى حصانتها بالأسوار والخنادق وغور الطريق إليها وما أعدّ من المجانيق، والعرادات، والقسي، وسائر الآلات على سورها ممّا لا يرَ مثله لمن تقدّم من منازعي السلطان، ورأى من كثرة عدد المقاتلة ما استعظمه. فلما عاين الزنج أصحاب الموفق ارتفعت أصواتهم حتى ارتجت الأرض. فأمر الموفق ابنه بالتقدّم إلى سور المدينة والرمي لمن عليه بالسّهام فتقدّم حتى ألصق شذاواته بسناة قصر الخبيث. فكثر الزنج وأصحابهم على أبي العباس ومن معه وتتابعت سهامهم وحجارة مجانيقهم ومقاليعهم. ورمى عوامهم بالحجارة عن أيديهم حتى ما يقع الطرف إلاّ على سهم أو حجر. وثبت أبو العباس، فرأى العلوي من صبره وثبات أصحابه ما لا رأى مثله من أحد حاربهم، ثمّ أمرهم بالرجوع ففعلوا. واستأمن إلى الموفق مقاتلة في سميريتين فأمّنهم على من فيهما من المقاتلة والملاّحين على أقدارهم، ووصلهم وأمر بإدنائهم إلى موضع يراهم فيه نظراؤهم، وكان ذلك من أنجع المكايد. فلمّا رآهم الباقون

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٩٧.

(٢) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٣٠٠ – ٣٠١.

رغبوا في الأمان وتنافسوا فيه وابتدروا إليه فصار إلى الموفق عدد كثير ذلك اليوم من أصحاب السميريات فعمهم بالخلع والصلات.

فلمّا رأى صاحب الزنج ذلك أمر بردّ أصحاب السميريات إلى نهر أبي الخصيب، ووكّل بفوهة النهر من يمنعهم من الخروج. وأمر بهبود - وهو من أشرس قواده - أن يخرج في الشذوات، فخرج وبرز إليه أبو العباس في شذاواته وقاتله واشتدّت الحرب فانهزم بهبود إلى فناء قصر الخبيث، وأصابته طعنتان وجُرح بالسهام، وأوهنت أعضاؤه بالحجارة؛ فأولجوه نهر أبي الخصيب وقد أشفى على الموت. فقتل ممن كان معه، قائد ذو بأس يقال له، عميرة، وظفر أبو العباس بشذاة فقتل أهلها ورجع هو ومن معه سالمين. فاستأمن إلى أبي العباس أهل شذاة منهم فأمّنهم وأحسن إليهم وخلع عليهم. ورجع الموفق ومن معه إلى عسكره بالنهر المبارك، واستأمن إليه عند منصرفه خلق كثير فأمّنهم وخلع عليهم ووصلهم وأثبت أسماءهم مع أبي العباس. وأقام في عسكره يومين ثمّ نقل عسكره لست بقين من رجب إلى نهر جطى فنزله وأقام به إلى منتصف شعبان، لم يقاتل.

ثمّ ركب منتصف شعبان في الخيل والرجال وأعدّ الشذوات والسميريات، وكان من معه من الجند والمتطوعة زهاء خمسين ألفاً. وكان من مع الخبيث أكثر من ثلاثمائة ألف إنسان كلّهم من يقاتل بسيف، أو رمح، أو قوس، أو مقلاع، أو منجنيق، وأضعفهم رماة الحجارة من أيديهم وهم النظارة، والنساء تشركهم في ذلك. فأقام أبو أحمد ذلك اليوم ونودي بالأمان للناس كافة إلاّ الخبيث. وكتب الأمان في رقاع ورماها في السهام ووعد فيها الإحسان فمالت قلوب أصحاب الخبيث، واستأمن ذلك اليوم خلق كثير فخلع عليه ووصلهم، ولم يكن ذلك اليوم حرب. ثمّ رحل من نهر جطّى من الغد فعسكر قرب مدينة الخبيث ورتّب قواده وأجناده وعيّن لكلّ طائفة موضعاً يحافظون عليه ويضبطونه».

ثمّ بنى الموفق مقابل المختارة مدينة سماها «الموفقية» وجعل فيها كلّ ما تحتاجه المدن. كما أمر بصنع سفن كثيرة وذلك

لضبط الأنهار حول المختارة وقطع الميرة عنها.

وسار أبو العباس نحو طائفة من الزنج كانوا خارج المدينة فقاتلهم وقتل منهم عدداً كبيراً وغنم كلّ ما كان معهم. وهذا ما دفع طائفة أخرى لطلب الأمان فأمّنهم.(١)

وفي شهر رمضان استأمن إلى الموفق من الزنج حوالى خمسين ألفاً.(٢)

وفي شهر شوال سيّر صاحب الزنج علي بن أبان في خمسة آلاف للقيام بغارة على معسكر الموفق الذي علم بذلك من أحد الجواسيس؛ فسيّر ابنه أبا العباس لقتالهم فقاتلهم قتالاً شديداً وأسر أكثرهم وغرق منهم خلق كثير. ثمّ ألقى أبو العبّاس رؤوس القتلى بالمنجنيق إلى داخل المدينة فأشاع ذلك الجزع والبكاء فيها وضعف أمر صاحب الزنج.(٣)

ثمّ قطع الموفق التموين عن المدينة فخافت جماعة من وجوه الناس فاستأمنوا الموفق فأمّنهم. وحاول صاحب الزنج فتح أحد المسالك إلى المدينة فكلّف اثنين من رؤساء قواده بالخروج إلى البطيخة في عشرة آلاف مقاتل، فبعث الموفق جيشاً لقتالهم فانتصر عليهم وقتل عدداً كبيراً منهم وغرق عدد آخر وأُسر عدد آخر أيضاً.

وبقي القتال على هذا المنوال حتى السنة التاسعة والستين ومائتين حين سقطت مدينة المختارة بيد الموفق بعد معارك عنيفة ننقل أخبارها عن ابن كثير الذي كتب:(٤)

«في هذه السنة اجتهد الموفق بالله في تخريب مدينة صاحب الزنج فخرّب منها شيئاً كثيراً وتمكّنت الجيوش من العبور إلى البلد، ولكن جاءه في أثناء هذه الحالة سهم في صدره من يد رجل رومي يقال له قرطاس فكاد يقتله. فاضطرب الحال لذلك وهو يتجلّد ويحض على القتال مع ذلك. ثمّ أقام ببلده الموفقية أياماً يتداوى فاضطربت الأحوال وخاف الناس [جداً] من صاحب

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٤٥.
(٢) في الطبري: ٥ آلاف. في ابن الأثير: ٥٠ ألفاً.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٠٢.
(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٤٦ – ٤٧.

الزنج، وأشاروا على الموفق بالمسير إلى بغداد فلم يقبل فقويت علّته. ثمّ منّ الله عليه بالعافية في شعبان، ففرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً فنهض مسرعاً إلى الحصار فوجد الخبيث قد رم كثيراً مما كان الموفق قد خرّبه وهدمه فأمر بتخريبه وما حوله وما قرب منه. ثمّ لازم الحصار فما زال حتى فتح المدينة الغربية وخرّب قصور صاحب الزنج ودور أمرائه، وأخذ من أموالهم شيئاً كثيراً مما لا يُحدّ ولا يوصف كثرة، وأسر من نساء الزنج. واستنقذ من نساء المسلمين وصبيانهم خلقاً كثيراً، فأمر بردّهم إلى أهاليهم مكرمين. وقد تحول صاحب الزنج إلى الجانب الشرقي وعمل الجسر والقناطر الحائلة بينه وبين وصول السمريات إليه. فأمر الموفق بتخريبها وقطع الجسور. واستمرّ الحصار باقي هذه السنة وما برح حتى تسلّم الجانب الشرقي أيضاً واستحوذ على حواصله وأمواله. وفرّ الخبيث هارباً غير آيب، وخرج منها هارباً وترك حلائله وأولاده وحواصله، فأخذها الموفق وشرح ذلك يطول جداً. وقد حرّره مبسوطاً ابن جرير ولخصه ابن الأثير واختصره ابن كثير والله أعلم وهو الموفق إلى الصواب وإليه المرجع والمآب».

أ - الأعمال العسكرية البارزة:

أما أبرز الأعمال العسكرية التي حصلت خلال محاصرة المدينة فنرى أنه لا بدّ من ذكرها هنا كالآتي:[1]

* في السنة التاسعة والستين والمائتين عزم الموفق على أن يوسّع لنفسه ولأصحابه موضعاً في الناحية الغربية من المدينة، فأمر بقطع النخيل وإصلاح المكان وشق خنادق وبناء سور لأمان الجند.

* رأى الموفق أن نزوله بالجانب الغربي لا يأمن عليه حيلة الزنج لكثرة الأدغال وصعوبة المسالك، لاسيما أن الزنج أعرف بها من جنده. لذلك أمر بهدم السور من ناحية النهر المعروف باسم «مكنى». وباشر الحرب بنفسه فاشتدّ القتال ودام أياماً عدّة كثر فيها القتلى والجرحى من الجانبين.

- كما أزال قنطرتين كانتا على النهر كان الزنج يعبرون عليهما فيأتون أصحابه من وراء ظهورهم.

(١) عن ابن الأثير والطبري وابن خلدون وابن كثير.

* أكثر الموفق من هدم الأسوار من قبل شجعانه الذين أضاف إليهم فعلة للهدم ونصب السلالم.

وأرسل الفعلة في السفن داخل النهر إلى مكان ليس فيه أحد من مقاتلي الزنج وأمرهم بهدم السور فهدموه. وصعد المقاتلون إلى المدينة فقتلوا عدداً كبيراً من الزنج وأنقذوا عدداً كبيراً من النساء.

* أشار علي بن أبان على صاحب الزنج فحفر خنادق جديدة وأخرى تُملأ ماءً، مع الخنادق القديمة، لمنع أصحاب الموفق من سلوكها.

* قرّر الموفق إحراق دار صاحب الزنج بالهجوم عليها من دجلة. لكن هذه المهمة كانت تعوقها كثرة المقاتلين حول الدار الذين راحوا يرمون المهاجمين بالسهام والحجارة من سطح القصر.

عند ذلك أمر الموفق أن تسقف السفن بالأخشاب وفوقها الجبس الذي طلي بالأدوية التي تمنع النار من إحراقه. فلمّا فرغ من ذلك اختار أنجاد أصحابه ومن النفاطين جمعاً كثيراً.

وفي اليوم التالي أمر الموفق ابنه أبا العباس بقصد دار محمد الكرنابي[1] الملاصق لقصر صاحب الزنج وإحراقه وما يليه من منازل قواد الزنج، ليشغلهم بذلك عن حماية القصر. وأمر النفاطين في السفن المطلية بالأدوية بإحراق القصر، فألصق هؤلاء سفنهم بسور القصر وأحرقوا المنازل المجاورة له فامتدّت النار إلى القصر وأحرقته، فخرج صاحبه هارباً. وقام غلمان الموفق مع أصحابهم بمصادرة كلّ ما في القصر من ذهب وفضّة وحلى وغيرها، كما أنقذوا عدداً من النساء المسلمات.

* قام صاحب الزنج ببناء قنطرة على نهر أبي الخصيب وألبسها الحديد وأقام بجانبها سكراً من حجارة ليضيّق المدخل على السفن ويقوّى جريان الماء في النهر.

رداً على ذلك أرسل الموفق النجارين والفعلة من جانبي النهر، كما أرسل سفناً في النهر مملوءة بالقصب ليصبّ عليها النفط وتحرق وتدخل في النهر ليحترق الجسر. وفرّق جنده لمنع الزنج من التعرّض للنجارين، فوقعت معركة عنيفة حول

(١) في الطبري: الكرنبائي.

القنطرة دامت إلى العصر. ثمّ أزال النجارون قسماً من القنطرة وأحرقتها السفن فانهارت.

ب - حرق سوق المختارة وانتقال صاحب الزنج إلى الجانب الشرقي:

لّما أُحرق قصر صاحب الزنج ومساكن قواده ونهبت أمواله، انتقل إلى الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب فضعف أمره أمام أصحابه الذين امتنعوا عن جلب الميرة له، فانقطعت عنه كلّ مادة مما أدى إلى غلاء الأسعار.(١)

كتب الطبري عن المجاعة في المدينة:(٢)

«فأكلوا الشعير، ثمّ أكلوا أصناف الحبوب، ثمّ لم يزل الأمر بهم إلى أن كانوا يتبعون الناس، فإذا خلا أحدهم بامرأة أو صبي أو رجل ذبحه وأكله. ثمّ صار قوي الزنج يعدو على ضعيفهم، فكان إذا خلا به ذبحه وأكل لحمه، ثمّ أكلوا لحوم أولادهم...».

ونقل ابن الأثير الرواية نفسها.

ورأى الموفق أن يخرّب الجانب الشرقي، فأمر أصحابه بقصد دار الهمذاني(٣) واحتلالها ففعلوا وأحرقوها وصادروا ما كان عليها من المجانيق والعرادات وما كان في داخلها من المتاع والأثاث. وأحرقوا الدور حولها وخلّصوا كثيرات من النساء المسلمات. ثمّ جاء عديدون واستأمنوا فأمّنهم الموفق.(٤)

ثمّ أمر الموفق بإحراق أهم سوق في المدينة فأحرقت بعد معركة شديدة بين الجيشين.

وقام صاحب الزنج بحفر الخنادق العريضة في الجانب الشرقي.

ورأى الموفق أن يخرّب باقي السور الغربي للمدينة، فكلّف ابنه أبا العباس بالمهمّة التي اعترضتها عقبات كثيرة بسبب استماتة المدافعين عن السور في القتال وتعزيزهم من قبل صاحب الزنج ومهاجمتهم أصحاب

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٤٧.
(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٦٩.
(٣) الهمذاني: أحد أبرز قادة الزنج.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٢١.

الموفق وقتلهم عدداً كبيراً منهم وإعادتهم إلى سفنهم.[1]

عاد الموفّق وأمر بالهجوم على الحصن الغربي براً ونهراً ومن جهات عدّة، فجرى قتال عنيف جداً انتهى بهزيمة الزنج وتركهم حصنهم بأيدي جند الموفق الذين هدموه وأسروا خلقاً كثيراً وخلّصوا من النساء والصبيان عدداً كبيراً.

ج - استيلاء الموفق على الجهة الغربية من المختارة:

لّما هدم الموفق دور صاحب الزنج أمر بإصلاح المسالك لتتسع لمقاتليه عند تقدّمهم نحو المدينة؛ كما أمر بحرق الجسر الأول على نهر أبي الخصيب ليمنع مجموعات الزنج من إمداد بعضها. وهكذا أُعدّت سفينة مُلئت قصباً وجُعل فيها النفط، ثمّ أُرسلت عند غفلة الزنج وقوّة المد فوصلت إلى الجسر؛ لكن الزنج أغرقوها فلم يحترق الجسر.[2]

عند ذلك ركب الموفق إلى فوهة نهر أبي الخصيب لمقاتلة الموكلين بالجسر، وهم سليمان بن جامع وانكلاي ابن صاحب الزنج، فهزمهم. ثمّ جاء الفعلة والنفّاطون إلى غرب الجسر وشرقه فأحرقوه مع حظيرة للزنج كانت تصنع فيها السفن وسجن لهم، فأطلق الموفق من فيه فاستأمنوا إليه فأمّنهم. وهكذا استولى على الجانب الغربي من النهر فيما انتقل صاحب الزنج إلى الجانب الشرقي منه بعد أن زاد رعبه.[3]

بعد ذلك استأمن إلى الموفق كثير من القادة فأمّنهم، وخرج قاضي الزنج من المدينة هارباً، ووكل صاحب الزنج بالجسر الثاني على نهر أبي خصيب من يحفظه. لكن الموفق أمر أبا العباس بحرقه، فقدم جنود في السفن عبر النهر وقاتلوا حامية الجسر فهزموها وأضرموا النار في الجسر، بعد أن دامت الحرب ثلاث ساعات جرح خلالها القائدان سليمان وانكلاي ابن صاحب الزنج اللذان قفزا إلى النهر. بعد هذه الوقعة جاء

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٨٥.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٨٦.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٧٣.

الموفق كثيرون من قادة الزنج مستأمنين فأمّنهم.[1]

نقل ابن الأثير صورة عن الرعب الذي نزل بالزنج بعد العمليات الناجحة التي نفذها الموفق، فكتب:[2]

«وصار الزنج لا ينامون الليل، ولا يزالون يتحارسون للرعب الذي دخلهم. وأقام الموفق يُنفذ السرايا إلى الخبيث ويكيده ويحول بينه وبين القوت، وأصحاب الموفق يتدرّبون في سلوك تلك المضائق التي في أرضه ويوسعونها».

د - استيلاء الموفق على الجهة الشرقية من المدينة:

قرّر الموفق الجهة توجيه جهوده الحربية إلى الجانب الشرقي في نهر أبي الخصيب، وندب لذلك قواداً من المستأمنة لخبرتهم بذلك ووعدهم بالإحسان والزيادة في العطاءات. ثمّ أمر بجمع السفن في دجلة من كلّ جانب، وكان في هذه السفن عشرة آلاف ملاح ممن يجري عليه الرزق من بيت المال، ما عدا سفن الميرة وتلك التي تحمل العتاد.[3]

نقل ابن الأثير صورة عن القتال حول دار صاحب الزنج وصولاً إلى دخولها وفراره منها، فكتب:[4]

«فلما تكاملت السفن تقدّم إلى ابنه أبي العباس وقواده بقصد مدينة الخبيث الشرقية من جهاتها، فسيّر ابنه أبا العباس إلى ناحية دار المهلبي أسفل العسكر، وكان قد شحنها بالرّجال والمقاتلين. وأمر جميع أصحابه بقصد دار الخبيث وإحراقها فإن عجزوا عنها، اجتمعوا على دار المهلبي. وسار هو في الشذاوات وهي مائة وخمسون قطعة فيها إنجاد غلمانه، وانتخب من الفرسان والرجالة عشرة آلاف، وأمرهم أن

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٢٥.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٣٢٦.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٢٦ - ٣٢٧.

يسيروا على جانبي النهر معه إذا سار وأن يقفوا معه، إذا وقف ليتصرّفوا بأمره. وبكّر الموفق لقتال الفاسقين يوم الثلاثاء لثمان خلون من ذي القعدة سنة تسع وستين ومائتين. وكانوا قد تقدّم إليهم يوم الإثنين وواقعهم وتقدّمت كلّ طائفة إلى الجهة التي أمرهم بها فلقيهم الزنج، واشتدّت الحرب، وكثر القتل، والجراح في الفريقين. وحامى الفسقة عن الذي اقتصروا عليه من مدينتهم واستماتوا وصبروا فنصر الله أصحاب الموفق. فانهزم الزّنج وقتل منهم خلق كثير وأسر من أنجادهم وشجعانهم جمع كثير. فأمر الموفق بضرب أعناق الأسرى في المعركة. وقصد بجمعه الدار التي يسكنها الخبيث وكان قد لجأ إليها، وجمع أبطال أصحابه للمدافعة عنها فلم يغنوا عنها شيئاً وانهزموا عنها وأسلموها. ودخلها أصحاب الموفق وفيها بقايا ما كان سلم للخبيث من ماله، وولده، وأثاثه. فنهب ذلك أجمع وأخذوا حرمه، وأولاده وكانوا عشرين ما بين صبية، وصبي. وسار الخبيث هارباً نحو دار المهلبي لا يلوي على أهل، ولا مال، وأحرقت داره. وأتى الموفّق بأهل الخبيث وأولاده فسيّرهم إلى بغداد».

هـ - تعزيز جيش الموفق بلؤلؤ غلام ابن طولون:

فيما كان القتال قائماً بين الموفق والزنج خرج لؤلؤ غلام أحمد بن طولون على مولاه، وفي يده حمص وقنسرين وحلب وديار مضر من الجزيرة. وكاتب الموفق بالانضمام إليه فوافقه، فسار في جيشه إلى الموفق فوصل إليه وهو يقاتل الزنج، فتعزّز الجيش الإسلامي به.[1]

و - مقتل صاحب الزنج وانتهاء عصيانه:

قرّر الموفق إشراك جيش لؤلؤ بالقتال ضد الزنج الذين كان قائدهم، وبعد أن هُزِم على نهر أبي الخصيب وقطعت الجسور والقناطر التي عليه، أحدث سكراً من جانبي النهر، وجعل في وسط النهر باباً ضيقاً يجري منه

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٨٠.

الماء مندفعاً فيمنع السفن من دخول النهر.(١)

حاول الموفق إزالة السكر ففشل، فشرع في محاربة الزنج بفريق بعد فريق من جند لؤلؤ ليتمرنوا على قتالهم، فيما الفعلة يعملون على هدم السكر، إلى أن تمكّن من ذلك بعد جهد كبير وذلك بسبب استماتة الزنج في الدفاع عنه.(٢)

ثمّ أمر الموفق بهجوم عام فزحف جنده وجند لؤلؤ في البر والماء يتلو بعضهم بعضا، فلقيهم الزنج بقوة واشتدّ القتال وقتل من الفريقين جمع كثير، فانهزم الزنج وتبعهم جند الموفق يقتلون ويأسرون منهم. وهكذا سيطر الموفق على كامل أجزاء المدينة.

وفي نهار السبت لثلاثين خلت من صفر من السنة السبعين والمائتين تابع الموفق هجومه العام، فسار غلمانه والرجالة في مقدّمته فأوقعوا بصاحب الزنج وهزموه. فسار في مجموعة من أصحابه بعد أن فارقه ابنه انكلاي وسليمان بن جامع الذي أسره أبو العباس.(٣)

وانتهى الموفق إلى آخر نهر أبي خصيب، فلقيه غلام من أصحاب لؤلؤ برأس صاحب الزنج.(٤)

هكذا قتل صاحب الزنج.

ثمّ لاحق الموفق المنهزمين من الزنج، وكانوا زهاء خمسة آلاف، وأمر بالنداء فيهم بموت صاحبهم وبعودتهم إلى مواطنهم، فعادوا وانتهى القتال ضد الزنج.

وكان خروج صاحب الزنج يوم الأربعاء لأربع بقين من شهر رمضان السنة خمس وخمسين ومائتين، وقتل نهار السبت لليلتين خلتا من صفر السنة سبعين ومائتين؛ فكانت مدّة عصيانه أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام.

وبعد القتال أقام الموفق بمدينة الموفقية وولّى على البصرة والأبلة وكور دجلة محمداً

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٨٨.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٣٢.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٨٤.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٩٠.

بن حماد، وقدّم ابنه أبا العباس إلى بغداد فدخلها.[1]

وقصدت الموفق أعداد كبيرة من الزنج يطلبون الأمان فأمّنهم فعادوا إلى أوطانهم.

٥ – الدروس والعِبَر والنتائج

أ – إن المعارك التي خاضها الموفق وابنه أبو العباس لقمع ثورة الزنج هي من المعارك الكبرى في التاريخ العربي الإسلامي، وهي معارك كانت تجري في البر وفي مياه الأنهار، حيث تفنّن القادة في استنباط وسائل وطرق جديدة في القتال.

– ومما لا شكّ فيه أن القادة، من الجانبين، الذين شاركوا في هذه العمليات يعدّون من القادة الكبار في التاريخ الإسلامي، من الموفق إلى أبي العباس الذي أصبح خليفة، إلى علي بن أبان وغيرهم.

– كما نلاحظ خلال هذه المرحلة من تاريخ العصر العباسي الثاني أن الأوضاع الداخلية في الخلافة لم تكن مستقرّة. لذلك كانت غالبية العمليات الحربية التي نتكلّم عنها في هذا الجزء من الموسوعة هي عمليات إعادة مناطق إلى طاعة الخلافة وإنهاء تمرّد قادة مسلمين على الخلافة. لذلك تراجعت العمليات الخارجية ضد أعداء الأمة الإسلامية، لاسيما ضد الروم الذين عادت المبادرة في الهجمات إليهم خلال العصر العباسي الثاني.

أما في العصر العباسي الثالث فسنرى أن مهمة الصراع ضد الروم انتقلت من أيدي الخلفاء إلى أيدي ملوك استقلوا عنهم وأبرزهم سيف الدولة الحمداني والخلفاء الفاطميون في مصر وصولاً إلى السلاجقة فالمماليك فالعثمانيين.

ب – حطّت ثورة الزنج من هيبة الخلافة كون الموفّق عجز عن إنهائها بسرعة رغم الجيوش التي سيّرها لمحاربتها بقيادة قادة كبار.

وبلغ الاستهتار بالخليفة درجة أدت إلى احتجازه من قِبَل عاهل الموصل ومنعه من التوجّه إلى مصر للالتحاق بابن طولون

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٣٥.

والتخلّص من هيمنة الموفق. وقد ألزم عاهل الموصل الخليفة على العودة إلى سامراء.

ج - تمكّن الموفق من استعادة المبادرة العسكرية من الزنج، فقام جيش بقيادة ابنه باسترجاع ما كان الزنج قد سيطروا عليه من أعمال دجلة. ومنذ السنة السابعة والستين والمائتين للهجرة تمكن الموفق من تطبيق مبدأ الحرب الثاني أي حرية العمل مقابل تراجع أداء الزنج وانتقالهم من الاستراتيجية الهجومية إلى استراتيجية دفاعية؛ وذلك تمهيداً لإنهاء ثورتهم وإعادة السيطرة العباسية على كامل الأرض الإسلامية.

وخاض أبو العباس بن الموفق معارك ناجحة في البر والماء، وأحسن في التنسيق بين جيوش البر والجيوش في السفن، فنجح في تحقيق انتصارات عدّة على الزنج. وأحسن أبو العباس في تطبيق استراتيجية «استغلال النصر» بعد تحقيقه انتصاره الأول، فلاحق الزنج وأكثر القتل فيهم وأسر بعضهم واستولى على سفنهم.

ولمّا خاف من التعرّض للكمائن، سيّر جيشه البري بموازاة السفن المنتقلة في النهر تأميناً للتنسيق بينهما ولمبدأَيْ الحرب الثاني (حرية العمل) والثالث (الحصيل الأقصى للوسائل).

ولما أقام الزنج أباراً غرسوا فيها قطع الحديد لمنع اجتيازها من قبل خيالة ابن الموفق، اكتشف ذلك وسلك طريقاً آخر فتخلص من الوقوع في كمين الزنج وحقق حرية عمله.

د - رغم خسائرهم المتتابعة، أحسن الزنج في حشد القوى وتزويدها بوسائل النقل النهرية المتطوّرة بهدف تحقيق حرية عملهم. فقد استخدموا أربعين سفينة نهرية في كلّ منها أربعون مجذفاً، وتحمل المقاتلين المزوّدين السيوف والرماح والتروس، فتمكّنوا في هزيمة الجيش العباسي في القتال النهري.

أمام هذا التكتيك الجديد، اعتمد ابن الموفق الخدعة في استعادة المبادرة وحرية العمل، وانتصر في القتال. فقد سيّر سفناً نهرية قليلة العدد طمع بها الزنج الذين لاحقوها فوقعوا في كمين معادٍ، الأمر الذي ألقى الرعب في قلوبهم فألقوا أنفسهم في الماء وانهزموا. وصادر الجيش العباسي إحدى وثلاثين سفينة من سفنهم.

وهنا نعود للتأكيد على أن حسن إدارة القتال خلال المعركة واعتماد مواقف عملانية جريئة ومدروسة يساهم في تحقيق النصر. فالحرب كلّها تنفيذ ويتتابع خلالها الفعل وردّة الفعل. لذلك يدرّب القادة على اتخاذ قرارات سريعة وفي ظروف قتالية صعبة. فمن يحافظ على رباطة جأشه وهدوء أعصابه وصفاء ذهنه خلال اتخاذ تلك القرارات، يكون قد أحسن في تطبيق مبدأي الحرب الثاني والثالث فينجح في مناورته.

هـ - أمام انتصارات ابن الموفق، قرّر والده حسم القتال مع الزنج. فبعد أن طبّق استراتيجية التعبئة وحشد القوى، سار في جيش من خمسين ألف مقاتل واحتفظ به كاحتياط بانتظار اشتباك ابنه مع العدو في حروب شديدة. ثمّ زجّ بجيشه في القتال ففاجأ الزنج وأوقع بهم محققاً بذلك حرية عمله والحصيل والأقصى لوسائله.

وأحسن الموفق في استغلال النصر إذ لاحق الزنج إلى الآجام، وهدم الخنادق والأسوار التي كانوا قد أقاموها في مدينة المنصورة التي أزال تحصيناتها كي لا يضطرّ إلى ترك قسم من جيشه لحمايتها ومنع الزنج من العودة لاحتلالها.

كلّ هذه الإنجازات العسكرية لجيوش الخلافة مكّنت قائدها الموفق من فرض إرادته على خصمه ومن تطبيق استراتيجية هجومية سريعة وفاعلة أدت إلى إيقاع هزائم متتالية بالزنج وصولاً إلى فتح عاصمتهم «مدينة المختارة» وقتل قائدهم وإنهاء ثورتهم.

و - أحسن صاحب الزنج في إعداد جميع وسائل الدفاع عن مدينته، من تحصين الأسوار وشق الخنادق حولها وإقفال الطرق إليها وتزويد المدافعين عنها بالمنجنيقات والعرادات وآلات القتال اللازمة.

إلاّ أن التدابير الميدانية التي نفذّها الموفق ساهمت في فتح مدينة الزنج، ونذكر منها:

* هاجم ابنه العباس للمدينة عبر النهر وصمد مع جيشه رغم السهام وحجارة المنجنيق والمقاليع التي رمى بها المحاصرون جيشه.

* أدى هذا الصمود إلى التحاق سفينتين من سفن الزنج بالموفق الذي أظهرهم لرفاقهم الذين في السفن وعلى الأسوار فأسرع

هؤلاء إلى طلب الأمان والانفضاض عن صاحب الزنج.

* أمام هذا النجاح أخطأ صاحب الزنج في اتخاذ تدابير لمنع خروج أحد من المدينة خوفاً من التحاقه بالموفق، ففقد بذلك ثقة رجاله به.

* نادى الموفق بالأمان لجميع المدافعين عن المدينة وكتب الأمان في رقاع رماها بواسطة السهام إلى داخل الأسوار، ووعد فيها بالإحسان إلى الذين يلتحقون به. وهكذا يكون الموفق قد نجح في استخدام وسائل الحرب النفسية والسيكولوجية ضدّ عدوّه. وهذا ما أعطى أفضل النتائج إذ استأمن إليه عدد كبير من الجند والأهالي.

* بنى الموفق مقابل المختارة مدينة «الموفقية» لمتابعة محاصرة الزنج، وزوّدها بالمؤن، محققاً بذلك استقلالية جيشه واستقراره وحرية عمله.

* قطع التموين عن المدينة فأوهن المدافعين عنها.

* بنى سفناً كثيرة وسيّرها في النهر تعزيزاً لجهده العسكري النهري.

* اكتشف بواسطة أحد جواسيسه معلومات عن غارة كان سيشنها الزنج على جيشه، فتلافى المفاجأة واتخذ تدابير احترازية أدت إلى قلب الموقف رأساً على عقب ومفاجأة خصمه والانتصار عليه.

* ألقى رؤوس قتلى الزنج بالمنجنيق إلى داخل المدينة المحاصرة، فدبّ الذعر في نفوس المدافعين عنها وتراجعت معنوياتهم وحماسهم للقتال.

* اعترض بنجاح جيشاً من عشرة آلاف مقاتل، أخرجه صاحب الزنج من المدينة بقصد إبعاده عنها، وانتصر عليه، حارماً عدوّه من حرية عمله وحاصراً إياه داخل المدينة بقصد السحق النهائي لثورته.

لقد تمكّن الموفق من تطبيق مبادىء الحرب الثلاثة:

- الأول، أي نسبية الأهداف للوسائل، بحشده قوى كبيرة وتزويدها بالأسلحة والسفن وكلّ ما يلزمها للقتال.

- الثاني، أي حرية العمل، بحصره خصمه داخل مدينة المختارة وإنهاكه ومنعه من الخروج منها وقطع التموين عنها والسيطرة على الأنهار المجاورة وتخريب

حصون المدينة وردم الخنادق حولها. وهدم القناطر على النهر لمنع عبور عدوّه عليها، وإحراق أجزاء من المدينة بعد تحريرها، وقطع شجر النخيل حولها تأميناً لحرية مناورته.

- الثالث، أي الحصيل الأقصى للوسائل، من خلال حسن أدائه في إدارة المعركة، وشن حرب نفسية وسيكولوجية ضدّ خصمه، واكتشاف جميع مناوراته عبر جواسيسه، وإقامة مدينة الموفقية لتأمين راحة جنوده وحسن أدائهم في القتال.

لقد طبّق الموفق قواعد الشدّة والاستمرارية والصدم وتتابع الجهد الحربي، إضافة إلى الحرب النفسية التي أحسن استخدامها، فنجح في مناورته النهائية وقضى على خصمه.

ملحق رقم ٢

سيرة القائد أبي أحمد الموفق[١]

هو الأمير الناصر لدين الله، ويقال له الموفق، ويقال له طلحة بن المتوكل على الله جعفر بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد. كان مولده في يوم الأربعاء لليلتين خلتا من ربيع الأول سنة تسع وعشرين ومائتين، وكان أخوه المعتمد حين صارت الخلافة إليه قد عهد إليه بالولاية بعد أخيه جعفر، ولقبه الموفق بالله. ثمّ، لمّا قتل صاحب الزنج وكسر جيشه، تلقّب بناصر دين الله، وصار إليه العقد والحل والولاية والعزل، وإليه يجبى الخراج. وكان يخطب له على المنابر، فيقال: اللهم أصلح الأمير الناصر لدين الله أبا أحمد الموفق بالله ولي عهد المسلمين أخا أمير المؤمنين. ثمّ اتفق موته قبل أخيه المعتمد بستة أشهر. وكان غزير العقل حسن التدبير يجلس للمظالم وعنده القضاة فينصف المظلوم من الظالم وكان عالماً بالأدب والنسب والفقه وسياسة الملك وغير ذلك، وله محاسن ومآثر كثيرة جداً.

وكان سبب موته أنه أصابه مرض النقرس[٢] في السَّفر، فقدم إلى بغداد وهو عليل منه فاستقرّ في داره في أوائل صفر وقد تزايد به المرض وتورّمت رجله حتى عظمت جداً. وكان يوضع له الأشياء المبرّدة كالثلج ونحوه. وكان يحمل على سريره، يحمله أربعون رجلاً بالنوبة، كلّ نوبة عشرون. فقال لهم ذات يوم: ما أظنكم إلاّ قد مللتم مني فيا ليتني كواحد منكم آكل كما تأكلون، وأشرب كما تشربون، وأرقد كما

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٦٩ - ٧٠.

(٢) النقرس: مرض يصيب المفاصل شديد الإيلام.

ترقدون في عافية. وقال أيضاً: في ديواني مائة ألف مرتزق ليس فيهم أحد أسوأ حالاً مني. ثمّ كانت وفاته في القصر الحسيني ليلة الخميس لثمان بقين من صفر.

قال ابن الجوزي: وله سبع وأربعون سنة تنقص شهراً وأياماً.

ولما توفي اجتمع الأمراء على أخذ البيعة من بعده إلى ولده أبي العباس أحمد، فبايع له المعتمد بولاية العهد من بعد أبيه، وخطب له على المنابر. وجعل إليه ما كان لأبيه من الولاية والعزل والقطع والوصل. ولقب المعتضد بالله.

الفصل السادس
العمليات العسكرية في عهد المعتمد على الله

بعدما خصصنا فصلاً كاملاً للعمليات العسكرية التي أدّت إلى مقتل صاحب الزنج وإنهاء تمرّده، وبغية ذكر كلّ العمليات التي وقعت في النصف الثاني من عهد الخليفة المعتمد على الله، رأينا وجوب تخصيص فصل خاص بها.

كان الخليفة المعتمد قد أمسى في وضع دقيق، إذ إن أخاه أبا أحمد الموفق كان قد استحوذ على أمور الخلافة وأصبح الآمر الناهي، وإليه تجلب التقادم وتحمل الأموال والخراج، وهو الذي يُولّي ويعزل.

لذلك، كتب الخليفة إلى أحمد بن طولون في مصر يشكو إليه ذلك، فكتب إليه ابن طولون باللحاق به في مصر واعداً إياه بالمساعدة، وسيّر جنداً إلى الرقة ينتظر وصول المعتمد إليه. فاغتنم المعتمد غيبة الموفق في السنة التاسعة والستين والمائتين، وسار في جمادى الأول ومعه جماعة من القواد. فلما اجتاز الخليفة باسحاق بن كنداج نائب الموصل والجزيرة، اعتقله عنده ومنعه من المسير إلى ابن طولون، كما اعتقل أعيان الأمراء الذين معه. ثمّ الزمه العودة إلى سامراء، فرجع وهو في غاية الذلة والإهانة.(١)

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٤٧.

١ – عصيان العباس بن أحمد بن طولون على أبيه

في السنة الخامسة والستين والمائتين للهجرة، وبعد أن خرج أحمد بن طولون إلى الشام واستخلف ابنه العباس، حسن لهذا الأخير أن يستولي على الأموال ويقصد برقة، ففعل. ولما بلغ خبره والده عاد إلى مصر.(١)

قصد العباس شمال أفريقيا وكاتب وجوه البربر فأتاه بعضهم وتمنّع بعض آخر. ثمّ جاء حصن لبدة ففتحه أهله فعاملهم أسوأ معاملة، فاستنجد أهل الحصن بإلياس بن منصور النفوسي، رئيس الخوارج الأباضية الذي أرسل جيشاً كبيراً بقيادة عامل طرابلس وأمره بقتال العباس. التقى الجمعان واقتتلا قتالاً شديداً قاتل العباس فيه بيده. وفي اليوم التالي جاءهم الأباضي في اثني عشر ألفاً من الاباضية، فاجتمع مع عامل طرابلس على قتال العباس، فقتل من أصحابه عدد كبير وهزم وكاد أن يؤسر.(٢)

ثمّ إن أحمد بن طولون سيّر إلى ابنه جنداً فقاتله قتالاً صَبَرَ فيه الفريقان، قبل أن يُهزم العباس ويؤسر ويحمل أسيراً إلى والده الذي صفح عنه.

٢ – القتال بين جيش ابن طولون وجند الموفق بمكة

كتب ابن الأثير عن هذا القتال ما يلي:(٣)

«في السنة التاسعة والستين والمائتين كانت وقعة بمكة بين جيش لأحمد بن طولون وبين عسكر الموفق في ذي القعدة. وكان سببها أن أحمد بن طولون سيّر جيشاً مع قائدين إلى مكة فوصلوا إليها وجمعوا الحناطين، والجزارين، وفرّقوا فيهم مالاً. وكان عامل مكة هارون بن محمد، إذ ذاك ببستان

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٦٩.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٨٣.
(٣) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٣٢٨ – ٣٢٩.

ابن عامر، قد فارقها خوفاً منهم. فوافى مكة جعفر الناعمودي في ذي الحجة في عسكر وتلقاه هارون بن محمد في جماعة فقوي بهم جعفر والتقوا هم وأصحاب ابن طولون فاقتتلوا. وأعان أهل خراسان جعفراً فقتل من أصحاب ابن طولون مائتي رجل وانهزم الباقون في الجبال وسُلبوا وأخذت أموالهم. وأخذ جعفر من القائدين نحو مائتي ألف دينار وأمّن المصريين، والجزارين، والحناطين، وقُرأ كتاب في المسجد الجامع بلعن ابن طولون».

٣ - أبو العباس المعتضد يستعيد دمشق من ابن طولون

في السنة الحادية والسبعين والمائتين، وبعد وفاة أحمد بن طولون، طمع والي الموصل إسحاق بن كنداج ببلاد الشام وكاتب الموفق الذي وعده بالمساعدة. فجمع إسحاق وابن أبي الساج جموعهما وقصدا ما يجاورهما من البلاد فاستوليا عليها، وأعانهما عليها نائب ابن طولون بدمشق.[١]

تراجع من بالشام من نواب ابن طولون في أنطاكية وحلب وحمص، وعصى متولي دمشق، واستولى إسحاق على هذه المناطق. بلغ الخبر إلى خمارويه بن أحمد بن طولون، فسيّر الجيوش إلى الشام فملكوا دمشق وهرب نائبه منها.[٢]

وسار جند خمارويه من دمشق إلى شيزر لقتال اسحاق وابن أبي الساج. لكن الشتاء في العراق منع الجيشين من متابعة القتال وأضرّ بأصحاب ابن طولون الذين تفرّقوا في المنازل بشيزر. ووصل العسكر العراقي إلى شيزر وعليها أبو العباس بن الموفق، فكبس عسكر خمارويه في المساكن ووضع السيف فيهم وقتل منهم عدداً كبيراً جداً. سار من سلم منهم إلى دمشق فلاحقهم أبو العباس وهزمهم وأخرجهم منها إلى الرملة واستعاد دمشق إلى الحكم العباسي.[٣]

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٨٩.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٥٣.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٣٨.

٤ – وقعة الطواحين

في السنة الحادية والسبعين والمائتين حصلت وقعة الطواحين بين أبي العباس المعتضد وخمارويه بن طولون. وسميت كذلك لأن خمارويه، لمّا وصل إلى الرملة، نزل على ماء عليه طواحين فنسبت الوقعة إليها. وكان المعتضد قد سار من دمشق بعد أن ملكها قاصداً خمارويه في الرملة، فأدركه عند الماء المسمى كذلك، فاقتتلوا طويلاً، فكان النصر أولاً للمعتضد على خمارويه الذي ترك جيشه وفرّ حتى دخل الديار المصرية. وملك المعتضد خيام المصريين وشغل أصحابه بالنهب، فخرج عليهم كمين كان قد أقامه المصريون فانهزم المعتضد إلى دمشق، فلم يفتح له أهلها، فأكمل طريقه إلى طرطوس.[١]

وراح الجيشان يقتتلان من دون قائديهما، بعد أن أقام المصريون عليهم قائداً سعداً شقيق خمارويه فانتصروا في القتال الدائر وقتل عدد كبير من العراقيين. وملك المصريون بلاد الشام التي جلا عنها الجيش العراقي وخرجت من طاعة الخليفة العباسي ودخلت مرّة جديدة في طاعة ابن طولون.[٢]

ثمّ ثار أهل طرطوس ضد أبي العباس فأخرجوه من مدينتهم وولوا عليها مازيار الذي استبدّ بها.[٣]

٥ – القتال بين جند الخليفة وعمرو الصفّار

في السنة نفسها كانت وقعة أخرى بين جند الخليفة وعمرو بن الليث الصفار الذي كان في خمسة عشر ألفاً بين فارس وراجل. ودامت الحرب طيلة نهار العاشر من ربيع الأول، فقتل مائة مقاتل من جيش الصفّار، وأُسر ثلاثة آلاف منهم واستأمن ألف رجل. وغنم جيش الخليفة من معسكر الصفار

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٩٧.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٥٣.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٩٨.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٤٣.

غنائم كثيرة من الدواب والبقر والحمير ما يقارب الثلاثين ألفاً.(٤)

٦ - الحرب بين أذكوتكين ومحمد بن زيد العلوي

في السنة الثانية والسبعين والمائتين توفي الحسن بن زيد العلوي صاحب طبرستان وولي مكانه أخوه محمد بن زيد، فطمع فيه عامل قزوين أذكوتكين(١) الذي سار من قزوين إلى الريّ في أربعة آلاف فارس. وسار محمّد إليه في جيش كبير من الديلم والطبرية والخراسانية، فاقتتلوا قتالاً عنيفاً هزم في نهايته محمد بن زيد وتفرّق جيشه وقتل منه نحواً من ستة آلاف وأسر ألفين. وغنم أذكوتكين غنائم من الأموال والدواب الشيء الكثير.(٢)

ثمّ دخل الري فأخذ منها مائة ألف دينار وفرّق عماله في نواحيها.

٧ - القتال بين ابن أبي الساج وابن كنداج

في السنة الثالثة والسبعين والمائتين اختلف ابن أبي الساج وإسحاق بن كنداج، وكانا كلاهما على الجزيرة، فراسل ابن أبي الساج خمارويه بن طولون معترفاً بقيادته وخطب باسمه في قنسرين. وأرسل ولده ديوداد ليكون رهينة عنده، فبعث خمارويه إليه أموالاً كثيرة وسار إلى الشام حيث اجتمع به.(٣)

وعبر ابن أبي الساج الفرات إلى الرقة، فلقيه ابن كنداج في جيش له فجرت بينهما حرب انهزم فيه ابن كنداج واستولى ابن أبي الساج على أعماله. مضى ابن كنداج إلى ماردين فحاصره ابن أبي الساج، ثمّ رفع الحصار وسار إلى سنجار لمقاتلة بعض الأعراب الذين خرجوا عن طاعته.(٤)

---

(١) في ابن خلدون: اتكوتين.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٥٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ٥٦.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٩٩.

سار إسحاق بن كنداج إلى الموصل فلقيه ابن أبي الساج وجرى قتال أيضاً بينهما انتصر فيه الأخير فسيطر على الجزيرة والموصل وخطب فيهما لخمارويه ثمّ لنفسه من بعده.(١)

وكان اليعقوبية من السراة في الموصل، فأرسل ابن أبي الساج غلامه فَتْحَ لجباية الخراج، فهادنهم فرحلوا إلى أعمالهم وتفرّقوا، فغدر بهم فتح وكبسهم في السحر فهزمهم وصادر أموالهم. ثمّ إن اليعقوبية اجتمعوا وعادوا إلى فتح فقاتلوه وحملوا عليه حملة رجل واحد، فهزموه وقتلوا من جنده ثمانمائة رجل، وتفرق مائة من عسكره في القرى وعادوا إلى ابن أبي الساج متفرّقين.(٢)

ثمّ جرت بين ابن أبي الساج وابن كنداج وقائع أخرى ذكرها ابن خلدون الذي كتب:(٣)

«ثمّ انتقض ابن أبي الساج على خمارويه الذي استباح عسكره. وكان له بحمصَ مخلف من أثقاله، فقدم خمارويه طائفة من العسكر إليها فاستولوا على ما فيها ومنعوا ابن أبي الساج من دخولها، فسار إلى حلب ثمّ إلى الرّقّة وخمارويه في اتّباعه، فعبر الفرات إلى الموصل. وجاء خمارويه إلى بلد وأقام بها، وسار ابن أبي الساج إلى الحُديثة. وكان إسحاق بن كنداج قد لحق بخمارويه من ماردين، فبعث معه جيشاً وجماعة من القوّاد، وسار في طلب ابن أبي الساج، وقد عبر دجلة، فجمع ابن كنداج السفن ليوطىء جسراً للعبور.

وبينما هو في ذلك أسرى ابن أبي الساج من تكريت إلى الموصل، فوصلها الرابعة، وسار ابن كنداج في أتباعه. فاقتتلوا بظاهر الموصل وابن أبي الساج في ألفين، فصبر واشتدّ القتال، وانهزم ابن كنداج وهو في عشرين ألفاً. فخلص إلى الرقّة ومحمد ابن أبي الساج في اتّباعه. وكتب إلى الموفق يستأذنه في عبور الفرات إلى بلاد خمارَويه بالشام، فأمره

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٤٨.

(٢) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٣٤٩.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٧٠٠ - ٧٠١.

بالتوقّف إلى وصول المدد من عنده. ومضى ابن كنداج إلى خمارويه فجاء بجيوشه إلى الفرات، وتوافق مع ابن أبي الساج والفرات بينهما. ثمّ عبرت طائفة من عسكر ابن كنداج فأوقعوا بطائفة من عسكر ابن أبي الساج فانهزموا إلى الرقّة فسار ابن أبي الساج عن الرقة إلى بغداد سنة ست وسبعين في ربيع منها، فأكرمه الموفق ووصله. واستولى ابن كنداج على ديار ربيعة من أعمال الجزيرة، وأقام بها. وولّى الموفق محمد بن أبي الساج على أذربيجان، فسار إليها فخرج إليه عبد الله بن الحسين الهمذاني عامل مراغة ليصدّه فهزمه ابن أبي الساج فحاصره وأخذ منه مراغة سنة ثمان وسبعين وقتله، واستقرّ ابن أبي الساج في عمله بأذربيجان».

ثمّ كانت وقعة بالرقة بين إسحاق بن كنداج ومحمد بن أبي الساج هزم فيها إسحاق. ثمّ كانت وقعة ثانية بينهما انهزم فيها إسحاق أيضاً.

٨ - وفاة الموفق وبيعة المعتضد

كان الموفق بن المتوكل أبرز قائد عسكري في عهد المعتمد على الله، وهو الذي أنهى تمرّد الزنج وأعاد المناطق التي كانوا يسيطرون عليها إلى طاعة الخليفة. وقد توفي في السنة الثامنة والسبعين والمائتين من مرض النقرس ومرض «داء الفيل» في رجله.[1]

وكان الموفق قد سجن ابنه أبا العباس، وقبل وفاته بقليل أُخرج أبو العباس من السجن فخلع عليه والده وقرّ به. وبعد وفاته كسرت أبواب السجن وأُخرج من فيه.[2]

ولمّا توفي الموفق اجتمع القواد وبايعوا ابنه أبا العباس بولاية العهد بعد المفوض ابن المعتمد ولقب بـ «المعتضد بالله»، وذلك لسبع ليال بَقَيْن من صفر.[3]

(١) داء الفيل هو ورم عظيم يكون في الساق فيسيل منها ماءاً.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٠٠.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٦٣.

٩ – ظهور القرامطة

في السنة الثامنة والسبعين والمائتين تحرك بسواد الكوفة قوم يعرفون بالقرامطة. وكانت بدايتهم عندما قدم رجل منهم من ناحية خوزستان إلى موضع بسواد الكوفة يقال له «النهرين»، فأظهر الزهد والتقشّف وأكثر الصلاة. وكان هذا الرجل يدعى قرمط، قيل لركوبه على ثور كان صاحب كَرميطَة فعُرِّب. وقيل إن اسمه حمدان ولقبه قرمط. وزعم أنه داعية لأهل البيت.(١)

أُلقي القبض عليه وأُودع السجن في الكوفة، ففرّ من سجنه وزعم أن إغلاق السجن لا يمنعه من الخروج، فأحبه أهل المنطقة.(٢)

وهكذا بدأ تاريخ القرامطة الذين سيكون لهم دور عسكري لاحقاً.

١٠ – خلع جعفر بن المعتمد وولاية المعتضد

في السنة التاسعة والسبعين والمائتين جلس المعتمد على الله للقواد والقادة ووجوه الناس في المحرم، وأعلمهم أنه خلع ابنه المفوض إلى الله جعفر من ولاية العهد، وجعلها للمعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق. وشهد الحاضرون على المفوض أنه قد تبرأ من العهد وأسقط اسمه من السكة والخطبة وغيرها. وانفذت الكتب إلى العمال والولاة بأن أمير المؤمنين قد ولى العهد للمعتضد.(٣)

١١ – وفاة المعتمد

في السنة نفسها توفي المعتمد لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب ببغداد.

كتب الطبري عن سبب وفاته ما يلي:(٤)

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٧٠٤.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٠٢.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء١١ ، ص ٧٠.

(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٠٥.

«وكان قد شرب على الشطّ في الحَسَني يوم الأحد شراباً كثيراً، وتعشى فأكثر، فمات ليلاً».

وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وستة أيام.[1]

١٢ - الدروس والعِبَر والنتائج

أ - أخطأ العباس بن أحمد بن طولون في تقدير قوته مقابل قوّة والده فأخلّ بمبدأ الحرب الأول أي نسبية الأهداف للوسائل، وخسر معركته.

عاد ابن طولون وخالف مبدأ الحرب نفسه فأرسل جيشاً إلى مكّة هزمه والي المدينة العباس.

بعد هذه العمليات انتقل ابن طولون في بلاد الشام من الاستراتيجية الهجومية الناجحة إلى استراتيجية دفاعية خسر خلالها أملاكه في تلك البلاد بسبب خسارة جيشه القتال في دمشق وطول خطوط مواصلات جيوشه التي كانت تسيطر على بلاد الشام.

ب - كانت جيوش الخلافة العباسية تخوض صراعاً على جبهتين:

- جبهة الحرب ضد صاحب الزنج.
- جبهة الدفاع عن بلاد الشام ضد أطماع ابن طولون.

إنما، وبعد إخضاع الزنج، تفرّغت هذه الجيوش لاستعادة ما فقدته في تلك البلاد. إلاّ أن ابن طولون عاد وقاد حملة استردادية واسعة لبلاد الشام تمكن خلالها من استعادة ما فقده وأعاد السيطرة المصرية عليها.

لذلك، يوصي الاستراتيجيون بعدم القتال على أكثر من جبهة في الوقت نفسه. وعندما يضطرّ جيش للدفاع عن نفسه مقابل أعداء عدّة يهاجمون على جبهات مختلفة، عليه أن يطبق استراتيجية «المناورة بالخطوط الداخلية» التي سبق وشرحنا خطوطها في هذه الموسوعة.

ج - خلال قتال القائد «فتح» ضد اليعقوبية في الموصل، وبعد أن هزمهم، أخطأ في عدم استغلال النصر وملاحقتهم لمنعهم

---

(١) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٢٦.

من إعادة تجميع صفوفهم. وهذا ما سمح لهم بإعادة التجمّع ومهاجمة جيشه والانتصار عليه وتفريق جموعه.

د - لدى ظهور القرامطة في خوزستان، ورغم سجن رئيسهم حمدان وفراره من السجن، لم تُحسِن الدولة العباسية معالجة هذا الوضع الطارىء، بل تهاملت في ملاحقته، الأمر الذي ألّب حوله جماعات من المسلمين، فاضطرّت الخلافة إلى تنفيذ سلسلة طويلة من الحملات لإعادة إخضاعه.

وهنا نعود للتأكيد على وجوب حل المشكلات العملانية فور بروزها كما يقول المثل الشائع: «لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد، فإن للغد عمل آخر».

علاوة على ذلك، فإن قمع الثورات والتحرّكات المناهضة للحكم تسهل عند بداياتها كونها تكون ما تزال محدودة الإمكانات. فإذا أهملت وتركت يسهل عليها استقطاب المؤيدين إذ

«إنَّ نِصفَ الناسِ أعداءٌ لِمَن
وُلِّي الأَحكَامَ، هَذا إنْ عَدَل»

فالناس تُعجب بالذي يتجرّأ ويخرج على الدولة إذا لم يُقمع تحرّكه بسرعة، إذ إن حركته تصبح ككرة الثلج.

وهذا ما حصل مع حمدان قرمط.

ملحق رقم ٣

القتال ضد الروم في عهد المعتمد

في السنة الخامسة والستين والمائتين خرج خمسة بطارقة من الروم إلى أَذَنَة فأسروا نحواً من أربعمائة وقتلوا نحواً من ألف أربعمائة.[١]

وفي السنة التالية وردت سرية من سرايا الروم إلى تل يسهى[٢] من ديار ربيعة، فأسرت نحواً من مائتين وخمسين، ومثّلت بالمسلمين. قام إليها أهل الموصل ونصيبين فردوها على أعقابها.

وفيها التقى أسطول المسلمين وأسطول الروم على سواحل صقلية فجرى بينهما قتال شديد، فظفر الروم بالمسلمين وأخذوا مراكبهم وانهزم من سلم منهم إلى مدينة بالرم بصقلية.[٣]

كما خرجت الروم على ديار ربيعة، فاستنفر الناس فنفروا في برد شديد. وغزا سيما، خليفة أحمد بن طولون على الثغور الشامية في ثلاثمائة مقاتل بلاد الروم، فخرج عليهم نحواً من أربعة آلاف من هرقلة، فاقتتلوا قتالاً شديداً قتل فيه من الجانبين.

وفي السنة الثامنة والستين والمائتين خرج ملك الروم المعروف بـ «ابن الصقلبية» فحاصر ملطية، فأعانها أهل مرعش والحدث، فانهزم ملك الروم. وغزا الصائفة من ناحية الثغور

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٢٠.

(٢) في الطبري: تل بسمى - في المعجم: تل بسمة - في ابن الأثير: يَسهى.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٩٠.

الشامية الفرغاني عامل ابن طولون، فقتل من الروم بضعة عشر ألفاً، وغنم غنائم كثيرة.[1]

وفي السنة التالية خرج محمد بن الفضل أمير صقلية في جند من ناحية رمطة وبلغ إلى قطانية فقتل عدداً كبيراً من الروم وسبى وغنم وعاد إلى بالرم.

وفي السنة السبعين والمائتين ظفر المسلمون بالروم الذين قُتل منهم جمع كبير كما كتب ابن الأثير:[2]

«خرجت الروم في مائة ألف، فنزلوا على قَلَميَة[3] - وهي على ستة أميال من طرسوس، فخرج إليهم بازمار[4] ليلاً، فبيّتهم في ربيع الأول، فقتل منهم فيما يقال سبعين ألفاً. وقتل مقدّمهم وهو بطريق البطارقة وقتل أيضاً بطريق الفنادين، وبطريق الباطليق.[5] وأفلت بطريق قرّة وبه عدّة جراحات. وأخذ لهم سبع صلبان من ذهب وفضة، وصليبهم الأعظم من ذهب مكلل بالجوهر. وأخذ خمسة عشر ألف دابة وبغل. ومن السروج وغير ذلك، وسيوفاً محلاة، وأربع كراسي من ذهب، ومائتي كرسي من فضة، وآنية كثيرة، ونحواً من عشرة آلاف علم ديباج وديباجاً كثيراً، وبزيون وغير ذلك».

وفي السنة الواحدة والسبعين والمائتين سارت سرية عظيمة للمسلمين في صقلية إلى رمطة، فخربت وغنمت وسبت وأسرت عدداً كبيراً من السكان.

وفي السنة عينها ولّي صقلية سوادة بن محمد بن خفاجة التميمي فقدمها في جند كثيف، فسار إلى قطانية وقتل من فيها من المقاتلة، ثمّ سار إلى طبرمين فقاتل أهلها وأفسد زرعها. وتقدّم فأتاه رسول بطريق الروم يطلب الهدنة والمفاداة، فهادنه ثلاثة أشهر وفاداه ثلاثمائة أسير من المسلمين، ثمّ

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٥٥٩.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٣٦.
(٣) قَلَمية: كورة واسعة على ستة أميال من طرطوس.
(٤) في الطبري: يا زمان.
(٥) في الطبري: بطريق الناطلق.

عاد إلى بالرم.[١] فلما انتهى زمن الهدنة أرسل سوادة السرايا إلى بلاد الروم بصقلية فغنمت غنائم كثيرة.

وفي السنة الثانية والسبعين والمائتين قدم من القسطنطينية جيش كبير بقيادة البطريق أنجفور فنزل على مدينة سبرينة فحاصرها وضيّق على من بها من المسلمين، فسلّموها على أمان ولحقوا بأرض صقلية. ثمّ وجه أنجفور سرية إلى مدينة منتية فحاصرها مدّة سلمها أهلها في نهايتها بأمان وتوجهوا إلى بالرم.

وفي السنة الرابعة والسبعين والمائتين قَصدَ بازمار[٢] أرض الروم فأوغل فيها وأوقع بكثير من أهلها وقتل منهم عدداً كبيراً وغنم وسبى وأسر آخرين، ثمّ عاد سالماً إلى طرطوس.[٣]

وفي السنة الثامنة والسبعين والمائتين غزا بازمار وأحمد العجيفي الصائفة، فبلغوا شكند، فأصابت بازمار شظية من حجر منجنيق في أضلاعه، ثمّ توفي في الطريق.[٤]

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٤٣.

(٢) في الطبري وابن كثير: يا زمان – في ابن الأثير: بازمار.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٥٨.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٦٦.



الفصل السابع
العمليات العسكرية في عهد المعتضد بالله

بويع لأبي العباس المعتضد بالله في صبيحة الليلة التي مات فيها المعتمد على الله، أي صباح الثلاثاء لعشر ليال بقين من رجب من السنة التاسعة والسبعين والمائتين للهجرة، وكان عمره إحدى وثلاثين سنة.(١)

وكان المعتضد شديد الوطأة قليل الرحمة، حتى إذا غضب على قائد من قواده أمر بإلقائه في حفرة وردمت عليه.

وعرفت الأوضاع الداخلية للدولة العباسية في عهده بعض الاضطرابات بسبب قلق العرب من سيطرة الأتراك، فشغب بنو شيبان الذين أخضعهم الخليفة بنفسه. كما تحرّك الخوارج فكلف حسين بن حمدان(٢) بإخضاعهم فنجح في ذلك، فكان ذلك بدء ظهور الأسرة الحمدانية.

وردّ المعتضد غزوات القرامطة الذين استفحل أمرهم، كما أصلح الإدارة، خاصة نظام الجباية.

وهو الذي نقل مركز خلافته من سامراء إلى بغداد فكان ذلك إيذاناً بأُفول نجم سامراء وخرابها، بعد أن نافست بغداد مدّة من الزمن.

وولّى المعتضد مولاه بدراً الشرطة في بغداد، وعبيدالله بن سليمان الوزارة، ومحمداً بن الشاه بن مالك الحرس. وجاءته هدايا عمرو بن الليث وسأله أن يوليه خراسان فأجابه إلى ذلك وسيّر إليه الخلع واللواء والعهد، وعزل رافعاً بن هرثمة

---

(١) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٦٠.

(٢) جد الأسرة الحمدانية.

عن ولاية خراسان. كما قدم من مصر الحسين بن عبدالله مع هدايا كثيرة من خمارويه فتزوّج المعتضد ابنته.[1]

١ - عزل رافع بن هرثمة عن خراسان وقتله

بعد عزل رافع بن هرثمة عن خراسان كتب إليه المعتضد بتخلية قرى الخليفة بالري فلم يقبل. كلّف الخليفة أحمد بن عبدالعزيز ابن أبي دلف بمحاربته وإخراجه منها، فقاتله أحمد قتالاً شديداً انهزم رافع خلاله فخرج من الري إلى جرجان. لكن وفاة أحمد السنة ثمانين ومائتين، سمحت لرافع بالعودة إلى الري التي كان الخليفة قد ولاّها عمرو بن الليث الذي لاقى رافع فاقتتلا قتالاً شديداً فانهزم عمرو وقُتل من أصحابه جمعٌ كبير.[2]

وفي السنة ثمانين ومائتين عاد عمرو بن الليث فاستولى على نيسابور وخراسان، فيما أحدق برافع عدوّان له هما محمد بن زيد في الديلم، وعمرو بن عبد العزيز في خراسان.[3]

عند هذا الحد صالح رافع محمداً بن زيد الذي وعده بأن ينجده بأربعة آلاف مقاتل من شجعان الديلم، وكان ذلك السنة اثنتين وثمانين ومائتين.

ثمّ سار رافع إلى نيسابور حيث دارت بينه وبين عمرو بن الليث حرب شديدة انهزم فيها رافع إلى أبيورد. ثمّ حاصر عمرو رافعاً الذي سيّر أخاه محمداً بن هرثمة إلى محمد بن زيد يستمدّه ويطلب ما وعده به من الرجال، فلم يفعل هذا الأخير. لذلك تفرّق عن رافع أصحابه وغلمانه، وكان له أربعة آلاف منهم، وفارقه محمّد بن هارون.[4]

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٧٢.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٧٣٠.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٠٥.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٧٢.

وخرج رافع إلى خوارزم منهزماً وحمل ما بقي معه من مال وعتاد، وهو في شرذمة قليلة، وذلك في رمضان السنة ثلاث وثمانين ومائتين. فلما بلع «رباط جبوه» هاجمه أبو سعيد الدرغاني وغَدَر به وقتله وحمل رأسه إلى عمرو بن الليث بنيسابور، فأرسل عمرو الرأس إلى المعتضد بالله. وهكذا صفت خراسان لعمرو.(١)

٢ - إيقاع المعتضد ببني شيبان والأعراب

في السنة الثمانين والمائتين سار المعتضد إلى بني شيبان واستخلف على بغداد حاجبه صالحاً الأمين، فقصد الموضع الذي يجتمعون به في أرض الجزيرة. فلما بلغهم قَصْدُه جمعوا إليه أموالهم وعيالهم.(٢)

واجتمع الأعراب من بني ثعلب وغيرهم للقائه، فأغار المعتضد عليهم فهزمهم ونهب أموالهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وغرق في نهر الزاب مثل ذلك. وأخذ المعتضد النساء والذراري، وغنم عسكره من أموالهم ما أعجزهم حمله، وأخذ من غنمهم وإبلهم ما كثر، حتى بيعت الشاة بدرهم، والجمل بخمسة دراهم.(٣)

ثمّ عاد باتجاه بغداد، فلقيه بنو شيبان يسألونه الصفح عنهم، وبذلوا له الرهائن، فأخذ منهم خمسمائة رجل.(٤)

٣ - القتال بين هارون الخارجي ومحمد بن عبادة

في السنة نفسها خرج محمد بن عبادة من بني زهير على هارون، وكلاهما خارجيان، وذلك في قبراثا من البقعاء. وكان قد جمع جماعة من أعراب تلك الناحية وقوي أمره وأخذ عشر الغلاّت وقبض الزكاة. وبنى عند سنجار حصناً وحمل إليه

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٨٠.
(٢) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٢٧٥.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٧٣٢.
(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٠٦.

العتاد والميرة وجعل فيه ابنه هلالاً ومعه مائة وخمسون رجلاً في بني زهير وغيرهم.

وصل خبره إلى هارون الشاري فجمع أصحابه، فكانوا ألفين ومائتي فارس ومائة راجل، فسار إلى الحصن وحاصره وصعد إلى الأسوار بالسلالم ففتح الحصن وملكه.

ثمّ سار إلى محمد فلقيه وهو في أربعة آلاف رجل بقبراثا، فاقتتلوا قتالاً شديداً هزم فيه هارون.

نقل ابن الأثير رواية عن نهاية القتال الذي عاد هارون وانتصر فيه، فكتب:(١)

«وساروا إلى محمد، وهو بقبراثا، فلقوه وهو في أربعة آلاف رجل، فاقتتلوا، فانهزم هارون ومن معه. فوقف بعض أصحابه ونادى رجالاً بأسمائهم، فاجتمعوا نحو أربعين رجلاً، وحملوا على ميمنة محمد بن عبادة فانهزمت الميمنة وعادت الحرب. فانهزم محمد ومن معه، ووضعوا السيف فيهم، فقتل منهم ألف وأربعمائة رجل، وحجز بينهم الليل. وجمع هارون مالهم فقسّمه بين أصحابه. وانهزم محمد إلى آمد فأخذه صاحبها أحمد بن عيسى بن الشيخ، بعد حرب، فظفر به فأخذه أسيراً وسيّره إلى المعتضد فسلخ جلده كما يسلخ الشاة».

٤ – إعادة حمدان بن حمدون إلى الطاعة

في السنة الحادية والثمانين والمائتين خرج المعتضد إلى الموصل قاصداً حمدان بن حمدون الذي مال إلى هارون الشاري ودعا له في قلعة ماردين.(٢)

نقل الطبري رواية عن الحملة ضد ابن حمدون فكتب:(٣)

«ثمّ خرج إلى الموصل عامداً لقلعة ماردين، وكانت في يد حمدان بن حمدون. فلما بلغه مجيء المعتضد هرب وخلّف ابنه بها. فنزل عسكر المعتضد على القلعة، فحاربهم مَن كان فيها يومهم ذلك. فلمّا كان من الغد ركب المعتضد، فصعد القلعة حتى

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٧٥.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٧٣٢.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٠٩.

وصل إلى الباب، ثمّ صاح: يا ابن حمدون، فأجابه: لبيك! فقال له: افتح الباب، ويلك، ففتحه. فقعد المعتضد في الباب، وأمر مَن دخل فنقل ما في القلعة من المال والأثاث، ثمّ أمر بهدمها فهُدمت. ثمّ وجّه خلف حمدان بن حمدون، فطُلب أشدّ الطلب، وأُخذت أموال كانت له مودعة، وجيء بالمال إلى المعتضد، ثمّ ظُفر به. ثمّ مضى المعتضد إلى مدينة يقال لها الحسنيّة، وفيها رجل يقال له شدّاد، في جيش كثيف، ذكر أنهم عشرة آلاف رجل، وكان له قلعة في المدينة فظفر به المعتضد، فأخذه فهدم قلعته».

ثمّ كتب المعتضد إلى إسحاق بن أيوب وحمدان بالمسير إليه، وهو في الموصل، ففعل إسحاق فيما تحصّن حمدون بقلاعه، فسير المعتضد الجيوش إليه بقيادة وصيف موشكير ونصر القشوري. فلمّا رأى الحسين ابن حمدان أوائل العسكر، طلب الأمان فأُمّن وسُيّر إلى المعتضد بعد ان سلم القلعة فأمر المعتضد بهدمها.[1]

وسار وصيف في طلب حمدان في باسورين فواقعه وقتل من أصحابه جماعة؛ وانهزم حمدان في زورق له كان في دجلة وحمل مالاً كان معه وفرّ إلى ديار ربيعة. لاحقه جند الخليفة إلى ديار ربيعة فضاقت عليه الأرض، فقصد خيمة إسحاق بن أيوب واستجار به فأحضره عند المعتضد فأمر بالاحتفاظ به. وتتابع القادة الأكراد في طلب الأمان.[2]

٥ – قتال الأعراب من بني شيبان

في السنة السادسة والثمانين والمائتين للهجرة سار إلى الأنبار جماعة أعراب من بني شيبان وأغاروا على القرى وقتلوا من صادفوا من الناس وأخذوا المواشي، فجرت وقائع بينهم وبين حملات عدّة بعثها المعتضد لقتالهم لخّصها الطبري الذي كتب:[3]

«وفي رجب من هذه السنة صار إلى الأنبار جماعة من أعراب بني شيبان، فأغاروا على

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٧٣٢.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٧٩.

(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٣٠.

القرى، وقتلوا من لحقوا من الناس، واستاقوا المواشي. فخرج إليهم أحمد بن محمد بن كُمُشجور المتولّي المعاون بها، فلم يُطقهم. فكتب إلى السلطان يخبره بأمورهم. فوجّه من مدينة السلام نفيساً المولديّ وأحمد بن محمد الزَّرَنْجيّ والمظفّر بن حاجّ مدداً له في زهاء ألف رجل، فصاروا إلى موضع الأعراب، فواقعوهم بموضع يُعرف بالمنقبة من الأنبار، فهزمهم الأعراب، وقتلوا أصحابهم وغرق أكثرهم في الفرات، وتفرّقوا. فورد كتاب ابن حاجّ يوم الإثنين لستٍّ بَقيْن من رجب بخبر هذه الوقعة وهزيمة الأعراب إياهم، فأقام الأعراب يعيشون في الناحية، ويتخفّرون القرى. فكُتب إلى المعتضد بخبرهم، فوجّه إليهم لقتالهم من الرّقة العباس بن عمرو الغَنَويّ وخفيفاً الأذكوتكينيّ وجماعة من القوّاد. فصار هؤلاء القوّاد إلى هيت في آخر شعبان من هذه السنة. وبلغ الأعراب خبرُهم. فارتحلوا عن موضعهم من سواد الأنبار، وتوجّهوا نحو عين التّمر، ودخل القواد الأنبار، فأقاموا بها.

وعاث الأعراب بعين التّمر ونواحي الكوفة؛ مثل عيثهم بنواحي الأنبار، وذلك بقية شعبان وشهر رمضان.

ولعشر بَقِين من شهر رمضان منها وجّه المعتضد مؤنساً الخازن إلى الأعراب بنواحي الكوفة وعين التّمر، وضمّ إليه العباس بن عمرو وخفيفاً الأذكوتكينيّ وغيرهما من القوّاد. فسار مؤنس ومن معه حتى بلغ الموضع المعروف بنينوى، فوجد الأعراب قد ارتحلوا عن موضعهم، ودخل بعضهم إلى برّيّة طريق مكة وبعضهم إلى برّية الشام، فأقام بموضعه أياماً، ثمّ شخص إلى مدينة السلام».

٦ – ابتداء أمر القرامطة بالبحرين

في السنة نفسها ظهر رجل من القرامطة يُعرف بأبي سعيد الجنابي، بالبحرين، فاجتمعت إليه جماعة من الأعراب والقرامطة وقوي أمره، فقتل من حوله من أهل القرى. ثمّ سار إلى القطيف[١] وقتل

(١) القطيف: مدينة كانت يومذاك من أهم مدن البحرين.

من بها؛ واتجه نحو البصرة، فاستنجد نائبها بالخليفة المعتضد الذي أمره بتحصين سورها فعمّره وجدّد معالمه بنحو من أربعة آلاف دينار.[1] وهكذا امتنعت البصرة على القرامطة الذين تغلّبوا على هاجر وما حولها من البلاد وأكثروا في الأرض فساداً.[2]

٧ – انتصار المعتضد على وصيف

في السنة السابعة والثمانين والمائتين هرب وصيف خادم محمد بن أبي الساج من برذعة[3] إلى ملطية، من أعمال مولاه، وكتب إلى المعتضد يسأله أن يوليه الثغور. سأل المعتضد الرسل عن سبب مفارقة وصيف مولاه فذكروا له أنه تواطأ معه على أنه متى ولّي وصيف الثغور، سار إليه مولاه وقصدا ديار مضر وتغلّبا عليها.[4]

سار المعتضد نحوه في جيش كبير، فنزل العين السوداء حيث أتته الأخبار من جواسيسه أن وصيفاً قصد عين زربة؛ فسأل عن أقرب الطرق للقائه وسار نحوه. وقدّم مجموعة من عسكره أمامه حيث اصطدمت بوصيف وقاتلته وأخذته أسيراً، فأحضرته إلى المعتضد الذي حبسه. وأمر المعتضد فنودي في أصحاب وصيف بالأمان، وأمر العسكر بردّ ما نهبوه منهم ففعلوا. ولّما فرغ رحل إلى المصيصة وأحضر رؤساء طرطوس الذين سبق أن كاتبوا وصيفاً فقبض عليهم، وأمر بإحراق مراكب طرطوس التي كانوا يغزون بها وكلّ آلات حربهم. وكان من جملة المراكب خمسون مركباً قديماً قد أنفق عليها المسلمون مالاً كثيراً ولا يمكن صنع مثلها، الأمر الذي أضرّ بالمسلمين كثيراً.[5]

---

(١) في الطبري وابن كثير: أربعة عشر ألف دينار.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٨٧.

(٣) برذعة: مدينة في أقاصي أذربيجان.

(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٧٣٣.

(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٩٩ – ٤٠٠.

٨ - انتصار القرامطة على جيش عباسي

في السنة نفسها عظُم أمر القرامطة في البحرين وأغاروا على نواحي هجر وقرب بعضهم من البصرة، فقرر المعتضد إرسال جيش لقتالهم فاختار العباس بن عمرو الغنوي، فعزله عن بلاد فارس وأقطعه اليمامة والبحرين وأمره بمحاربة القرامطة، وضمّ إليه زهاء ألفي رجل.[١]

نقل الطبري خبر القتال بين العباس والقرامطة والذي هزم فيه العباس، فكتب:[٢]

«وفي هذه السنة[٣] كان خروج العباس بن عمرو الغَنويّ، فيما ذكر، من البصرة بمن ضُمّ إليه من الجند، مع من خَفّ معه من مطّوعة البصرة نحو أبي سعيد الجنّابيّ ومَن انضوى إليه من القرامطة. فلقيهم طلائع لأبي سعيد، فخلّف العباس سواده، وسار نحوهم، فلقي أبا سعيد ومَن معه مساءً، فتناوشوا القتال، ثمّ حجز بينهم الليل، فانصرف كلّ فريق منهما إلى موضعه. فلمّا كان الليل انصرف من كان مع العباس من أعراب بني ضبّة - وكانوا زهاء ثلاثمائة - إلى البصرة، ثمّ تبعهم مطّوعة البصرة. فلما أصبح العباس غادى القرامطة الحرب، فاقتتلوا قتالاً شديداً. ثمّ إنّ صاحب ميسرة العباس - وهو نجاح غلام أحمد بن عيسى بن شيخ - حمل في جماعة من أصحابه زهاء مائة رجل على ميمنة أبي سعيد، فوغلوا فيهم، فقتل وجميع من معه. وحمل الجنّابيّ وأصحابه على أصحاب العباس، فانهزموا، فاستأسر العباس، وأُسر من أصحابه زهاء سبعمائة رجل. واحتوى الجنّابيّ مَن كان أسر من أصحاب العباس، فقتلهم جميعاً، ثمّ أمر بحطب فطرح عليهم، وأحرقهم.

وفيها - فيما ذكر - صار الجنّابيّ إلى هَجَر، فدخلها وآمن أهلها، وذلك بعد منصرفه من وقعة العباس. وانصرف فَلّ أصحاب العباس بن عمرو يريدون البصرة، ولم يكن أفلت

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٧٣٧.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٣٣.

(٣) سنة ٢٨٧هـ.

منهم إلاّ القليل بغير أزواد ولا كساءً، فخرج إليهم من البصرة جماعة بنحو من أربعمائة راحلة، عليها الأطعمة والكساء والماء، فخرج عليهم - فيما ذكر - بنو أسد، فأخذوا تلك الرواحل بما عليها، وقتلوا جماعة ممن كان مع تلك الرواحل ومن أفلت من أصحاب العبّاس؛ وذلك في شهر رمضان. فاضطربت البصرة لذلك اضطراباً شديداً وهمّوا بالانتقال عنها، فمنعهم أحمد بن محمد الواثقي المتولّي لمعاونها من ذلك، وتخوّفوا هجوم القرامطة عليهم».

٩ - استيلاء ابن سامان على خراسان ومقتل عمرو بن الليث

في السنة السابعة والثمانين والمائتين أسر إسماعيل بن أحمد الساماني صاحب ما وراء النهر عمراً بن الليث الصفّار فأرسله إلى الخليفة المعتضد الذي سجنه، ثمّ قتله الخليفة المكتفي.(١)

لخّص ابن خلدون رواية القتال بين الواليين وانتصار صاحب ما وراء النهر وصولاً إلى مقتل عمرو بن الليث، فكتب:(٢)

«لمّا تغلّب عمرو بن الليث الصفّار على خراسان من يد رافع بن الليث، وقتله وبعث برأسه إلى المُعتضد، وطلب منه أن يوليه ما وراء النهر مضافاً إلى ولاية خُراسان. كتب له بذلك فجهز الجيوش لمحاربة إسماعيل بن أحمد صاحب ما وراء النهر، وجعل عليهم محمد ابن بشير من أخصّ أصحابه. وبعث معه القوّاد فانتهوا إلى آمد من شطّ جَيحون، وعبر إليهم إسماعيل فهزمهم، وقتل محمد بن بشير في ستة آلاف. ولحق الفلّ بعمرو في نيسابور، فتجهّز وسار إلى بلخ، وكتب إليه إسماعيل يستعطفه ويقول: أنا في ثغر وأنت في دنيا عريضة فاتركني واستفد ألفتي فأبى.

وصعب على أصحابه عبور النهر لشدّته، فعبر إسماعيل وأخذ الطرق على بلخ، وصار

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤٠٠ - ٤٠١.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٧٣٩ - ٧٤٠.

عمرو محصوراً. ثمّ اقتتلوا وانهزم عمرو وتسرّب من بعض المسالك عن أصحابه، فوجد في أجمة وأخذ أسيراً. وبعث به اسماعيل إلى سَمَرقند ومن هناك إلى المعتضد سنة ثمان وثمانين، فحبسه إلى أن مات المعتضد سنة تسع بعدها فقتله ابنه المكتفي. وعقد لإسماعيل على خراسان كما كانت لعمرو».

تقييم:

نلاحظ من هذه الحادثة أن الخليفة في العصر العباسي الثاني درج على مسايرة الأمر الواقع وتولية الأقوى. فالمعتضد كان قد ولّى ما وراء النهر، علاوة على خراسان، إلى عمرو بن الليث الذي خاض حرباً مع والي النهر لتسلّمها، لكنه فشل وتغلّب عليه خصمه.

حيال هذا الواقع اعترف الخليفة بالوالي العاصي الذي رفض تسليم ما وراء النهر للوالي الذي عينه الخليفة نفسه، وزاد له في العطاء إذ أضاف إلى ولايته خراسان أيضاً. وهذا ما يظهر تراجع هيبة الخلافة ورضوخها للأقوياء من ولاتها.

١٠ - مقتل محمد بن زيد العلوي وقيام الدولة السامانية

في السنة نفسها قتل محمد بن زيد العلوي صاحب طبرستان والديلم. وكان محمد قد خرج من طبرستان للسيطرة على خراسان بعد مقتل عاملها عمرو بن الليث، ظناً منه أن إسماعيل الساماني لا يريدها لنفسه. فلما وصل جرجان طلب الساماني منه أن لا يتجاوزها ولا يقصد خراسان، فأبى ذلك.[١]

أرسل إسماعيل الساماني جيشاً كبيراً بقيادة محمد بن هارون فيه عدد كبير من الفرسان، فسار إلى جرجان حيث التقى بمحمد بن زيد فجرى قتال شديد هزم فيه أولاً ابن هارون.[٢]

بعد هذه المعركة تفرّقت عساكر محمد بن زيد للنهب، فرجع ابن هارون مع أصحابه،

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٣٥.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٧٤٠.

فانهزم جند ابن زيد الذي جرح جراحاً بالغة في القتال وأُسر ابنه زيد. ثمّ توفي ابن زيد بعد أيام عدة.(١)

أما ابن هارون فسار إلى طبرستان فملكها والحقها بولاية بني سامان عمال خراسان.

وهكذا قامت الدولة السامانية التي دامت حتى السنة إحدى وثمانين وثلاثمائة في بعض ولايات ما وراء النهر.

١١ - معارك في صقلية

كان أمير أفريقيا إبراهيم بن الأغلب قد عيّن ابنه أبا العباس على صقلية فقصدها في مائة وعشرين مركباً وحاصر طرابلس. واتصل خبره بعسكر المسلمين بمدينة بالرم، وكانوا يقاتلون أهل جرجنت فعادوا إلى بالرم وأرسلوا جماعة من شيوخهم لمراضاته بسبب قتالهم جرجنت.(٢)

لكن أهل جرجنت ألّبوه عليهم، فاجتمع أهل بالرم وساروا إليه في البرّ يواكبهم أسطول بحري من ثلاثين سفينة. لكن هيجان البحر حطم السفن، فتابع جيش البر وحده حتى وصل إليه، وهو يحاصر طرابلس، فاقتتل الخصمان أشد قتال، فقتل من الفريقين جمع كبير. ثمّ افترقا، ثمّ عادا للقتال، فانهزم أهل بالرم وتبعهم أبو العباس إلى مدينتهم براً وبحراً حيث جرى قتال حول المدينة فهزم أهلها مجدداً، ووقع القتل فيهم.

وسيطر أبو العباس على أرباض بالرم التي نهبت أموالها وهرب قسم من أهلها إلى طبرمين، ومنهم من فرّ إلى القسطنطينيّة. ودخل أبو العباس المدينة وأمَّن أهلها وأخذ جماعة من وجوههم فوجههم إلى أبيه في أفريقيا. ثمّ رحل إلى طبرمين فقطع كرومها وقاتل أهلها. ثمّ سار إلى قطانية فحصرها فلم ينل منها غرضاً. ثمّ سار في السنة الثامنة والثمانين والمائتين وحاصر مدينة رِيو التي اجتمع فيها كثير من الروم، فملكها بالسيف وهدم سورها وأخذ منها ثلاثين مركباً محملاً بالعتاد والأموال.(٣)

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٩٠.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤٠٤.

(٣) المرجع نفسه، ص ٤٠٥.

١٢ - وفاة المعتضد

كانت وفاة المعتضد لأربع ساعات خلت من ليلة الإثنين لثمانٍ بقين من ربيع الآخر السنة تسع وثمانين ومائتين في مدينة السلام. وقيل إن وفاته كانت بالسمّ من منديل أعطته إياه إحدى جواريه. وكان قد أوصى أن يدفن في دار محمد بن عبد الله بن طاهر في الجانب الغربي من الدار المعروفة بدار الرخام، فحمل إليها ودفن بها.[١]

١٣ - الدروس والعِبَر والنتائج

أ - عندما خرج رافع بن هرثمة على الخلافة، اضطر للقتال ضد أعداء ثلاثة، فخسر معركته وقتل. لم يحسن رافع تقدير ميزان القوى بينه وبين أخصامه مُخلاً بمبدأ الحرب الأول.

فالقائد الناجح لا يبدأ معركة إذا كان متأكداً من خسارتها.

ب - أثناء المعركة بين هارون ومحمد بن عبادة الخارجيين، كاد القتال أن يُحسم لمصلحة محمد. لكن ثبات مفرزة من جند هارون وقيامها بشن هجوم صاعق على ميمنة خصمه أعاد كفّة النصر إلى جانبه.

فالحرب هي «صراع إرادات»، ينتصر فيها من يكون أكثر ثباتاً وتصميماً على الربح.

ج - درج الخليفة المعتضد على تسيير الحملات لإخضاع الخارجين عن سلطته وإعادتهم إلى الطاعة، وعلى قيادتها بنفسه أحياناً. هذه الاستراتيجية أمّنت له السيطرة الفعلية على غالبية ولايات خلافته. لقد كان مصمماً على عدم تُرك الأمور العسكرية تتفاعل إذ كان يعالجها تباعاً. وفي ذلك سياسة حكيمة وعاقلة لخليفة ناجح عسكرياً.

وبالفعل، عاد كثيرون إلى الخضوع له دون قتال بعد أن لمسوا تصميمه على مواجهتهم.

د - وعندما خرج عليه وصيف الخادم بالتواطؤ مع مولاه محمد بن أبي الساج، لم يعترف المعتضد بالأمر الواقع بل قرّر المجابهة وسار بنفسه على رأس جيش كبير لقتال

(١) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٣٠٨.

وصيف بعد أن أُبلغ بواسطة جواسيسه عن مكانه، فقصده وقاتله وهزمه.

ثمّ لاحق جميع رؤساء عشائر طوطوس الذين دعموا وصيفاً، فأحرق مراكبهم الذي كانوا يستخدمونها في شن الغارات على أملاكه، فأحسن تطبيق قواعد الشدّة والاستمرارية واستغلال النصر، وكلّها عوامل ساهمت في نصره النهائي.

هـ - أثناء القتال بين محمد بن هارون ومحمد بن زيد في خراسان، هزم الأول في البدء لكن مقاتلي ابن زيد تفرّقوا في البلاد للنهب والسلب، فعاد ابن هارون للقتال وانتصر على غريمه.

لذلك نري أن انضباط المقاتلين أثناء القتال وبعده هو من الأسباب التي تساهم في تأمين النصر، إذ إن قوّة الجيش تكمن في تماسكه وانضباطه وتعلّقه بقائده وتقيّده بأوامره وتعليماته.

و - سار أهل بالرم[1] براً وبحراً لقتال ابن الأغلب الذي كان يحاصر طرابلس[1]، لكن عاصفة بحرية حطّمت سفنهم. أكمل جيش البر المهمة منفرداً، فجرى قتال غير متكافىء بينه وبين ابن الأغلب الذي انتصر وملك بالرم فهرب أهلها منها.

لقد أُجبر أهل بالرم على التصدّي بجيش بري لجيش يملك وحدات برية وبحرية، فخالفوا بذلك مبدأيْ الحرب الأول (نسبية الأهداف للوسائل) والثاني (حرية العمل)، وهزموا.

---

(١) في صقلية.

ملحق رقم ٤

القتال ضد الروم في عهد المعتضد

في السنة الحادية والثمانين والمائتين غزا الصائفة طفج بن جُف من قبل خمارويه بن أحمد بن طولون فبلغ طرابزون وفتح ملورية.(١) وفي السنة نفسها غزا المسلمون بلاد الروم فدامت الحرب اثنتي عشر يوماً، ظفر بها المسلمون وغنموا غنائم كثيرة.(٢)

وفي السنة الثالثة والثمانين والمائتين جرى فداء الأسرى بين المسلمين والروم، فكان مجموع من فُدي به من المسلمين ألفين وخمسمائة وأربعة أنفس من الرجال والنساء والأولاد.(٣)

وفي السنة نفسها حاصر الصقالبة الروم في القسطنطينية، فاستعان الإمبراطور البيزنطي بمن عنده من أسرى المسلمين وأعطاهم سلاحاً كثيراً فخرجوا مع الروم وهزموا الصقالبة. ثمّ خاف ملك الروم من خطر أولئك المسلمين ففرّقتهم في البلاد.(٤)

وفي السنة الخامسة والثمانين والمائتين غزا راغب مولى الموفّق في البحر فغنم مراكب كثيرة، وضرب أعناق ثلاثة آلاف من الروم كانوا فيها، ثمّ أحرق المراكب. وفتح حصوناً كثيرة.(٥)

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٠٨.
ملورية - في ابن الأثير «بلودية».
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٧٨.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٧٩ - ٨٠.
(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦١٤.
(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٣٩٤ - ٣٩٥.

وفي السنة السابعة والثمانين والمائتين اجتمعت الروم وحشدت حشودها وقصدت باب قلمية في طرطوس. هرب أميرها أبو ثابت، وكان عليها بعد موت الإخشيد، فبلغ نهر الريحان حيث لاحقه الروم وأسروه وأُصيب عدد كبير من جنده.(١)

وفي السنة نفسها حاصر أبو العباس بن إبراهيم بن الأغلب صاحب أفريقيا مدينة ريو بصقلية التي اجتمع فيها الروم، فنصب المجانيق عليها وقاتل أهلها فهزمهم وملك المدينة عنوة؛ وغنم من الذهب والفضة الشيء الكثير وشحن المراكب بالدقيق والأمتعة.(٢)

وفي السنة الثامنة والثمانين والمائتين قاد الصائفة القائد نزار محمد ففتح حصوناً كثيرة للروم وعاد ومعه أسراهم. ثمّ سار الروم في البر والبحر إلى ناحية كيسوم، فأخذوا من المسلمين أكثر من خمسة عشر ألفاً من الرجال والنساء والصبيان.(٣)

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٨٩.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤٠٥.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٣٧.



الفصل الثامن

العمليات العسكرية في عهد المكتفي

بويع المكتفي بالله علي بن أحمد المعتضد في مدينة السلام في اليوم الذي توفي فيه والده المعتضد السنة تسع وثمانين ومائتين، وأخذ له البيعة القاسم بن عبيد الله. وللمكتفي يومذاك نيف وعشرون عاماً، ويكنّى بأبي أحمد.(١)

كانت الدولة العباسية قد عرفت مع المعتمد وأخيه الموفق الذي سيطر في عهده، وابنه المعتضد، مرحلة ازدهار وانتعاش. إلاّ أن بوادر الضعف بدأت تظهر عليها مع المكتفي، لاسيما أن التنافس على الحكم من قبل ذوي النفوذ اشتدّ، مما ترك أثراً سيئاً في أحوال الخلافة.

وهذا ما شجع القرامطة على التحرك ونشر الفساد، فراحوا يزيدون التخريب في الشام والبحرين والعراق وطريق مكّة بزعامة ابن زكرويه الملقب بـ«الشيخ». وأنزل القرامطة هزيمة بقوات الطولونيين، فاشتدّ خطرهم في الشام بزعامة الحسين بن زكرويه الذي لقب نفسه بـ«أمير المؤمنين»، والذي أكثر من أعمال القتل، ممّا حرّك المكتفي الذي شنّ حملة على بلاد الشام فقبض على الحسين مع عدد كبير من رجاله.

تحرّك بعد ذلك والد الحسين زكرويه وراح يغير على البصرة وأطراف الشام على رأس جماعات من أعراب البادية، مرتكباً كثيراً من أعمال العنف. كما أغار القرامطة على قوافل الحجاج الخراسانيين والعراقيين العائدين من مكّة المكرمة فنهبوا أموالهم وأقواتهم وثيابهم.

---

(١) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٣٠٩.

كـلّ هـذه الأحـداث خـلـقت أجـواء مشحونة، ممّا دفع الخلافة العباسية إلى جمع جيـوش كـبيرة وإرسـالـهـا لمحاربـة القـرامطة، فتمكّنت من قتل زعيمهم زكرويه السنة ٢٩٤هـ.

أما العلاقات مع بيزنطية في عهد المكتفي، فقد سادتها أحياناً أجواء مشحونة، وأحياناً أخرى أجواء مريحة، فجرى تبادل للأسرى مرتين في هذا العهد.

كلّ ذلك سنفصله في هذا الفصل.

١ - مقتل القائد بدر مولى المعتضد

في السنة التاسعة والثمانين والمائتين قتل القائد بدر بأمر من الوزير القاسم.

والسبب في ذلك أن القاسم كان قد عزم على صرف الخلافة عن أولاد المعتضد خلال خلافة هذا الأخير، واستشار بدراً في الأمر فقال بدر: «ما كنت لأصرفها عن ولد مولاي وولي نعمتي».[١] ولم يتمكّن الوزير من مخالفة بدر كونه كان قائداً للجيش والمطاع في خدمه وغلمانه. لذلك حقد القاسم على بدر.

فلمّا مات المعتضد وعقدت البيعة للمكتفي، رغب القاسم في هلاك بدر خوفاً من أن يذكر ما كان منه للمكتفي الذي كان أيضاً مباعداً لبدر في حياة أبيه. لذلك استدعى الخليفة القواد، الذين كان بدر يأمرهم، من بلاد فارس حيث كان بدر متمركزاً مع جيشه ففارقته جماعة منهم، فأحسن إليهم الخليفة. ومنهم العباس بن عمرو الغنوي ومحمد بن كنداج وخاقان المفلحي وغيرهم.[٢]

وسار بدر إلى واسط فوكّل المكتفي أحداً بداره، وقبض على أصحابه وقواده وحبسهم وأمر بمحو اسمه من التروس والأعلام. وسيّر القائد الحسين بن علي في جيش إلى واسط، وأرسل يعرض على بدر أي النواحي شاء، فأبى ذلك، وقال: «لا بدّ لي من المسير إلى باب مولاي».[٣]

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٠٢.
(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٣٩ - ٦٤٠.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤٢٣.

وهكذا وجد القاسم في هذا الكلام مسوغاً لتخويف المكتفي من بدر الذي كان قد بلغه ما فعل الخليفة بداره وأصحابه.

ثمّ دعا الوزير القاسم أبا عمر القاضي وأعطاه كتاب أمان لبدر وسيّره إليه، فسار بدر من واسط إلى بغداد، فأرسل إليه الوزير من قتله.(١)

وهكذا انتهت حياة هذا القائد الذي قدّم للدولة العباسية أبرز الخدمات خلال خلافة المعتضد.

٢ - القتال ضد القرامطة

في السنة تسعين ومائتين سيّر طغج بن جف جيشاً من دمشق إلى القرمطي بقيادة مولاه بشير، فهزم القرمطي الجيش وقتل بشيراً. ثمّ حاصر القرمطي دمشق وضيّق على أهلها وقتل أصحاب طغج، وأشرف أهلها على الهلاك.(٢)

عند هذا الحد أمدّ المصريون من آل طولون أهل دمشق بقوات عسكرية، فقاتلوا الشيخ مُقدّم القرامطة على باب دمشق فقتل مع عدد كبير من جنده. فاجتمع من بقي من جنده على أخيه الحُسين الذي سمّى نفسه أحمد ولُقِّب بأبي العباس ودعا الأعراب إليه فأجابه أكثر أهل البوادي فاشتدّت شوكته. سار أبو العباس إلى دمشق وصالح أهلها على خراج دفعوه له فانصرف عنها.(٣)

ثمّ سار أبو العباس القرمطي إلى حمص فغلب عليها وخطب له على منابرها وتسمى «المهدي أمير المؤمنين». وبعد حمص سار إلى حماة ومعرّة النعمان وغيرهما فقتل أهلها حتى النساء والصبيان منهم. ثمّ سار إلى بعلبك فقتل عامة أهلها، وسار بعدها إلى سلمية فمنعه أهلها فصالحهم وأمّنهم ففتحوا له بابها فقتل الكثير منهم.(٤)

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٧٤٥.
(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٤٤.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٠٣.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤١٨.

ثمّ سار إلى القرى المجاورة وراح يقتل ويسبي ويروّع عابري السبيل.

ثمّ كتب أهل الشام ومصر إلى الخليفة المكتفي يشكون إليه ما يلقون من القرامطة من القتل والسبي. تجاوب الخليفة مع هذه الشكوى وقام بإرسال جند لقتال القرامطة، كتب عنهم الطبري ما يلي:(١)

«لليلتين خلتا من رمضان من السنة التسعين والمائتين أمر المكتفي بإعطاء الجند أرزاقهم والتأهب للشخوص لحرب القرمطي بناحية الشام. ولخمس خلون من سهر رمضان، أُخرجت مضارب المكتفي فضربت بباب الشماسية.

«ولسبع خلوْن منه خرج المكتفي في السّحر إلى مضربه بباب الشّماسية، ومعه قواده وغلمانه وجيوشه.

ولاثنتي عشرة ليلة من شهر رمضان، رحل المكتفي من مضربه بباب الشماسيّة في السَّحر، وسلك طريق الموصل.

وللنصف من شهر رمضان منها مضى أبو الأغرّ إلى حلب، فنزل وادي بُطنان قريباً من حلب، ونزل معه جميع أصحابه، فنزع - فيما ذُكر - جماعة من أصحابه ثيابهم، ودخلوا الوادي يتبرّدون بمائه، وكان يوماً شديد الحرّ. فبينما هم كذلك إذ وافى جيش القرمطيّ المعروف بصاحب الشامة، وقد بدرهم المعروف بالمطوّق، فكبّسهم على تلك الحال، فقتل منهم خلقاً كثيراً وانتهب العسكر. وأفلت أبو الأغرّ في جماعة من أصحابه، فدخل حلب، وأفلت معه مقدار ألف رجل، وكان في عشرة آلاف بين فارس وراجل. وكان قد ضُمّ إليه جماعة ممّن كان على باب السلطان من قوّاد الفراغنة ورجالهم، فلم يفلت منهم إلاّ اليسير. ثمّ صار أصحاب القرمطيّ إلى باب حلب، فحاربهم أبو الأغر ومن بقي معه من أصحابه وأهل البلد، فانصرفوا عنه بما أخذوا من عسكره من الكراع والسلاح والأموال والأمتعة بعد حرب كانت بينهم. ومضى المكتفي بمن معه من الجيش حتى انتهى إلى الرقّة، فنزلها، وسرّح الجيوش إلى القرمطيّ جيشاً بعد جيش.

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٤٧ - ٦٤٨.

وللیلتین خلتا من شوّال ورد مدینة السلام کتاب من القاسم بن عبید الله، یخبر فیه أن کتاباً ورد علیه من دمشق من بدر الحماميّ صاحب ابن طولون، یخبر فیه أنه واقع القرمطيّ صاحب الشامة، فهزمه ووضع في أصحابه السیف؛ ومضی مَن أفلت منهم نحو البادیة، وأنّ أمیر المؤمنین وجّه في أثره الحسین بن حمدان بن حمدون وغیره من القوّاد.

وورد أیضاً في هذه الأیام - فیما ذکر - کتاب من البحرین من أمیرها ابن بانوا، یذکر فیه أنه کبسَ حصناً للقرامطة، فظفر بمن فیه».

وفي السنة الحادیة والتسعین والمائتین ولّی المکتفي محمداً بن سلیمان الکاتب حرب القرامطة وقائدهم صاحب الشامة. فسار إلیه في جیش الخلیفة حتی بلغه في مکان قرب حماة، حیث جرت معرکة بینهما لخّصها ابن الأثیر، کما کتب عن نهایة ابن زکرویه ذي الشامة ما یلي:[1]

«فقدّم القرمطي أصحابه إلیهم وبقي في جماعة من أصحابه معه مال کان جمعه وسواد عسکره. والتحمت الحرب بین أصحاب الخلیفة والقرامطة، واشتدّت وانهزمت القرامطة وقُتلوا کلّ قتلة، وأُسر من رجالهم بشر کثیر، وتفرّق الباقون في البوادي، وتبعهم أصحاب الخلیفة. فلمّا رأی صاحب الشّامة ما نزل بأصحابه، حمّل أخاً له یکنی أبا الفضل مالاً وأمره أن یلحق بالبوادي إلی أن یظهر بمکان فیسیر إلیه. ورکب هو وابن عمّه المسمّی بالمدثر، والمطوّق صاحبه، وغلام له رومي وأُخذ دلیلاً، وسار یرید الکوفة، عرضاً في البریة. فانتهی إلی الدالیة من أعمال الفرات، وقد نفذ ما معهم من الزّاد والعلف. فوجّه بعض أصحابه إلی الدالیة المعروفة بابن طوق، لیشتري لهم ما یحتاجون إلیه، فأنکروا رأیه[2] فسألوه عن حاله فکتمه. فرفعوه إلی متولّي تلك الناحیة خلیفة أحمد بن محمد بن کشمرد، فسأله عن خبره فأعلمه أن صاحب الشامة خلف

(١) ابن الأثیر، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤٢١.

(٢) في الطبري: انکروا زیّه، ولعله الصواب.

رابيـة هنـاك مع ثلاث نفر، فمضـى إليـهم، وأخذهم وأحضرهم عند ابن كشمرد. فوجّه بهم إلى المكتفي بالرّقة ورجعت الجيوش من الطلب بعد أن قتلوا وأسروا».

وسار المكتفي من الرقة إلى بغداد، ومعه صاحب الشامة وأصحابه فأمر بحبسهم، ثمّ أمر بقطع أيديهم وأرجلهم وضرب أعناقهم.

تفاصيل القتال:

أما تفاصيل القتال الذي جرى بين جيش الخليفة وجيش القرامطة والذي انتهى بهزيمتهم فنلخّصه في المراحل التالية:(١)

* لمّا بدأ القتال افترق القرامطة ستة كراديس، وجعلوا على ميسرتهم مسروراً العليصي في ألف وخمسمائة فارس، وكمنوا كميناً في أربعمائة فارس خلف ميسرتهم مقابل ميمنة جيش الخليفة.

* جعلوا في القلب النعمان العليصي في ألف وأربعمائة فارس وثلاثة آلاف راجل، وفي ميمنتهم كليباً العليصي وجماعة من نظرائهم في ألف وأربعمائة فارس، وكمنوا في مائتي فارس.

* سار جيش الخليفة بقيادة محمد بن سليمان نحو القرامطة متجمّعاً.

* حملت كراديس ميسرة القرامطة على ميمنة ابن سليمان فتلقاهم الحسين بن حمدان قائد هذه الميمنة بالرماح فكسرت في صدورهم.

* استأنف القرامطة الهجوم على الميمنة التي يقودها الحسين بن حمدان فاعترضهم مقاتلوها بالسيوف، فصرع من القرامطة ستمائة فارس في أول وقعة. وأخذ أصحاب الحسين خمسمائة فرس وأربعمائة طوق فضة. وولّى القرامطة مدبرين فتبعهم الحسين، فعادوا عليه فتقاتلوا مجدداً إلى أن قُتلت أكثريتهم ولم يبق سوى مائتي رجل.

* ثمّ حملت ميمنة القرامطة على ميسرة جيش الخليفة التي يقودها القاسم بن سيما ويُمن الخادم ومعهما بنو شيبان وبنو تميم الذين استقبلوهم بالرماح

---

(١) في الطبري: انكروا زيّه، ولعلّه الصواب.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٥٢.

فكسروها فيهم فقُتل من القرامطة عدد كبير من الجند.

وتبع بنو شيبان وتميم ميمنة القرامطة فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، واستولوا على ستمائة فرس ومائتي طوق فضة.

* ثمّ زحف قلب جيش القرامطة بقيادة النعمان على قلب جيش الخليفة بقيادة محمد بن سليمان الذي حمل عليهم بالقلب والميمنة فانهزم القرامطة فلاحقهم محمد بن سليمان مسافة خمسة أميال فقتل منهم جمعاً كثيراً.

وهكذا تمّ النصر لجيش الخليفة.

٣ – ردّ غارة الأتراك على ما وراء النهر

في السنة الحادية والتسعين والمائتين أغار الترك في جيش عظيم على بلاد ما وراء النهر، وكان عاملها إسماعيل بن أحمد من خراسان.(١) وكانت في عسكر الترك سبعمائة قبة تركية لا تكون إلاّ للرؤساء منهم.(٢)

وجّه إليهم إسماعيل بن أحمد جيشاً كبيراً بعد أن نودي في الناس بالنفير فخرج من المطّوعة ناس كثيرون، فسار الجميع نحو الترك وهم نائمون، فباغتوهم مع الصباح، فقتلوو منهم خلقاً عظيماً وانهزم الباقون. واستبيح معسكرهم، وعاد المسلمون غانمين.(٣)

٤ – استيلاء المكتفي على مصر وانقراض الدولة الطولونية

في السنة الثانية والتسعين والمائتين سار القائد محمد بن سليمان إلى مصر، يواكبه دميانة غلام بازيار في أسطول كبير، ليدخلا من فوهة النيل ويحاصرا مصر.

وكان محمد قد انتهى من مقاتلة القرامطة وعزم على العودة إلى بغداد، لمّا وافاه كتاب بدو الحمامي غلام هارون بن خمارويه بن

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٠٥.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤٢٣.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٥٥.

أحمد بن طولون، وكتب القائد محمد فائق، وهما في دمشق، يدعوانه إلى مصر لتسلمها بسبب عجز ابن خمارويه.(١)

فلمّا وصل إلى بغداد أعلم المكتفي بالأمر، فأمره بالتوجّه إلى مصر وسيّر معه الجنود والأموال والأسطول الذي سبَق الحديث عنه والذي كانت مهمته محاصرة مصر من البحر وقطع مواد التموين عنها والتضييق على أهلها.(٢)

زحف محمد بن سليمان في الجيوش البرية التي بلغ عديدها عشرة آلاف مقاتل، وفق ابن كثير.(٣) فلمّا دنا منها كاتب من بها من القواد فالتحق به رئيسهم بدر الحمامي، ثمّ تتابع التحاقهم به.

أما الأسطول فسار بقيادة دميانة حتى دخل النيل، ووصل إلى الجسر حيث أقام، وقطع التموين عن مصر وضيّق على أهلها.(٤)

فلمّا رأى هارون ذلك خرج في من معه لقتال محمد بن سليمان فجرت بينهما وقعات عديدة. ثمّ اختلف أصحاب هارون واقتتلوا، فخرج هارون ليسكّنهم، فرماه بعض المغاربة برمح وقتله.

وبعد مقتله تسلّم عمّه شيبان قيادة الجند، فجرى قتال بينه وبين محمد بن سليمان. ثمّ أرسل بدر الحمامي كتباً إلى الجند يدعوهم إلى الأمان، فأجابوه إلى ذلك. ثمّ أرسل إليه شيبان مستأمناً فأمّنه.(٥)

ولمّا بلغ الخبر محمداً بن سليمان، دخل ومن معه الفسطاط، واستولى على دور آل طولون وأسرهم جميعاً، وكانوا بضعة عشر رجلاً، فقيّدهم وحبسهم وصادر أملاكهم وأموالهم. وكتب بالفتح إلى المكتفي الذي أمره بإرسال آل طولون إليه، ففعل.(٦)

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٧٤٧.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٠٦.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٥٧.

(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٧٤٧.

(٦) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٧٤٧ - ٧٤٨.

وهكذا زالت الدولة الطولونية من الساحة العربية والإسلامية بعد أن تمتعت بالاستقلال الذاتي مدّة أربعين سنة، وعادت مصر إلى حكم العباسيين.

٥ – قيام الدولة الحمدانية

في السنة الثالثة والتسعين والمائتين ولّى المكتفي الموصل وأعمالها أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون العدوي، فقدمها في أول محرم. ثمّ علم أن الأكراد الهذيانية قد أغاروا على نينوى بقيادة محمد بن بلال وغنموا كثيراً منها، فسار فوراً وعبر الجسر في عساكره إلى الجانب الشرقي فلقي الأكراد فقاتلهم وقتل من قواده سليمان الحمداني وذلك بالمعروبة على الخازر. ثمّ عاد عنهم وكتب إلى الخليفة يطلب النجدة التي وافته بعد شهور.[١]

في السنة التالية، وبعد وصول النجدة، سار أبو الهيجاء إلى الأكراد الذين كانوا قد اجتمعوا في خمسة آلاف بيت، فارتحلوا أمامه واعتصموا بجبل السلق[٢] وامتنعوا فيه فحاصرهم. ثمّ جاءه مقدمهم محمد بن بلاد يستأمنه على أن يترك أولاده رهينة لديه، فيما حثّ أصحابه على المسير نحو أذربيجان. وقد استأمن خدعة ليترك المجال للأكراد للسير من دون أن يدركهم أبو الهيجاء.[٣] لكن أبا الهيجاء سار في أثرهم، وقد تعلّقوا بالجبل المعروف بالقنديل، فهاجمهم وقتل منهم جماعة، فصعدوا إلى ذروة الجبل. انصرف ابن حمدان عنهم فانصرف الأكراد إلى أذربيجان.

نقل ابن الأثير نهاية الرواية، فكتب:[٤]

«وأنهى ابن حمدان ما كان من حالهم إلى الخليفة والوزير، فأنجدوه بجماعةٍ صالحة. وعاد إلى الموصل، فجمع رجاله وسار إلى

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤٢٦.
(٢) هو مضيق في جبل عالٍ مشرف على شهرزور.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء٦ ، ص ٧٤٩.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤٢٦ – ٤٢٧.

جبل السّلق، وفيه محمد بن بلال ومعه الأكراد فدخله حمدان والجواسيس بين يديه خوفاً من كمين يكون فيه. وتقدّم من بين يدي أصحابه، وهم يتبعونه فلم يتخلّف منهم أحد، وجاوزوا الجبل وقاربوا الأكراد. وسقط عليهم الثلج، واشتدّ البرد وقلّت الميرة والعلف عندهم، وأقام على ذلك عشرة أيام. وبلغ الحمل التبن ثلاثين درهماً، ثمّ عدم عندهم وهو صابر. فلمّا رأى الأكراد صبرهم وأنهم لا حيلة لهم في دفعهم، لجأ محمد بن بلال وأولاده، ومن لحق به، واستولى ابن حمدان على بيوتهم، وسوادهم وأهليهم وأموالهم. وطلبوا الأمان فأمّنهم وأبقى عليهم وردّهم إلى بلدٍ حرة. وردّ عليهم أموالهم، وأهليهم، ولم يقتل منهم غير رجل واحد، وهو الذي قتل صاحبه سيما الحمداني. وأمّنت البلاد معه وأحسن السيرة في أهلها. ثمّ أن محمد بن بلاد طلب الأمان من ابن حمدان، فأمّنه، وحضر عنده وأقام بالموصل. وتتابع الأكراد الحميدية وأهل جبل داسن إليه بالأمان، فأمنت البلاد واستقامت».

هذه الاستعانة بالحمدانيين في ضبط أمور الموصل كانت أولى أعمالهم لمصلحة الخلافة العباسية التي كافأتهم بتكليف أبي الهيجاء شؤون الموصل وما يليها، وتولية أخيه إبراهيم ديار ربيعة السنة ٣٠٧هـ، وأخيه سعيد نهاوند السنة ٣١٢هـ.

وتكرّرت الاستعانة بالحمدانيين لإعادة الأمور إلى مجراها الطبيعي في بغداد، بعدما خرج البريديون على الخليفة المتقي لله. لبّى الحسين بن حمدان طلب الخليفة وكلّف أخاه علياً مساندته، وكافأه الخليفة بلقب «ناصر الدولة» وكافأ أخاه بلقب «سيف الدولة» السنة ٣٣٠هـ. وسيف الدولة هو الذي قامت في عهده الدولة الحمدانية، وهذا ما سنفصّله لاحقاً.

٦ - إخضاع الخلنجي[1] في مصر

في السنة الثالثة والتسعين والمائتين ظهر رجل في مصر يقال له الخلنجي أو الخليجي:

(١) في الطبري وابن خلدون: الخليجي.

فخلع طاعة الخليفة واجتمعت إليه طائفة من الجند وعظم أمره.(١)

أمر الخليفة أحمد بن كيغلغ نائب دمشق وأعمالها بالتوجّه إليه وإخضاعه، فسار أحمد إليه واقتتلا في ظاهر مصر فهزمه الخلنجي هزيمة منكرة.(٢)

ولّما وصلت أخبار الهزيمة إلى الخليفة المكتفي خرج إلى باب الشماسية تمهيداً للسير إلى مصر، فورده كتاب من القائد فاتك يخبره فيه أنه زحف والقواد إلى الخلنجي فكانت بينهم حروب كثيرة؛ وأن آخر قتال جرى بينهم وبينه قتل فيه أكثر أصحابه وانهزم الباقون فظفر فاتك بهم واحتوى على معسكرهم. فهرب الخلنجي ودخل الفسطاط واستتر بها عند رجل من أهل البلد. ودخل جيش الخليفة الفسطاط فدلهم الأدلاّء على الخلنجي وعلى من استتر معه ممن شايعه فقبضوا عليهم وحبسوهم. كتب الخليفة إلى فاتك يأمره بإرسال الخلنجي إليه فوجهه إليه مع الذين أسروا معه فأمر المكتفي بسجنهم.(٣)

٧ – القتال ضد القرامطة

بعد مقتل صاحب الشامة كلّف زكرويه بن مهرويه رجلاً يسمّى عبد الله بن سعيد، وسمّاه نصراً، بمتابعة الأعمال الحربية للقرامطة، فدار على أحياء العرب يدعوهم إلى رأي القرامطة فلم يقبله منهم سوى صعاليك من سائر بطون كلب.(٤)

وقام عبد الله بن سعيد أو نصر بالأعمال العسكرية التالية:(٥)

* سار إلى بصرى وأذرعات والبثينة فحارب أهلها ثمّ أمّنهم. فلما استسلموا إليه قتل مقاتليهم وسبى ذراريهم وأخذ أموالهم.
* سار إلى دمشق فمنعه أهلها عنها.

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٠٧.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤٢٧.
(٣) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٦٣ - ٦٦٤.
(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء١ ١، ص ١٠٧.
(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤٢٨ - ٤٣٠.

* قصد طبرية والتحقت به جماعة من جنود دمشق أعجبوا به، فواقعهم خليفة أحمد ابن كيغلغ على دمشق، واسمه يوسف بن إبراهيم، بالأردن، فهزموه. ثمّ بذلوا له ولجنده الأمان، وغدروا به بعدها فقتلوه ونهبوا طبرية وقتلوا خلقاً كثيراً من أهلها وسبوا النساء منها.

* أرسل الخليفة الحسين بن حمدان وجماعة من القواد في طلبهم فقصدوا دمشق. ولما علم القرامطة بأمرهم انسحبوا إلى السماوة وراحوا ينتقلون في المياه ويغوّرونها حتى لجأوا إلى ماءين، بالدمعانة والحبالة[1]، فلم يلاحقهم ابن حمدان بل عاد إلى الرحبة.

* قصد القرامطة إلى هيت وأهلها غافلون فنهبوا ربضها[2] وسفنها وقتلوا من أهلها مائتي نفس ونهبوا الأموال والمتاع.

* بلغ خبرهم الخليفة فسيّر محمداً بن إسحاق بن كنداج، فعادوا إلى الماءين فلاحقهم وكتب إلى الحسين بن حمدان بالمسير إليهم من جهة الرّحبة ليجتمعا معاً على الإيقاع بهم، ففعل. فلما أحسّ الكلبيون بإقبال الجيش إليهم وثبوا بنصر فقتلوه؛ وكان يقال للذي قتله «الذئب»، فحمل رأسه إلى المكتفي فأُجيز بجائزة سنية وأُمر بالكف عن قتال قومه.

* اقتتل القرامطة بعد موت نصر في ما بينهم فجرت معارك قوية. ثمّ استأمَن قسم منهم إلى الخليفة فأمّنهم، وبقي على الماءين قسم آخر فقصدهم ابن حمدان.

* ثمّ أرسل لهم ذكرويه بن مهروية داعية جديداً هو القاسم بن أحمد وأمرهم بالمسير إلى الكوفة، فساروا إليها ووصلوها في ثمانمائة فارس عليهم الدروع والجواشن. وأرادوا استمالة رعاع الناس في الكوفة فلم يستجب لهم أحد، فهاجموا المدينة وقتلوا نحواً من عشرين نفساً. فتصدّى لهم أهلها وأخذوا السلاح فقتلوا عشرين فارساً من القرامطة الذين دخلوا بغداد. وكان الذي يقود أهل الكوفة إسحاق بن كنداج الذي استمدّ الخليفة فأمدّه بجماعة من قواده.

(١) الدمعانة ماء لبني بحر الكلبيين - والحبالة: موضع في ديار بلقين بين المدينة والشام.

(٢) الربض أي الضاحية.

* لاحق إسحاق القرامطة إلى القادسية وكانوا قد التحقوا بذكرويه فحملوه وسجدوا له وحضر معه جماعة من دعاته وخاصته.

والتقى الجيشان بالصوّان في سقي الفرات حيث جرى قتال شديد فوقعت الهزيمة أول النهار على القرامطة. لكن زكرويه كان قد وضع كميناً خلف جند الخليفة الذين لم يشعروا إلاّ والسيف فيهم من ورائهم، فانهزموا أقبح هزيمة.

ووضع القرامطة السيف فيهم فقتلوا أكثرهم ولم يسلم من جند الخليفة إلاّ من كانت دابته قوية أو من أثخن بالجراح فوضع نفسه بين القتلى. وصادر القرامطة أموال وعتاد جيش الخليفة الذي قُتل منه ألف وخمسمائة رجل.

* ولمّا علم الخليفة بهزيمة جنده ندب إلى القرامطة محمداً بن إسحاق بن كنداج وضمّ إليه الأعراب من بني شيبان وغيرهم في أكثر من ألفي مقاتل.

* رحل زكرويه من مكانه إلى نهر المثنية، حيث حاصر أهل واقصة أياماً ثمّ ارتحل عنهم. ثمّ اعترض القرامطة قافلة الخراسانية بعقبة الشيطان عائدة من مكّة فحاربوها حرباً شديدة أوقعوا في نهايتها بالقافلة وقتلوا كلّ من فيها.

* ثمّ اعترض القرامطة قافلة ثانية فقتلوا من فيها وسبوا النساء واستولوا على الأعتدة والأموال.[١] ومن بين ما استولوا عليه ذهب الطولونية الذي كانوا قد جعلوه سبائل واصطحبوه مع هذه القافلة.

٨ – مقتل زكرويه

بعد تعرّض زكرويه لقوافل الحجاج عظم ذلك عند الخليفة فجهّز الجيوش. فلما كان أول ربيع الأول السنة أربعة وتسعين ومائتين، سيّر وصيفاً بن صوارتكين مع العساكر إليهم، فلقيهم زكرويه ومن معه من القرامطة فاقتتلوا يومهم، ثمّ حجز بينهم

(١) كانت هذه القافلة قد طلبت الأمان فأمنها زكرويه ثمّ غدر بها. وكانت نساء القرامطة تَطُفن بالماء على الجرحى. فمن طلب ماءً أجهزن عليه. وقيل إن عدد قتلاها بلغ ٢٠ ألفاً.

الليل. ثمّ بكروا في القتال فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل من القرامطة جمع كبير.(١)

ووصل عسكر الخليفة إلى زكرويه، فضربه بعض الجند وهو مولٍّ بالسيف على رأسه وأخذوه أسيراً مع خليفته وخواصه وأقربائه، وفيهم ابنه وكاتبه وزوجته. واحتوى الجند على ما في معسكره.(٢)

وبعد أيام مات زكرويه فأرسلت جثته إلى بغداد.

أما نهاية المعركة فذكرها ابن الأثير الذي كتب:(٣)

«وانهزم جماعة من أصحابه إلى الشام، فأوقع بهم الحسين بن حمدان فقتلوهم جميعاً، وأخذوا جماعة من النساء والصبيان. وحُمِل رأس زكرويه إلى خراسان، لئلا ينقطع الحجاج. وأخذ الأعراب رجلين من أصحاب زكرويه، يُعرف أحدهما بالحداد والآخر بالمنتقم – وهو أخو إمرأة زكرويه – كانا قد سارا إليهم يدعوانهم إلى الخروج معهم. فلمّا أخذوهما سيّروهما إلى بغداد. وتتبع الخليفة القرامطة بالعراق، فقتل بعضهم، وحبس بعضهم، ومات بعضهم في الحبس».

وهكذا أنهى الخليفة المقتدر وجود القرامطة الذين خرجوا على الدين الإسلامي وحاربوا جيوش الخلافة ثماني عشرة سنة وأوقعوا بها في عدد كبير من المعارك وخلقوا للخلفاء مشكلة صعبة الحل. وهاجموا المدن والحصون الإسلامية واستولوا عليها وقتلوا رجالها وسبوا نساءها وأولادها وصادروا أموالها ومحاصيلها وأملاكها في شكل جعل القضاء على حركتهم من أهم إنجازات الخليفة المكتفي.

٩ – وفاة المكتفي

في ذي القعدة لاثنتي عشرة ليلة منه توفي الخليفة المكتفي بالله وكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوماً.(٤) وكان

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٦٧.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٠٩.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤٣٤.
(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء٥ ، ص ٦٧٠.

عمره يوم وفاته ثلاثاً وثلاثين سنة. وأمه تركية اسمها جيجك. ومات بسبب مرض في معدته اسمه الذّرب.[1]

وقبل وفاته أحضر محمداً بن يوسف القاضي وعبد الله بن علي بن أبي الشوارب، فاشهدهما على وصيته بالعهد إلى أخيه جعفر.[2]

١٠ - الدروس والعِبَر والنتائج

أ - بعد مرحلة الاستقرار والقوة التي تميز بها عهدا المعتمد والمعتضد، بدأت بوادر الضعف تظهر على الخلافة العباسية في عهد المكتفي الذي تميّز بالأحداث الآتية:

* خروج القرامطة وانتشارهم وتصدّيهم بنجاح لجيوش الخلافة.

* تحرك الترك في ما وراء النهر.

* تمدّد الدولة الطولونية نحو بلاد الشام، الأمر الذي دفع المكتفي إلى مهاجمة مصر والاستيلاء عليها.

* بداية بروز الدولة الحمدانية في حلب وجهاتها.

فالفراغ الأمني والعسكري في دولة ما يستجلب تمرّداً عسكرياً نحوها من الدول المجاورة. وبالفعل، تمكّن القرامطة من السيطرة على شمال بلاد الشام واحتلال حمص وحماه وبعلبك وقتل أهلها. كما هاجموا القرى المجاورة التي دبّ الرعب في نفوس سكانها دون أن تتمكّن الدولة العباسية من وضع حدّ سريع للتوسّع العسكري للقرامطة رغم تحقيقها بعض الانتصارات عليهم.

ب - خلال القتال بين جيش الخلافة والقرامطة، صمدت ميمنة وميسرة الجيش العباسي صموداً رائعاً رغم هجمات ميسرة وميمنة القرامطة العنيفة بالفرسان. وحسم المعركة هجوم قلب وميمنة جيش الخلافة الذي أظهرت عناصره تصميماً كبيراً على القتال وصموداً في وجه الهجمات المتكرّرة، فأحسنوا تطبيق مبدأ الحرب الثالث، أي

(١) الذرب: مرض في المعدة يعسر معه هضمها.

(٢) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٣٢٧.

الحصيل الأقصى للوسائل، وانتصروا في المعركة.

ج - في عهد المكتفي بدأ الأتراك بالإغارات على ما وراء النهر في جيش كبير. لكن مباغتتهم من قبل أحد الجيوش العباسية فيما هم نيام، أدى إلى خسارتهم المعركة واستباحة معسكرهم وردّهم عن بلاد ما وراء النهر.

د - أدّى ضعف الدولة الطولونية في مصر إلى خلق فراغ عسكري عمل على إملائه الخليفة العباسي فأرسل قائده محمد بن سليمان الذي اتخذ التدابير العملانية الآتية:

* سيّر جيشاً برياً يواكبه أسطول في البحر.
* حاصر مصر من البحر وقطع التموين عنها وضغط على سكانها.
* أغرى قادة الجيش الطولوني للالتحاق به، فانضمّ إليه قائدهم العام بدر الحمامي وتبعه معاونوه.
* راسل بدر الحمامي جند مصر وأمّنهم، فانحاز قسم منهم إلى الجانب العباسي.

هذه التدابير العملانية المحكمة أعطت نتائج إيجابية، فتمكن ابن سليمان من الاستيلاء على مصر وإنهاء وجود الدولة الطولونية فيها وإعادتها إلى سيطرة الخلافة الشرعية.

هـ - أما القائد أبو الهيجاء بن حمدان، فإنه لاحق الأتراك إلى جبل السلق، وسيّر أمامه الجواسيس كي لا يقع في كمين كونه لا يثق بولائهم. ورغم تساقط الثلوج وانعدام العلف للركائب، فإنه صبر مع جيشه وقرّر متابعة الملاحقة، الأمر الذي دفع قائد الترك إلى طلب الأمان.

فتصميم القائد وصبره وتذليله الصعوبات وتحفيزه جنده، كلّها عوامل تؤدي إلى نجاح مناورته والانتصار في معركته.

هذا النجاح العملاني، مضافاً إليه خدمات لاحقة أدّاها الحمدانيون إلى الخلافة العباسية، ساهم في قيام الدولة الحمدانية في شمال بلاد الشام التي كلفت بمهمة الصراع ضد الإمبراطورية البيزنطية خلال حروب طويلة تواجها خلالها.

و - اعتمد القرامطة في صراعهم ضد العباسيين استراتيجية غادرة وعنيفة ضد المدن والقبائل من خلال ما يأتي:

* تصفية مقاتلي مدينة بصرى وسبي ذراريهم وأخذ أموالهم، بعد أن كانوا قد أمّنوهم.

* الغدر بجند دمشق وقتلهم بعد تأمينهم.
* نهب طبرية وقتل عدد كبير من أهلها وسبي نسائها.
* نهب ربض مدينة هيت.
* التصدي إلى قافلة لأهل خراسان والاستيلاء عليها وقتل كلّ من فيها.

هذه السياسة الغادرة لم تسمح بتأليب الأقوام حول القرامطة الذين وثب بهم بنو كلب وقتلوا قائدهم. كما عمد سكان المدن إلى مقاومتهم والتصدّي لهم، لا سيما أهل الكوفة الذين أمدّهم الخليفة بمجموعة من قواده.

أخيراً، طبّق الخليفة قواعد التعبئة العامة وحشد القوى وتسيير الجيوش الكبيرة لقتال القرامطة تطبيقاً لمبدأ الحرب الأول (نسبية الأهداف للوسائل). وهكذا قتل قائدهم وهزمت مجموعاتهم. ولاحقت جيوش الخلافة فلولهم فقتلت البعض وأسرت البعض وأنهت وجود القرامطة نهائياً.

ونحن نرى أن من واجب الجيوش العمل عل تأليب سكان منطقة العمليات إلى جانبهم لأن العمل العسكري في أرض عدوّة يعرّض القائمين به إلى أعمال عدوانية، نذكر منها:

* تنفيذ عمليات من قبل السكان على المفارز المنعزلة وخطوط المواصلات.
* نصب كمائن للوحدات العسكرية.
* شن حرب عصابات وأعمال غرية ضد هذه الوحدات.
* نقل معلومات عنها إلى الجيش الذي يتمتع بثقة السكان وولائهم.

ملحق رقم ٥

القتال ضد الروم في عهد المكتفي

في السنة الحادية والتسعين والمائتين وجّه ملك الروم عشر فرق، في كلّ منها عشرة آلاف مقاتل، إلى الثغور، فقصدت جماعة منهم الحدث حيث أغاروا وأحرقوا وسبوا.(١)

من جهة أخرى، سار نائب طرطوس إلى بلاد الروم، ففتح مدينة إنطاكية عنوةً وقتل خمسة آلاف رجل وأسر مثلهم واستنقذ من الأسارى خمسة آلاف، واستولى على ستين مركباً فحمل فيها ما غنم من الأموال والرقيق والعتاد. وقُدّر نصيب كلّ مقاتل من مقاتليه من الغنيمة بألف دينار.(٢)

وفي السنة الثانية والتسعين والمائتين أغار أندرونقس الرومي على مرعش ونواحيها، فهرب أهل المصيصة وأهل طرطوس. وفيها كان الفداء بين الروم والمسلمين، فكان مجموع من فُودي به من المسلمين ألف ومائتي نفس.(٣)

وفي السنة التالية أغار الروم على قورس من أعمال حلب فقاتلهم أهلها قتالاً شديداً، ثمّ انهزموا وقتل أكثرهم. ودخل الروم قورس وأحرقوا جامعها وساقوا من بقي من أهلها أسرى.(٤)

وفي السنة الرابعة والتسعين والمائتين غزا ابن كيغلغ الروم من طرطوس، فأصاب منهم أربعة آلاف من السبي وصادر دواباً ومتاعاً. ودخل بطريق من بطارقة الروم في الأمان واعتنق

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٥٦.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٠٥.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤٢٥.
(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٦٤.

الدين الإسلامي. وسار ابن كيغلغ إلى شكند وافتتحها، ومنها إلى الليس حيث غنم نحواً من خمسين ألف رأس وقتل مقتلة عظيمة من الروم.(١)

وكاتب أندرونقس البطريق الخليفة يطلب منه الأمان، وكان على حرب أهل الثغور، فأمّنه المكتفي، فخرج ومعه مائتا أسير من المسلمين كانوا في حصنه. وكان ملك الروم قد أرسل للقبض عليه، فأعطى المسلمين سلاحاً فخرجوا معه وقبضوا على الذي أرسله ملك الروم وقتلوا من جنده عدداً كبيراً وغنموا ما في معسكره.

اجتمع الروم لمحاربة أندرونقس، فسار إليهم جمع من المسلمين ليخلصوه ومن معه من أسرى المسلمين، فبلغوا قونية واخربوها.(٢)

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٠٩.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٢٩٣.



الفصل التاسع
العمليات العسكرية في عهد المقتدر

بويع المقتدر بالله، أبو الفضل جعفر بن المعتضد في اليوم الذي توفي أخوه المكتفي بالله، وكان له يوم بويع له في السنة الخامسة والتسعين والمائتين ثلاث عشرة سنة.(١)

ورغم أنه كان كريماً وكثير الإنفاق، فإنه بقي مغلوباً على أمره طوال مدّة خلافته، كما خلع مرتين. وبسبب صغر سنه، سيطرت أمه ونساؤه وخدمه عليه، فكانت أمور دولته تسير على تدبير النساء والخدم، فيما هو مشغول بملذاته.

إلاّ أن مقاليد الحكم الفعلية كانت في يد أمه التي كانت تسمى «السيدة» واسمها «شغب»، والتي كانت إذا غضبت على أحد الوزراء، كان مصيره العزل.

وتفشّت الرشوة في عهد المقتدر حتى صارت الوزارة تؤخذ بالرشاوى، ولم يكن الصالح من الوزراء يبقى مدة طويلة في الوزارة لأن بقاءه لا يتوقّف على كفاءته.

وكما اشتدّ خطر القرامطة في عهده، تفاقم خطر البيزنطيين على الدولة العباسية، فأغاروا السنة ٣٠٣هـ على ثغور المسلمين. كما كتبوا السنة ٣١٣هـ إلى أهل الثغور يأمرونهم بحمل الخراج إليهم وإلاّ تعرضوا لهجومهم كما حصل عندما غزوا ملطية السنة ٣١٤هـ وخربوها. كما هاجم البيزنطيون السنة ٣١٤هـ مدينة «ديبل» في أرمينيا واقتحموها.

وكانت خلافة المقتدر أربعاً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وستة عشر يوماً.

---

(١) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٣٢٨.

وفي السنة التي ولّي وقعت أعمال عسكرية، منها أن عبد الله بن إبراهيم المسمعي خرج عن أصبهان إلى قرية من قراها مخالفاً الخليفة، واجتمع إليه نحو عشرة آلاف من الأكراد وغيرهم. سيّر الخليفة إليه منصور الكاتب الذي خوّفه عاقبة الخلاف، فعاد إلى الطاعة.(١)

وفي السنة نفسها كانت وقعة للحسين بن موسى على أعراب طيء، الذين كانوا قد حصروا القائد وصيفاً. فقصدهم الحسين على حين غرّة منهم فجرى قتال غير متكافىء قتل فيه كثيرون منهم وأسر عدد آخر كما أوقع الحسن بن أحمد بالأكراد الذين كانوا قد تغلّبوا على نواحي الموصل، فظفر بهم واستباحهم ونهب أموالهم.(٢)

١ - محاولة خلع المقتدر

في ربيع الأول من السنة السادسة والتسعين والمائتين اجتمعت جماعة من القواد والجند والأمراء والقضاة والكتاب مع الوزير العباس بن الحسن على خلع المقتدر والبيعة لأبي عبد الله محمد بن المعتز، فأجابهم هذا الأخير إلى ذلك شرط عدم سفك دماء. ومن القواد الذين شاركوا في ذلك نذكر الحسين بن حمدان وبدر الأعجمي ووصيف بن صوارتكين.(٣)

وبالفعل بايع هؤلاء عبد الله بن المعتز ولقب المرتضى بالله فاستوزر محمود بن داود بن الجراح وأنفذ الكتب إلى الولاة والعمال. ووجه إلى المقتدر أمراً بالانتقال إلى دار ابن طاهر التي كان مقيماً بها سابقاً، لينتقل هو إلى دار الخلافة، فأجابه المقتدر بالسمع والطاعة وطلب إمهاله إلى الليل.(٤)

وفي اليوم التالي، عاد الحسين بن حمدان إلى دار الخلافة، فقاتله الخدم والغلمان والرجالة عامة النهار، فانصرف عنهم آخر النهار وتفرق نظام ابن المعتز. ولم يكن قد

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٦٩.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤٤٠.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٧٥٤.
(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١١٥.

بقي مع المقتدر من القواد سوى مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وغريب الخال. واجتمع رأي هؤلاء على أن يصعدوا بالسفن إلى دار ابن المعتز ويقاتلوه، فاخرج لهم المقتدر السلاح وركبوا السفن وصعدوا في دجلة. فلما رآهم الذين في دار ابن المعتز، هالتهم كثرتهم وهربوا قبل أن تصل السفن إلى الدار.(١)

وركب ابن المعتز ووزيره وخرجا إلى الصحراء ظناً منهما أن الجند الذين بايعوا ابن المعتز يخرجون معهما ويلحقون بهما إلى سامراء فيمتنعون فيها، فلم يلحقهما أحد. عند ذلك اختفى الوزير في داره ولجأ ابن المعتز إلى دار أبي عبد الله بن الجصاص فاستجار به.(٢)

ووقعت الفتنة في بغداد، وثار العيارون والسفلة وراحوا ينهبون الدور، وتفشّى القتل في المدينة.(٣)

عند هذا الحد، قلّد المقتدر مؤنساً الخازن الشرطة وأمره بحفظ الأمن، فزحف في الجند وقبض على القائد وصيف فقتله، وعلى القاضيين أبي عمر علي بن عيسى ومحمد ابن خلف، ثمّ أطلقهما وقتل القاضي أبي المثنى أحمد بن أيوب.(٤)

وأرسل المقتدر إلى أبي الحسن بن الفرات فأحضره واستوزره وخلع عليه، كونه لم يبايع ابن المعتز. ثمّ إن خادماً لابن الجصّاص أخبر بأن ابن المعتز عند مولاه، فكبست دار ابن الجصاص وأخذ ابن المعتز وحبس إلى الليل ثمّ قتل، كما قتل وزيره محمد بن داود.(٥)

وسار جيش في طلب الحسين بن حمدان إلى الموصل فلم يظفر به، فعاد إلى بغداد. كَلف أمير الموصل أبا الهيجاء بن حمدان بملاحقة أخيه الحسين فلحقه إلى سنجار، ثمّ إلى البرية حيث اقتتلا فظفر أبو الهيجاء وأسر بعض أصحاب الحسين. ثمّ أرسل الحسين إلى ابن الفرات الوزير يسأله الرضا عنه، فشفع فيه إلى المقتدر الذي عفا عنه

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٧٥٥.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١١٥.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤٤٢.

(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٧١.

(٥) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٧٥٦.

وعن إبراهيم بن كيغلغ وابن عمرويه صاحب الشرطة وغيرهم من القادة الكبار.(١)

٢ – قيام الدولة الفاطمية في إفريقيا

لاحق الخلفاء العباسيون الشيعة أينما وُجِدوا، لذلك نفّذ هؤلاء ثورات عديدة ضد الحكم العباسي سبق الحديث عنها. ولأن الثورات الشيعية والعلوية باءت بالفشل لجأ هؤلاء إلى أطراف الدولة العباسية، كاليمن وطبرستان والمغرب وفارس ومرتفعات بلاد الشام. كما نجحوا في إقامة بعض الدول كانت أشهرها وأقواها وأطولها عمراً الدولة العبيدية الفاطمية في شمال أفريقيا التي أصبحت خلافة.

وينتسب العبيديون إلى أول خلفائهم عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر الذي يعود بنسبه إلى جعفر الصادق.(٢)

وظهرت هذه الدولة عندما ذهب أبو عبدالله الشيعي(٣) إلى المغرب السنة ٢٨٨هـ لنشر الدّعوة الفاطمية في تلك البلاد، حيث نجح وغدا ذا جند عظيم وسلاح كثير ومال وفير. وعند ذلك استدعى عبيدالله المهدي إلى أفريقيا وبدأ مرحلة جهاد عسكري طويل من السنة ٢٩١هـ إلى السنة ٢٩٧هـ وانتهى بالاستيلاء على القيروان.

وكان قد دافع عن أبي عبدالله أحد أكابر قبيلة كتامة البربرية اسمه الحسن بن هارون الذي أخذه إلى مدينة ناصرون فأتته القبائل البربرية من كلّ مكان. وخاض أبو عبدالله والحسن بن هارون معارك عديدة كان الظفر فيها لهما، إذ إنهما خندقا في مدينة ناصرون فزحفت إليهما قبائل البربر فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثمّ اصطلحوا. ثمّ عادوا للقتال فكانت بينهم وقائع كثيرة ظفر بها أبو عبدالله فاستقام له أمر البربر وخاصة قبيلة كتامة.(٤)

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٧٢.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٧٥٧.

(٣) هو أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن زكريا، يعرف بالمعلم لأنه كان يعلم الناس الباطنية، وأصله من الكوفة.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤٥١.

ولأن موسوعتنا هذه تقتصر على المعارك التي خاضها العرب المسلمون عبر التاريخ، فإننا سنحاول حصر موضوعنا في المعارك التي خاضها العبيديون في افريقيا للوصول إلى إقامة دولتهم، وهي كما يلي:(١)

* زحف أبو عبيدالله إلى مدينة ميلة فقاتل أهلها قتالاً شديداً، ثمّ دخلها صلحاً.

أرسل أمير أفريقيا إبراهيم بن أحمد جيشاً قوامه اثنا عشر ألف مقاتل، واتّبعه بمثله، فالتقى الجيشان واقتتلا فانهزم أبو عبيدالله وكثر القتل في أصحابه. ثمّ أحرقت مدينة ناصرون ومدينة ميلة من قبل جيش أفريقيا بقيادة الأحول بن إبراهيم بن أحمد أمير أفريقيا.

* ثمّ قتل أمير افريقيا وابنه الأحول، فانتشرت جيوش أبي عبدالله في البلاد.

في هذه المرحلة اتصل أبو عبدالله بأبي عبيدالله المهدي في سلمية واستدعاه إلى أفريقيا. وفي طريقه إلى افريقيا، لاحق العباسيون المهدي فألقوا القبض عليه بواسطة أليسع بن مدرار أمير سجلماسة.

* تحرك أبو عبدالله الشيعي على رأس جيش كبير نحو سجلماسة لإنقاذ المهدي فمر بالمغرب الأوسط (الجزائر) وقضى على الدولة الرستمية واحتلّ عاصمتها تاهرت السنة ٢٩٦هـ. ثمّ تابع طريقه إلى رقادة التي هرب أهلها فدخلها وفرّق دورها على قبيلة كتامة.

* لما استتبّ الأمر لأبي عبدالله في رقادة سار في رمضان السنة ٢٩٦هـ إلى سجلماسة التي فرّ أميرها أليسع بن مدرار وأصحابه، فدخلها أبو عبدالله وجيشه وأطلق سراح عبيدالله المهدي من سجنه.

* ثمّ سار أبو عبدالله بجيشه إلى مدينة طبنة فحاصرها ونصب عليها المجانيق ونقب أحد أبراجها، فسقط السور بعد قتال شديد. فاحتمى قادتها بحصن البلد، فحاصره فطلبوا الأمان فامّنهم.

* وسار بعد ذلك إلى مدينة بلزمة، وكان قد حاصرها مرات عدة من دون أن يتمكّن

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٤٥١ - ٤٦٣.
- وابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٧٥٧ - ٧٦٦.

منها. فحاصرها وضيّق عليها وجدّ في القتال ونصب عليها المجانيق ورماها بالنار فأحرقها وفتحها بالسيف وقتل الرجال وهدم الأسوار.

* وصلت الأخبار إلى زيادة الله أمير أفريقيا، فأخذ في جمع الجند وحشد جيشاً من اثني عشر ألفاً بقيادة هارون بن الطبني، فقصد مدينة دار ملوك التي تبعت أبا عبدالله فقتل أهلها وهدم حصنها.

ثمّ التقى جيش هارون بخَيْل لأبي عبدالله فجرى قتال بينهم هزم في نتيجته هارون وقتل، وفتح أبو عبدالله مدينة تيجس صلحاً.

* ثمّ جمع زيادة الله جيشاً كبيراً بقيادة إبراهيم بن أبي الأغلب.

* في هذا الوقت افتتح أبو عبدالله مدينة باغاية صلحاً، ومدينة مجانة عنوة ومدناً أخرى كثيرة في أفريقيا.

* ثمّ سيّر أبو عبدالله سرية إلى دردمين حيث يتمركز جيش ابن أبي الأغلب، حيث جرى قتال هزمت فيه سرية أبي عبدالله.

* لمّا دخل فصل الربيع أحصى أبو عبدالله جنده فكان مائتي ألف فارس وراجل، فيما كان جند إبراهيم لا يحصى لكثرته. وقد التقى الجانبان في الأربس فاقتتلا أشدّ اقتتال. ولمّا طال القتال، اختار أبو عبدالله من جنده ستمائة وأمرهم بأن يأتوا جيش إبراهيم من الوراء. وكذلك فعل إبراهيم، فالتقت السريتان على طريق ذهابهما واقتتلتا فانهزم أصحاب إبراهيم. ووضع الصوت في مؤخرة جنده من كمين أبي عبدالله فانهزم جيش ابن أبي الأغلب إلى القيروان. ثمّ تبعهم جند أبي عبدالله يقتلون ويأسرون، وغنموا أموالاً طائلة وخيلاً وعتاداً. ثمّ دخلوا مدينة الأربس فقتلوا بها خلقاً عظيماً بلغ عددهم ثلاثة آلاف.

وهرب زيادة الله إلى الديار المصرية.

أما أبو عبدالله فسار إلى رقادة، حيث أمّن أهلها وقتل أهل الشرّ منهم ووزّع دورهم على كتامة. ثمّ دخل أبو عبدالله إلى القيروان وملكها، وأخرج العمال إلى البلاد وجمع السلاح والأموال التي خلّفها زيادة الله.

وهكذا قامت دولة الفاطميين الشيعة في شمال أفريقيا، وتعاقب على خلافتها: المهدي (٢٩٧ - ٣٢٢هـ)، والقائم (٣٢٢ - ٣٣٤هـ)، فالمنصور (٣٣٤ - ٣٤١هـ)، فالمعز

لدين الله الفاطمي الذي فتح قائده جوهر الصقلي مصر التي اتخذوها قاعدة لهم.

٣ – استيلاء ابن الليث على فارس ومقتله

في السنة السابعة والتسعين والمائتين سار الليث بن علي بن الليث من سجستان إلى فارس في جيش كبير، فاستولى عليها بعد قتال مع عاملها سبكري الذي فرّ إلى أرجان.[١]

ولمّا بلغ الخبر الخليفة المقتدر جهز جيشاً بقيادة مؤنس الخادم وأرسله إلى فارس لتعزيز قوات السبكري، فاجتمعا بأرجان. وبلغ خبر اجتماعهما الليث، فسار إليهما في جيش كبير، فأتاه الخبر بمسير الحسين بن حمدان من قم إلى البيضاء لتعزيزهما، فبعث أخاه في بعض جيشه إلى شيراز ليحفظها.[٢]

ثمّ سار في بعض جنده في طريق مختصرة لمواقعة ابن حمدان، فأخذه الدليل في طريق راجل فهلك أكثر دوابه. ثمّ أشرف على عسكر مؤنس خطأً فظنّ أنه عسكره الذي سيّره مع أخيه إلى شيراز. فسار إليه مؤنس وسبكري في جندهما فاقتتلوا قتالاً شديداً انهزم في نهايته جيش الليث الذي أُخذ أسيراً، فحمله مؤنس إلى بغداد.[٣]

ثمّ ثار سبكري فبعث الوزير ابن الفرات جيشاً بقيادة جماعة من القواد أبرزهم محمد ابن جعفر الغريابي، فواقعه على باب شيراز حيث جرى قتال عنيف هزم خلاله سبكري الذي سار إلى مدينة «بَمّ»[٤] وتحصّن فيها. تبعه محمد بن جعفر وحاصره فخرج إليه جيش سبكري فجرى قتال بين الجيشين انتصر فيه محمد ونهب مال سبكري واستولى على فارس فولى عليها قبيجا مولى الأفشين.[٥]

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٧٣.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، ٦، ص ٧٦٧.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤٦٥.

(٤) بَمّ: مدينة مهمة من أكبر مدن كرمان.

(٥) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٧٤.

٤ - استيلاء أحمد بن إسماعيل على سجستان

في السنة الثامنة والتسعين والمائتين سار أحمد بن إسماعيل الساماني من بخارى إلى هُراة، وسيَّر جيشاً في المحرّم إلى سجستان بقيادة الحسين بن علي المرورذي، وكان عليها المعدّل بن علي بن الليث الصفّار.(١)

فلمّا علم المعدّل بسير الجيش وجّه أخاه محمداً إلى «بست» و«الرخج» ليحمي أموالها ويرسل ميرتها إلى سجستان، فالتقى محمد بأحمد بن إسماعيل، ووقع قتال بينهما انتصر فيه هذا الأخير وأسر محمداً بن الليث.

أما الجيش الذي في سجستان فقد حاصر صاحبها المعدّل وضايقه فاستأمن إلى قائده الحسين بن علي الذي أمّنه واستولى على سجستان.

ولّما استولى السامانية على سجستان بلغهم خبر مسير سبكري إليها، فسيّروا إليه جيشاً التقى مع عسكره وقد أخذهم التعب، فأخذه أسيراً واستولى على عسكره، وسيَّره السامانيون إلى الخليفة المقتدر في بغداد.(٢)

٥ - معارك بحرية وبرية حول صقلية

كان المهدي الفاطمي قد عيّن علياً بن عمر على صقلية، فلم يقبل أهلها به فعزلوه وولوا أحمد بن قرهب عليها. فلما ولّي سيّر سرية إلى أرض قِلّورية(٣) فغنم جندها غنائم كثيرة وأسروا من الروم عدداً من الرجال. وفي السنة ثلاثمائة أرسل ابنه علياً إلى قلعة طبرمين فحاصرها ستة أشهر تمرّد في نهايتها جنده وثاروا عليه.

أمّا أمير صقلية أحمد بن قرهب فدعا إلى طاعة الخليفة المقتدر وخطب له في الجزيرة، ثمّ أخرج جيشاً في البحر إلى ساحل أفريقيا حيث اصطدم بأسطول للفاطميين فأحرقه وقتل من فيه. وسار

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٢٠.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤٦٨.

(٤) قِلّورية: جزيرة في شرقي صقلية.

الأسطول الصقلي إلى مدينة سفاقس فخرّبها، ثمّ سار إلى طرابلس لكنه عاد عنها. وأرسل مراكب فيها جيش بري إلى قلورية فسيطر عليها وغنم غنائم كثيرة وخرّب فيها. إلاّ أنه عاد وسيّر أسطولاً إلى شمال أفريقيا فهزمه الاسطول الفاطمي.

أخيراً ثار أهل صقلية على ابن قرهب وأخذوه أسيراً وأرسلوه إلى المهدي فقتله، وعادت الجزيرة إلى السيادة الفاطمية.[1]

٦ – انتفاضة إسحاق بن أحمد في سمرقند

لمّا قتل عامل خراسان أحمد بن إسماعيل في بخارى وولي ابنه نصر، خرج عليه عمّ أبيه إسحاق بن أحمد وابنه إلياس في سمرقند. وقام إلياس بقيادة الجيش وقوي أمرهما، فسارا نحو بخارى وهددا نصراً فيها.[2]

أرسل نصر قائده حمويه بن علي على رأس جيش كبير خلال شهر رمضان، فالتقى الجيشان وجرى بينهما قتال شديد هزم في نتيجته إسحاق إلى سمرقند. لكنه عاد وجمع جيشه مجدداً وكرّر هجومه على بخارى فاصطدم بجيش حمويه الذي انتصر عليه في المعركة التي وقعت بينهما، وتبعه بعدها إلى سمرقند فحاصرها مدّة ثمّ دخلها عنوة.[3]

اختفى إسحاق، فطلبه حمويه ووضع عليه العيون والأرصاد، فضاق مكانه وأظهر نفسه واستأمن إلى حمويه الذي أمنه واصطحبه إلى بخارى، وكان ذلك السنة إحدى وثلاثمائة للهجرة.

٧ – ظهور الأطروش وملكه خراسان

بعد مقتل محمد بن زيد دخل الحسين بن علي الأطروش بلاد الديلم، حيث أقام

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٤٧٥ – ٤٧٦.

(٢) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٧٧.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤٨٠.

مدّة ثلاث عشرة سنة يدعوهم فيها إلى الإسلام ويأخذ منهم العشر، فأسلم منهم عدد كبير واجتمعوا على الأطروش وبنوا في بلادهم المساجد.[١]

ثمّ راح الأطروش يدعو الديلم للخروج معه إلى طبرستان، فلا يجيبونه إلى ذلك. واتفق أن الأمير أحمد بن إسماعيل صاحب خراسان عزل ابن نوح عن طبرستان وولاها لآخر اسمه «سلام» لم يحسن إلى أهلها. فهاج الديلم فقاتلهم سلام وهزمهم، لكنه استقال عن ولاية طبرستان فأعاد إليها والي خراسان عبدالله بن محمد بن نوح، فاستقامت الأمور فيها.[٢]

ثمّ مات ابن نوح فاستعمل أحمد بن إسماعيل عليها محمداً بن إبراهيم صعلوك الذي أساء السيرة، فاستغلّ الحسن بن علي[٣] الفرصة وحرّض الديلم على الثورة فأجابوه وخرجوا معه. قصدهم ابن صعلوك بجيشه فالتقى الجمعان في مكان يسمى «نوروز»[٤] حيث جرى قتال عنيف هزم بنتيجته ابن صعلوك وقتل من جيشه نحو أربعة آلاف رجل. ولجأ الباقون إلى سالوس، فحاصرهم الأطروش[٥] قائد الديلم، ثمّ أمّنهم على أموالهم وأنفسهم وأهلهم، فخرجوا إليه.[٦]

بعد خروج باقي جند الصعلوك وتأمينهم من قبل الأطروش، قام الداعية العلوي الحسن بن قاسم بقتلهم جميعاً، كونه لم يكن هو قد أمّنهم.[٧]

أما الأطروش فاستولى على طبرستان، فانتقل ابن صعلوك إلى الري، وذلك السنة إحدى وثلاثمائة، ثمّ سار منها إلى بغداد.

---

(١) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٣٤٦.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤٨١.

(٣) الحسن بن علي يعود بنسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب.

(٤) نوروز: على شاطىء البحر، على مسافة يوم من سالوس

(٥) الحسن بن علي الأطروش.

(٦) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٧٧١.

(٧) الحسن هو صهر الأطروش.

وكان الأطروش زَيْديّ المذهب، لذلك فان كلّ الذين أسلموا على يده من الديلم كانوا على المذهب الشيعي.

بعد هذه الانتصارات سار الأطروش إلى سالوس فسيطر عليها، فأرسل إليه ابن صعلوك من الري جيشاً فهزمه وعاد إلى آمد. ثمّ سيطر على خراسان حيث بقي حتى السنة أربع وثلاثمائة حين زحفت إليه جيوش صاحب خراسان نصر أحمد بن إسماعيل فقتلته.

٨ - مسير جيش المهدي إلى مصر

في السنة الإحدى والثلاثمائة بعث عبيدالله المهدي جيوشه من شمال أفريقيا مع ولده أبي القاسم إلى الديار المصرية، فسارت إلى برقة فاستولت عليها في ذي الحجة. ثمّ سارت إلى مصر فسيطرت على الإسكندرية والفيّوم. وهكذا ملك المهدي غالبية البلاد المصرية وراح يضيّق على أهلها.[١]

تجاه هذا الوضع قرّر الخليفة المقتدر استعادة مصر من الفاطميين، فسيّر جيشاً كبيراً بقيادة مؤنس الخادم إلى الإسكندرية حيث جرت وقائع شديدة مع الفاطميين قتل فيها من الفريقين جمع كبير، إذ بلغ عدد القتلى من المغاربة سبعة آلاف. ونتيجة للمعارك هذه أجلى جند الخليفة الفاطميين عن مصر، فعادوا إلى المغرب مهزومين.[٢]

٩ - عصيان الحسين بن حمدان

كان الحسين بن حمدان والياً على ديار ربيعة، فطالبه الوزير علي بن عيسى بمال عليه للخليفة فتمنّع، فأمره بتسليم البلاد إلى عمال الخليفة فامتنع، وذلك في السنة الثالثة والثلاثمائة. وكان القائد مؤنس الخادم غائباً في مصر لمحاربة جند المهدي الفاطمي، فجهز الوزير القائد رائقاً الكبير في جيش وسيّره إلى الحسين بن حمدان، وكتب إلى مؤنس يأمره

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤٨٣.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٧٧٢.

بالسير إلى ديار الجزيرة لقتال الحسين بعد فراغه من قتال مصر.(١)

نقل ابن الأثير تفاصيل القتال الذي جرى مع القائد الحسين بن حمدان من قبل رائق الكبير ثمّ من قبل مؤنس وصولاً إلى أسره، فكتب:(٢)

«فسار رائق إلى الحسين بن حمدان، وجمع لهم الحسين نحو عشرين ألف فارس، وسار إليهم فوصل إلى الحبشة، وهم قد قاربوها. فلما رأوا كثرة جيشه علموا عجزهم عنه لأنهم كانوا أربعة آلاف فارس، فانحازوا إلى جانب دَجلة، ونزلوا بموضع ليس له طريق إلاّ من وجه واحد. وجاء الحسين فنزل عليهم وحصرهم، ومنع الميرة عنهم من فوق ومن أسفل، فضاقت عليه الأقوات والعلوفات. فأرسلوا إليه يبذلون له أن يولّيه الخليفة ما كان بيده ويعود عنهم فلم يجب إلى ذلك، ولزم حصارهم، وأدام قتالهم إلى أن عاد مؤنس من الشام. فلما سمع العسكر بقربه قويت نفوسهم وضَعُفت نفوس الحسين ومن معه فخرج العسكر إليه ليلاً وكبسوه، فانهزم وعاد إلى ديار ربيعة. وسار العسكر فنزلوا على الموصل، وسمع مؤنس خبر الحسين فجنّد مؤنس في المسير نحوه، واستصحب معه أحمد بن كيغلغ. فلمّا قرُب منه راسله الحسين يعتذر وترددت الرّسل بينهما فلم يستقرّ حال. فرحل مؤنس نحو الحسين حتى نزل بإزاء جزيرة ابن عمر.

ورحل الحسين نحو أرمينية مع ثقله وأولاده وتفرّق عسكر الحسين عنه، وصاروا إلى مؤنس. ثمّ إن مؤنساً جهّز جيشاً في أثر الحسين مقدمهم بليق ومعه سيما الجزري وجنى الصفواني فتبعوه إلى تلّ فافان فرأوها خاوية على عروشها قد قتل أهلها وأحرقها. فجدُّوا في اتباعه، فأدركوه فقاتلوه فانهزم من بقي معه من أصحابه وأُسر هو ومعه ابنه عبد الوهاب وجميع أهله، وأكثر من صحبه وقبض أملاكه. وعاد مؤنس إلى بغداد على الموصل والحسين معه فأُركب على جمل هو وابنه، وعليهم البرانس واللبود الطوال

---

(١) ابن خلدون، المرجع نفسه، ص ٧٧٣.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤٨٨ - ٤٨٩.

وقمصان من شعر أحمر، وحُبس الحسين وابنه عند زيدان القهرمانة. وقبض المقتدر على أبي الهيجاء بن حمدان وعلى جميع إخوته وحبسهم. وكان قد هرب بعض أولاد الحسين بن حمدان فجمع جمعاً ومضى نحو آمد فأوقع بهم مستحفظها، وقتل ابن الحسين وأنفذ رأسه إلى بغداد».

١٠ - عصيان يوسف بن أبي الساج وإخضاعه

كان يوسف بن أبي الساج قد ولي أذربيجان وأرمينيا، ومنها أمور الحرب والصلاة والأحكام، وقد اغتنم فرصة عزل الوزير ابن الفرات فتمنّع عن أداء المال إلى الخلافة. وعندما نُكب الوزير علي بن عيسى ادّعى أنه ولاّه الري أيضاً، فيما ان صاحبها يومذاك كان محمد بن علي صعلوك.(١)

فلما بلغ ابن صعلوك خبر مسير ابن الساج نحوه، ترك الري وسار إلى خراسان، فدخل يوسف الري واستولى عليها وعلى قزوين وزنجان وأبهر.

فلما بلغ المقتدر فعله وادعاؤه أن الوزير علياً بن عيسى أنفذ له العهد واللواء في هذه المناطق، جهّز العساكر السنة خمس وثلاثمائة وكلف بقيادتها القائد خاقان المفلحي ومعه جماعة من القواد أبرزهم أحمد بن مسرور البلخي وسيما الجزري وتحرير الصفير.

وسار الجيش نحو الري فالتقى بجيش ابن أبي الساج فاقتتلوا قتالاً شديداً فهُزم جيش الخليفة وأسرت منه جماعة. عند ذلك سيّر الخليفة مؤنساً الخادم في جيش كبير لمحاربته، فسار نحوه وانضمّ إليه المنهزمون من جيش خاقان.

سار مؤنس فاستأمن إليه ابن أبي الساج، على أن يقاطع على أعمال الري وما يليها على سبعماية ألف دينار، فلم يرضَ الخليفة بهذا العرض. فسار ابن أبي الساج عن الري بعد أن خرّبها وجبى خراجها، فقلّدها الخليفة مع قزوين إلى وصيف البكتمري.(٢)

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٧٧٤.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤٩٣.

ووقع القتال بين مؤنس وابن أبي الساج، فانهزم مؤنس إلى زنجان وقُتل عدد من قوّاد سيما بن بويه وأسرت جماعة أخرى بينهم هلال بن بدر. وراح مؤنس يجمع العساكر في زنجان، فاجتمع إليه عسكر كثير، فسار إلى يوسف فتواقعا على باب أردبيل فانهزم جند ابن أبي الساج وأُسر مع جماعة من أصحابه فعاد مؤنس بهم إلى بغداد، فأدخل يوسف على المقتدر ثمّ حبس بدار الخليفة.(١)

قلّد الخليفة علي بن وهسوذان أعمال الري ودنباوند وقزوين وأبهر وزنجان، وقلّد أحمد بن علي بن صعلوك أصبهان وقم وقاشان.(٢)

١١ - سيطرة كُثَير بن أحمد على سجستان

في السنة الرابعة والثلاثمائة تغلّب كُثَير ابن أحمد بن شهفور على أعمال سجستان، فكتب الخليفة إلى عامل فارس بدر بن عبدالله الحمامي يأمره بأن يرسل جيشاً يتقن فنون القتال، ويؤمّر عليه دردا،(٣) ويستعمل على الخراج زيداً بن إبراهيم.(٤)

جهّز بدر جيشاً كبيراً وسيّره إلى سجستان حيث اصطدم بجيش كثير فجرى قتال شديد كاد فيه جيش الخليفة أن ينتصر. لكن أهل سجستان بلغهم أن زيداً جلب معه قيوداً وأغلالاً لأعيانهم، فانضموا إلى جيش كثير وقاتلوا معه بشراسة فهزموا جيش الخليفة وأسروا زيداً، وعثروا على القيود والأغلال معه، فجعلوها في رجليه وعنقه.(٥)

ثمّ إن كثيراً كتب إلى الخليفة يتبرّأ من هذا العمل، فأرسل الخليفة يأمر بدراً الحمامي بان يسير بنفسه لقتال كثير، فتجهز بدر. ولمّا علم كُثَير أن بدراً سيقصده بجيشه أرسل مالاً إلى الخليفة وطلب أن يوليه سجستان مقابل مال يحمله إليه سنوياً،

(١) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٣٤٩.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٧٧٥.
(٣) في ابن خلدون، «دركا»، في ابن الأثير «دردا».
(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٧٧٦ - ٧٧٧.
(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤٩٥.

فأُجيب إلى ذلك، على أن يحمل سنوياً خمسمائة ألف درهم إلى بيت المال.

١٢ - القتال ضد جيش المهدي في مصر

في السنة السادسة والثلاثمائة جهّز المهدي صاحب أفريقيا جيشاً كبيراً بقيادة ابنه القاسم وسيّره إلى مصر، وهي المرة الثانية التي يحاول عاهل الفاطميين احتلال مصر. وصل الجيش الفاطمي إلى الإسكندرية ففرّ منها عامل المقتدر ورحل إلى مصر ودخلها القاسم بجيشه واستولى على الجيزة وملك الأشمونين وقسماً كبيراً من الصعيد.(١)

وردت أخبار هذه الفتوحات إلى بغداد، فأرسل المقتدر مؤنساً الخادم في جيش كبير وصل إلى مصر حيث جرت بينه وبين الجيش الفاطمي وقائع عديدة. ثمّ وصل من أفريقيا ثمانون مركباً لنجدة القاسم، فرست في الإسكندرية وكان قائداها سليمان الخادم ويعقوب الكتامي، فأمر الخليفة بأن يسيّر أسطول طرطوس إليهم، فسار خمسة وعشرون مركباً، وفيها النفط وقائدها أبو اليمن.

التقى أسطولا الخليفة والفاطميين فجرت معركة بحرية عنيفة انتصر فيها أسطول طرطوس وأُحرقت مراكب كثيرة للفاطميين وقتل عدد كبير من جندهم وأسر عدد آخر. وكان بين الأسرى قائدا أسطول المهدي سليمان الخادم ويعقوب الكتامي.

أما جيش المهدي البرّي فقد خاض معارك شرسة ضد جيش الخليفة، كان الظفر فيها لمؤنس الخادم الذي لُقّب بـ«المظفّر». ثمّ تعرّض جيش المهدي للوباء فمات منه خلق كثير من المقاتلين ونفق عدد كبير من الخيول، فعاد من سلم إلى أفريقيا ولاحقهم جند الخليفة حتى بعدوا عن مصر ووصلوا إلى عاصمتهم المهدية.(٢)

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٥٠١.

(٢) المرجع نفسه.

وهكذا دخل عُنصر جديد في الصراع على مصر بين العباسيين والفاطميين، وهو الأساطيل البحرية التي برع الفاطميون في استعمالها، وصولاً إلى نزع مصر من السيادة العباسية وإلحاقها بخلافتهم الشيعية.

١٣ – شغب في بغداد بسبب غلاء الأسعار

في السنة السابعة والثلاثمائة ارتفعت أسعار المواد الغذائية في بغداد لأن القائد حامداً وغيره من القادة كانوا يشترون هذه المواد ويخزّنونها. وهكذا تحرّكت العامة وشغبت ونهبت دكاكين عدة. أرسل المقتدر جيشاً مع القائد غريب الخال فقاتل العامة الذين هربوا من أمامه ودخلوا الجامع، فوكل بأبواب الجامع وأخذ كلّ من فيه وحبسهم وقطع أيدي من عرف عنه الفساد.[١]

ثمّ أمر المقتدر بفتح مخازن الحنطة والشعير التي للقادة وبيع ما فيها، فانخفضت الأسعار وسكن الناس.

١٤ – خروج إلياس بن اسحاق الساماني

في السنة عشر وثلاثمائة خزج الياس بن إسحاق بن أحمد الساماني وجمع من الترك ثلاثين ألفاً وقصد سمرقند، فوجه إليه عاملها نصر جيشاً من ألفين وخمسمائة رجل كمنوا خارج سمرقند يوم ورود إلياس. فلما وردها خرج عليه الكمين من بين الشجر وأعمل عناصره السيف في جنده فانهزموا وفرّ إلياس إلى فرغانة. أُعلم دهقان فرغانة به فقبض عليه وقتله وأنفذ رأسه إلى بخارى.[٢]

١٥ – استيلاء ابن أبي الساج على الريّ

كان الخليفة المقتدر قد أقطع يوسف بن أبي الساج أذربيجان والري وقزوين وأبهروزنجان على خمسمائة ألف دينار في كلّ سنة سوى أرزاق العساكر. وبالفعل

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٥٠٣ – ٥٠٤.
(٢) ابن الأثير، المرجع نفسه، جزء ٧، ص ٨.

سار يوسف إلى أذربيجان ومعه القائد وصيف البكتمري على الجند فاستولى عليها. ثمّ سار السنة إحدى عشرة وثلاثمائة إلى الري حيث جرى قتال بينه وبين أحمد بن عليّ أخي صعلوك فهزمه يوسف وقتله وأنفذ رأسه إلى بغداد واستولى على الري.(١)

ثم، وفي السنة ثلاث عشرة وثلاثمائة، سار ابن أبي الساج من الري إلى همذان واستخلف بالري غلامه مفلحاً.

١٦ - فتوح إسلامية في صقلية

في السنة ثلاث عشرة وثلاثمائة سار جيش صقلية مع أميرها سالم بن راشد، وعزّزهم المهدي الفاطمي بجيش من أفريقيا، إلى أرض أنكَبَرْدة(٢) ففتحوا فيها مدناً كثيرة. ثمّ سار جيش صقلية إلى أرض قلورية وقصد مدينة طارنت فحاصرها وافتتحها عنوة. ثمّ اتجه إلى مدينة أدرنت فحاصرها وخرّب منازلها.(٣)

١٧ - الحرب بين عبدالله بن حمدان والأكراد

في السنة الرابعة عشرة وثلاثمائة أفسد الأكراد بأرض الموصل وطريق خراسان. وكان عبدالله بن حمدان يتولى تلك المناطق وابنه ناصر الدولة بالموصل، فكتب إليه والده يأمره بجمع الجند والسير إلى تكريت، ففعل واجتمع بأبيه. ثمّ اتجها إلى شهرزور حيث قاتلا الأكراد الجلالية قتالاً شديداً بعد أن عززت جموعهم واشتدّت شوكتهم فانتصر عليهم وانقادوا له وكفوا عن الفساد.(٤)

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٧٨٠.

(٢) أنكبردة: بلاد واسعة بين القسطنطينية والأندلس على موازاة ساحل المغرب.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٦٥.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٢٧.

١٨ - استيلاء القرامطة على مكّة وانتزاعهم الحجر الأسود منها

كتب ابن خلدون عن ذلك ما يلي:[١]

«سار أبو طاهر القرمطي سنة تسع عشرة[٢] إلى مكّة، وحج بالناس منصور الديلميّ. فلما كان يوم التروية نهب أبو طاهر أموال الحجاج، وفتك فيهم بالقتل حتى في المسجد والكعبة، واقتلع الحجر الأسود وحمله إلى هجر. وخرج إليه أبو مخلب أمير مكة في جماعة من الأشراف، وسألوه فلم يُسعفهم، وقاتلوه فقتلهم وقلع باب البيت، وأصعد رجلاً يقتلع الميزاب فسقط فمات. وطرح القتلى في زمزم، ودفن الباقين في المسجد حيث قتلوا، ولم يغسلوا ولا صلى عليهم ولا كفنوا. وقسم كسوة البيت على أصحابه، ونهب بيوت أهل مكّة. وبلغ الخبر إلى المهدي عبيدالله بأفريقية، وكانوا يظهرون الدعاء له، فكتب إليه بالنكير واللعن ويتهدّده على الحجر الأسود، فردّه وما أمكنه من أموال الناس. واعتذر عن بقية ما أخذوه بافتراقه عن الناس».

١٩ - تغلب قواد الديلم على أعمال الخليفة

منذ افتتاح بلادهم طبرستان وجرجان وسارية وآمد وأستراباذ، اعتنق الديلم الدين الإسلامي على يد الأطروش الذي جمعهم وملك بهم طبرستان السنة إحدى وثلاثمائة. ثمّ ملك بعده أولاده وصهره الحسن بن قاسم، وكانت بين بني سامان وبني الأطروش وقواد الديلم حروب عديدة بسبب تولية بني سامان خراسان.

ثمّ وقعت حرب مع بني سامان تولاها من قواد الديلم «شرخاب بن بهبودان» قائد جيش أبي الحسن الأطروش ضد «سيمجور» قائد جيش بني سامان. فانتصر بنو سامان وقتل شرخاب، فولى ابن الأطروش القائد «ما كان بن كالي»

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٧٩٤ - ٧٩٥.

(٢) أي سنة ٣١٩هـ.

أستراباذ، فاجتمع إليه الديلم واستولى على جرجان.

ثمّ استولى «أسفار شيرويه» الديلمي على طبرستان ومعه مرداويج بعد أن كان قد ملك جرجان.

وكان الحسن بن القاسم الداعي قد استولى على الري وأعمالها من بني سامان ومعه قائده «ماكان بن كالي». فلما تغلب أسفار على طبرستان زحف الداعي وقائده عليه فانهزما وقتل الداعي بعد أن اقتتلا قتالاً شديداً.(١)

ثمّ سار أسفار إلى الري فاستولى عليها وعلى سائر أعمالها وعلى قزوين وزنجان وأبهر وقم والكرخ، وكبرت جيوشه فحدثته نفسه بالملك فانتفض على صاحب خراسان نصر بن سامان وقصد حربه وحرب الخليفة.(٢)

بعث الخليفة قائده هارون بن غريب الخال في جيش كبير إلى قزوين فجرت معركة عنيفة بينه وبين أسفار الذي هزم جيش الخليفة وقتل الكثير من أصحابه. ثمّ زحف إليه نصر بن سامان من بخارى فراسله في الصلح وضمان أموال الجباية، فأجابه وولاه وعاد إلى بخارى.(٣)

وهكذا عظم أمر أسفار فأرسل قائده مرداويج إلى «سلار» صاحب سميرم يدعوه إلى طاعته، فاتفق القائد مع سلار على الوثوب بأسفار مع جماعة من قواد أسفار. وبلغ الخبر أسفار فهرب إلى بيهق ثمّ إلى الري. لحقه مرداويج واعترض طريقه وقتله وعاد إلى الري، ثمّ إلى قزوين، وافتتح البلدان وأخذ همذان والدينور وقم وقاشان وأصبهان وجرجان.(٤)

وعظم أمر مرداويج واستولى على بلد الري والجبل واجتمع إليه الديلم وكثرت جيوشه، فأرسل الخليفة هارون بن غريب في جيش كبير، فاعترضه مرداويج في همذان حيث جرت معركة عنيفة انتصر فيها الأخير.

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٤٣.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨٠١.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٤٣ – ٤٥.
(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨٠٢.

وسار هارون إلى قرقيسيا وطلب مدداً من الخليفة. ثمّ قدم مرداويج أصبهان في أربعين أو خمسين ألفاً وبعث جيشاً إلى الأهواز فاستولى عليها، واحتلّ خوزستان وجبى أموالها. ثمّ أرسل إلى المقتدر يطلب ولاية المناطق التي سيطر عليها على مائتي ألف دينار كلّ سنة، فأجابه الخليفة إلى ذلك وولاّه تلك البلاد وذلك سنة تسع عشرة وثلاثمائة.(١)

٢٠ - شغب الرجّالة في بغداد

في السنة الثامنة عشرة وثلاثمائة عظم شر الرجّالة في جيش بغداد وقوي أمرهم فشغبوا على الخليفة وطالبوا بأرزاقهم وأدخلوا فيها أولادهم وأهاليهم ومعارفهم وأثبتوا أسماءهم فصار لهم في الشهر مائة وثلاثون ألف دينار.(٢)

أكمل ابن الأثير رواية شغب الرجالة وصولاً إلى إخضاعهم من قِبَل مؤنس الخادم، فكتب:(٣)

«واتفق أن شغب الفرسان في طلب أرزاقهم فقيل لهم: إن بيت المال فارغ وقد انصرفت الأموال إلى الرجالة؛ فثار بهم الفرسان فاقتتلوا، فقتل من الفرسان جماعة. واحتجّ المقتدر بقتلهم على الرجالة، وأمر محمد بن ياقوت فركب، وكان قد استعمل على الشرطة، فطرد الرجالة عن دار المقتدر ونوديَ فيهم بخروجهم عن بغداد ومن أقام قبض عليه وحبس. وهُدِمت دُورُ غرمائهم، وقُبضت أملاكهم، وظفر بعد النداء بجماعة منهم فضربهم وحلق لحاهم وشهّر بهم. وهاج السودان تعصباً للرجالة فركب محمد أيضاً في الحجرية وأوقع بهم وأحرق منازلهم فاحترق فيها جماعة كثيرة منهم ومن أولادهم ومن نسائهم. فخرجوا إلى واسط

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٤٧.

(٢) في صلة تاريخ الطبري: «وانضوى إليهم من لم يكن منهم وزادت عدتهم على عشرين ألفاً...»
- المستند: ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٧٦.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٥٩.

واجتمع بها منهم جمع كثير وتغلّبوا عليها وطرحوا عامل الخليفة. فسار إليهم مؤنس فأوقع بهم وأكثر القتل فيهم فلم تقِم لهم بعدها راية».

٢١ - الوحشة بين الخليفة المقتدر والقائد مؤنس

كانت للقائد مؤنس المظفر أهمية كبرى في عهد المقتدر. وهذا ما دفع الخليفة إلى استبدال الوزير أبي علي محمد بن مُقلة بعد أن لمس ميلاً منه إلى مؤنس. لكن هذا الأخير رفض توزير الحسن بن قاسم بن عبدالله، فاضطرّ الخليفة المقتدر إلى القبول بمن فرضه القائد مؤنس وهو سليمان بن الحسن. وهذا الأمر أظهر مدى تأثير مؤنس المظفر.(١)

كتب ابن كثير واصفاً خروج مؤنس إلى الحج:(٢)

«خرج مؤنس الخادم إلى الحج في جيش كثيف سنة تسع عشرة وثلاثمائة، ففرح المسلمون بذلك وزينت بغداد يومئذ وضربت الخيام والقباب لمؤنس الخادم...».

إن هذه المرتبة من الأهمية التي بلغها مؤنس جعلت الوحشة تشتد بينه وبين الخليفة المقتدر.(٣)

نقل ابن الأثير رواية عن فرض مؤنس أيضاً على الخليفة استبعاد محمد بن ياقوت عن الشرطة والحسبة إذ كتب:(٤)

«في السنة تسع عشرة وثلاثمائة تجدّدت الوحشة بين مؤنس المظفر وبين المقتدر بالله، وكان سببها أن محمد بن ياقوت كان منحرفاً على الوزير سليمان ومائلاً إلى الحسين بن القاسم. وكان مؤنس يميل إلى سليمان بسبب عليّ بن عيسى وثقتهم به. وقَوِيَ أمر محمد بن ياقوت وقُلّد مع الشرطة الحسبة، وضمّ إليه رجالاً فقوي

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٧٩.
(٢) ابن كثير، المرجع نفسه، ص ١٧٨ - ١٧٩.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨١٧.
(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٦٤.

بهم. فعظم ذلك على مؤنس وسأل المقتدر صرف محمد عن الحسبة، وقال: «هذا شغل لا يجوز أن يتولاّه غير القضاة والعدول». فأجابه المقتدر. وجمع مؤنس إليه أصحابه، فلما فعل ذلك جمع ياقوت وابنه الرجال في دار السلطان وفي دار محمد بن ياقوت. وقيل لمؤنس: «إن محمد بن ياقوت قد عزم على كبس دارك ليلاً». ولم يزل به أصحابه حتى أخرجوه إلى باب الشماسية فضربوا مضاربهم هناك، وطالب المقتدر بصرف ياقوت عن الحجْبة وصرف ابنه عن الشرطة وإبعادهما عن الحضرة فأخرجا إلى المدائن».

ولّما عزل سليمان بن الحسن عن الوزارة أشار القائد مؤنس على الخليفة بتوزير أبي القاسم الكلوذاني، فاضطر المقتدر إلى تنفيذ ذلك رغم أنه كان يفضّل توزير الحسين بن قاسم.[١]

٢٢ – مقتل الخليفة المقتدر

أخيراً وقع الحدث الذي أدى إلى مقتل الخليفة، وهو توزير الحسن بن القاسم خلافاً لرغبة القائد مؤنس، ما دفع بهذا الأخير للخروج وإعلان الحرب على الخليفة، وكان ذلك في السنة العشرين والثلاثمائة.

لخص ابن كثير الأحداث التي أدت إلى مقتل الخليفة المقتدر، فكتب:[٢]

«فيها[٣] كان مقتل المقتدر بالله الخليفة، وكان سبب ذلك أن مؤنساً الخادم خرج من بغداد في المحرم منها مغاضباً الخليفة في مماليكه وحشمه، متوجهاً نحو الموصل. وردّ من أثناء الطريق مولاه يسري إلي المقتدر ليستعلم له أمره، وبعث معه رسالة يخاطب بها أمير المؤمنين ويعاتبه في أشياء. فلما وصل أمَرَ الوزير، وهو الحسين بن القاسم وكان من أكبر أعداء مؤنس، بأن يؤديها إليه فامتنع من أدائها إلاّ إلى الخليفة. فأحضره بين يديه

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ٦٤.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٨٠ – ١٨٢.

(٣) أي في سنة ٣٢٠هـ.

وأمره بأن يقولها للوزير فامتنع، وقال: ما أمرني بهذا صاحبي. فشتمه الوزير وشتم صاحبه مؤنساً، وأمر بضربه ومصادرته بثلاثمائة ألف دينار، وأخذ خطه بها، وأمر بنهب داره. ثمّ أمر الوزير بالقبض على أقطاع مؤنس وأملاكه وأملاك من معه، فحصل من ذلك مال عظيم. وارتفع أمر الوزير عند المقتدر، ولقبه عميد الدولة، وضرب اسمه على الدراهم والدنانير، وتمكّن من الأمور جداً، فعزل وولّى، وقطع ووصل أياماً يسيرة، وفرح بنفسه حيناً قليلاً. وأرسل إلى هارون بن غريب الخال، وإلى محمد بن ياقوت يستحضرهما إلى الحضرة عوضاً عن مؤنس. فصمّم المظفر مؤنس في سيره فدخل الموصل، وجعل يقول لأمراء الأعراب: إن الخليفة قد ولاني الموصل وديار ربيعة. فالتف عليه منهم خلق كثير، وجعل ينفق فيهم الأموال الجزيلة، وله إليهم قبل ذلك أيادي سابغة[1]. وقد كتب الوزير إلى آل حمدان - وهم ولاة الموصل وتلك النواحي - يأمرهم بمحاربته، فركبوا إليه في ثلاثين ألفاً، وواجههم مؤنس في ثمانمائة من مماليكه وخدمه، فهزمهم ولم يقتل منهم سوى رجل واحد، يقال له داود، وكان من أشجعهم، وقد كان مؤنس رباه وهو صغير. ودخل مؤنس الموصل فقصدته العساكر من كلّ جانب يدخلون في طاعته، لإحسانه إليهم قبل ذلك، من بغداد والشام ومصر والأعراب، حتى صار في جحافل من الجنود. وأما الوزير المذكور فإنه ظهرت خيانته وعجزه فعزله المقتدر في ربيع الآخر منها، وولى مكانه الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات، وكان آخر وزراء المقتدر. وأقام مؤنس بالموصل تسعة أشهر، ثمّ ركب في الجيوش في شوال قاصداً بغداد ليطالب المقتدر بأرزاق الأجناد وإنصافهم. فسار، وقد بعث بين يديه الطلائع، حتى جاء فنزل بباب الشماسية ببغداد، وقابله عنده ابن ياقوت وهارون بن عريب عن كره منه. وأشير على الخليفة أن يستدين من والدته مالاً ينفقه في الأجناد، فقال: لم يبق عندها شيء. وعزم الخليفة على الهرب إلى واسط، وأن يترك بغداد إلى مؤنس حتى يتراجع أمر الناس ثمّ يعود إليها. فردّه عن ذلك ابن

(١) أيادٍ سابغة: أي منعمة ومتفضّلة.

ياقوت وأشار بمواجهته لمؤنس وأصحابه، فإنهم متى رأوا الخليفة هربوا كلّهم إليه وتركوا مؤنساً. فركب وهو كاره وبين يديه الفقهاء ومعهم المصاحف المنشورة، وعليه البردة والناس حوله، فوقف على تلّ عال بعيد من المعركة. ونودي في الناس: من جاء برأس فله خمسة دنانير، ومن جاء بأسير فله عشرة دنانير. ثمّ بعث إليه أمراؤه يعزمون عليه أن يتقدّم فامتنع من التقدّم إلى محلّة المعركة. ثمّ ألحّوا عليه فجاء بعد تمنّع شديد، فما وصل إليهم حتى انهزموا وفرّوا راجعين، ولم يتلفّتوا إليه ولا عطفوا عليه، فكان أول من لقيه من أمراء مؤنس علي بن بليق. فلمّا رآه ترجّل وقبّل الأرض بين يديه وقال: لعن الله من أشار عليك بالخروج في هذا اليوم. ثمّ وكّل به قوماً من المغاربة البربر، فلما تركهم وإياه شهروا عليه السلاح، فقال لهم: ويلكم أنا الخليفة. فقالوا: قد عرفناك يا سفلة، إنما أنت خليفة إبليس، تنادي في جيشك من جاء برأس فله خمسة دنانير؟ وضربه أحدهم بسيفه على عاتقه فسقط إلى الأرض، وذبحه آخر وتركوا جثّته، وقد سلبوه كلّ شيء كان عليه، حتى سراويله. وبقي مكشوف العورة مجندلاً على وجه الأرض، حتى جاء رجل فغطّى عورته بحشيش ثمّ دفنه في موضعه وعفا أثره. وأخذت المغاربة رأس المقتدر على خشبة قد رفعوها وهم يلعنونه. فلما انتهوا به إلى مؤنس، ولم يكن حاضراً الوقعة، فحين نظر إليه لطم رأس نفسه ووجهه وقال: ويلكم، والله لم آمركم بهذا، لعنكم الله، والله لنقتلن كلنا. ثمّ ركب ووقف عند دار الخلافة حتى لا تنهب، وهرب عبد الواحد بن المقتدر وهارون بن عريب، وأبناء رايق، إلى المدائن. وكان فعل مؤنس هذا سبباً لطمع ملوك الأطراف في الخلفاء، وضعف أمر الخلافة جداً، مع ما كان المقتدر يعتمده في التبذير والتفريط في الأموال، وطاعة النساء، وعزل الوزراء، حتى قيل إن جملة ما صرفه في الوجوه الفاسدة ما يقارب ثمانين ألف ألف دينار».

٢٣ – الدروس والعِبَر والنتائج

أ – قيل:

«إذا كانَ رَبُّ البيتِ بالدفِّ مُولعاً
فَشِيمَةُ أهلِ البَيتِ كُلُّهمُ الرَقصُ»

يصف هذا البيت حال الخلافة العباسية في عهد المقتدر الذي كان صغير السن ومولعاً بملذاته. أما مقاليد الحكم فكانت بيد أمه وخدمه. ولما كان الوضع العسكري انعكاس للوضع السياسي، فقد تراجعت إنجازات الدولة العباسية العملانية وخرجت عن سلطتها مناطق فارس وسجستان وخراسان والري، وعاد القرامطة للظهور على المسرح العسكري، فهاجموا مكّة وانتزعوا منها الحجر الأسود. وفي مصر قامت الخلافة الفاطمية واستقلّت عن العباسيين. وحصلت ثورات عدّة في عهد المقتدر.

أخيراً، دبّ الخلاف بينه وبين القائد مؤنس الذي أعلن الحرب عليه وقتله.

ب - منذ بداية عهد المقتدر بدأ القادة الأتراك يتدخلون في تغيير الخلفاء إذ اجتمعت جماعة منهم وقررت خلع الخليفة والبيعة إلى عبدالله بن المعتز. لكن القادة مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وغريب الخال رفضوا ذلك وهاجموا دار ابن المعتز رغم قبول المقتدر خلع نفسه.

وهكذا تدخّل القادة العسكريون في الأمور السياسية للدولة فانصرفوا عن مهمتهم العسكرية وتراجع أداؤهم العملاني.

قيل: «يجب أن يكون للدولة جيش يتبع سياستها، وليس عليها أن تتبع سياسة جيشها».(١)

فالاستراتيجية العامة تتعلّق بتوجيه الحرب، وهي من اختصاص رؤساء الدول الذين يحدّدون أهداف الحرب ويوزعون المهمات طبقاً للوسائل. أما الاستراتيجية العسكرية فتتعلّق بإدارة الحرب فقط، وهي من اختصاص القيادات العليا التي تترجم توجيهات الحكومات وتنفذها.

هذه المبادىء الاستراتيجية لم تكن محترمة في عهد المقتدر. لذلك ساد الدولة اهتزاز واضطراب ومشاكل وحروب أهليه. هذا الوضع غير المستقر ساهم في قيام أهم وأكبر دولة شيعية في شمال أفريقيا، أي الدولة الفاطمية التي انتقلت إلى مصر وأصبحت خلافة شيعية مستقلّة.

---

(١) أيريك موريز، مدخل إلى التاريخ العسكري، تعريب أكرم ديري والمقدم هيثم الأيوبي، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٧٠، ص ٣٠.

لذلك، فإن الفراغ في السلطة المركزية أدى إلى قيام دولة إسلامية مستقلّة عن الخلافة قويت وتوسّعت إلى أن أصبحت أقوى من الدولة المركزية؛ وسيطرت على بلاد الشام والبحر المتوسّط وشمال إفريقيا، وغزت أساطيلها جزر البحر المتوسط، وهددت جيوشها عاصمة الخلافة العباسية بغداد.

أما المسيرة العسكرية التي نفذها أبو عبدالله الشيعي وصولاً إلى إقامة دولته في شمال إفريقيا، فقد طبّق خلالها قواعد حشد القوى والشدّة والاستمرارية، وملاحقة الهدف بكلّ الوسائل، وفتح المدن والحصون.

وخلال المعركة ضد إبراهيم بن أبي الأغلب، ورغم عدم تطبيقه مبدأ الحرب الأول (نسبية الأهداف للوسائل)، فان أبا عبدالله حقق مبدأَيْ الحرب الثاني (حرية العمل) والثالث (الحصيل الأقصى للوسائل) بإرساله سرية من جنده لنصب كمين ومهاجمة مؤخرة خصمه الذي فُوجىء وهُزم.

وهكذا قامت الخلافة الفاطمية في شمال أفريقيا قبل أن يفتح قائدها جوهر الصقلي مصر.

ج - خلال القتال في فارس أخطأ القائد الليث بن أبي الليث في العمليات التي نفذها إذ إنه:

* وزع قواته ففقد تفوّقه العددي وأخلّ بمبدأ الحرب الأول.

* سار مع جيشه في طريق مجهولة فهلك أكثر دوابه وفقد حرية عمله (مبدأ الحرب الثاني).

* وصل خطأ إلى معسكر خصمه ظناً منه أنه معسكره، فوقع في الفخ وأخلّ بمبدأ الحرب الثالث (الحصيل الأقصى للوسائل) إذ إنه اضطر لمواجهة خصمه الذي فرض زمان المعركة وانتصر.

د - خرج الحسين بن حمدان على السلطة المركزية في ديار ربيعة فجرى قتال بينه وبين جيشين للخلافة أُرسلا نحوه الواحد إثر الآخر، فأخطأ في إدارة القتال لاسيما في الأمور الآتية:

* حاصر بعشرين ألف جيش الخلافة بقيادة رائق الكبير وعدده أربعة آلاف دون أن يتمكن من حسم المعركة بسرعة وقبل وصول التعزيزات إلى خصمه.

* عرض عليه رائق توليته على المناطق

التي استولى عليها فرفض مخلاً بالمبدأ الاستراتيجي الذي ينص على أن «الحرب هي متابعة السياسة بوسائل أخرى»، وأنه ينبغي وقف الأعمال العسكرية عند تحقيق الهدف السياسي. وكان هدفه الاحتفاظ بالولاية على البلاد التي بيده.

* بعد ان تفرّق الجند عنه، تابع القتال مخلاً بمبدأ الحرب الأول أي نسبية الأهداف للوسائل.

إن عدم تطبيق الحسين لمبادىء الحرب وقواعد الاستراتيجية العامة أدى إلى هزيمته.

هـ - خلال الصراع بين العباسيين والفاطميين للسيطرة على مصر، دخل عنصر جديد في الصراع هو الأساطيل البحرية إذ جرت معركة عنيفة بين أسطول طرطوس والأسطول الفاطمي انتصر فيه الأسطول الشامي. هذا الانتصار حسم الحرب بين المتخاصمين رغم أن المعارك البرية تتابعت بعد ذلك وانتصر فيها الجيش العباسي أيضاً.

ورغم مبادرتهم بالهجوم على مصر، أخلّ الفاطميون بمبدأ الحرب الأول إذ إن الخلافة العباسية كانت ما تزال تسيطر بقوة على مصر، ويتوفر لديها جيش كبير وأسطول قوي وقادة مجربون. لذلك تمكّنت من الانتصار وردّ الجيش الفاطمي عن مصر التي سيعود مرّة أخرى لغزوها بقيادة جوهر الصقلي وسينجح في إخراجها من التبعية للخلافة العباسية.

ملحق رقم ٦

القتال ضد الروم في عهد المقتدر

في السنة السادسة والتسعين والمائتين خلع الخليفة المقتدر على مؤنس المظفر الخادم وأمره بالمسير إلى غزو الروم، فسار في جيش كبير من ناحية ملطية فظفر بهم وغنم وأسر منهم جماعة.(١)

وفي السنة التالية غزا القاسم بن سيما بلاد الروم في الصائفة.

وفي السنة التاسعة والتسعين والمائتين غزا رستم أمير الثغور الصائفة من ناحية طرطوس ومعه دميانة، فحاصر حصن مليح الأرمني. ثمّ دخله وأحرقه.(٢)

وفي السنة إحدى وثلاثمائة غزا الحسين بن حمدان الصائفة ففتح حصوناً كثيرة من بلاد الروم وقتل من الروم عدداً كبيراً.(٣)

وفي السنة التالية توجّه الوزير علي بن عيسى في ألفي فارس إلى طرطوس تعزيزاً لواليها بشر الخادم ولغزو الصائفة، فلم يتيسّر لهما غزوها، فهاجما بلاد الروم شاتية في برد شديد وثلج. لكن الشاتية أعطت نتائج جيدة، إذ غنم المسلمون عدداً من الحصون وأسروا من البطارقة مائة وخمسين، وسبوا ألفي رأس.(٤)

---

(١) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٧٢.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤٧١.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٢٩.
(٤) الطبري، مرجع سابق، جزء ٥، ص ٦٧٩.

وفي السنة الثالثة والثلاثمائة أغار الروم على الثغور الجزرية، وقصدوا حصن منصور وسبوا من فيه، فيما كان جند الخليفة منهمك بأمر عصيان الحسين بن حمدان. كما ظهر الروم وعليهم قائد يسمى «الغثيط»، فأوقعوا بجماعة من جند طرطوس فقتلوا منهم زهاء ستمائة فارس.(١)

وفي السنة أربع وثلاثمائة سار مؤنس المظفر بالصائفة، فلما بلغ الموصل قلّد سبك المفلحي بازندي وقردي من أعمال الفرات، وقلّد عثمان العنزي مدن بلد وباعيناثا وسنجار، ووصيفاً البكتمري باقي بلاد ربيعة. وسار مؤنس إلى ملطية فدخلها وكتب إلى علي بن أحمد بن بسطام أن يغزو من طرطوس في أهلها، ففعل. وفتح مؤنس حصوناً كثيرة للروم وغنم وسبى ورجع إلى بغداد حيث أكرمه الخليفة وخلع عليه.(٢)

وفي السنة التالية بعث ملك الروم رسولين إلى المقتدر طالباً الفداء فكلف الخليفة مؤنساً الخادم بتحضير الفداء وتنفيذه وجعله أميراً على كلّ بلد يدخله. وسيّره في جيش كبير وأغدق الأرزاق على جنده وأرسل معه مائة وعشرين ألف دينار للفدية.(٣)

وفي السنة نفسها غزا الصائفة جنا الصفواني فغنم وسبى، كما غزا ثمال الخادم بحراً وغنم.

وفي السنة ست وثلاثمائة غزا بشر الأفشيني بلاد الروم، فافتتح حصوناً عديدة وغنم غنائم كثيرة. وغزا ثمال في البحر أيضاً بلاد الروم فاصطدم بأسطول المهدي في البحر المتوسط حيث جرى قتال انتصر فيه الأسطول العباسي. وغزا براً محمد بن نصر الحاجب من الموصل إلى قاليقلا فأصاب من الروم غنائم كثيرة. كما سار أهل طرطوس من ملطية ودخلوا بلاد الروم فظفروا وعادوا.(٤)

وفي السنة إحدى عشرة وثلاثمائة غزا مؤنس المظفر بلاد الروم ففتح حصوناً عدة.

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤٩٠.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨٠٦.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٤٩٨.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨٠٧.

وغزا ثمال بحراً فغنم من السبي ألفي رأس، ومن الدواب ثمانية آلاف رأس، ومن الغنم مائتي ألف رأس، ومن الذهب والفضة شيئاً كثيراً.(١)

وفي السنة التالية ورد رسول ملك الروم على الخليفة بهدايا كثيرة، وطلب من المقتدر الهدنة وتقرير الفداء، فأجيب إلى ذلك. ثمّ غَدَرَ الروم بالصائغة فدخل المسلمون بلادهم وانتصروا عليهم وأوقعوا فيهم العديد من القتلى والجرحى.(٢)

وفي السنة ثلاث عشرة وثلاثمائة كتب ملك الروم إلى أهل الثغور يأمرهم بحمل الخراج إليه وإلا قصدهم وقتل رجالهم، فلم يفعلوا، فسار إليهم وخرّب البلاد. ودخل ملطية في السنة التالية فأخربها وسبى كثيرين منها.(٣)

وفي السنة خمس عشرة وثلاثمائة هاج الروم وقصدوا الثغور ودخلوا سميساط وغنموا ما فيها من مال وسلاح وعتاد. وخرج المسلمون في أثرهم وقاتلوهم وانتصروا عليهم وغنموا ما في أيديهم.(٤)

وفي السنة نفسها خرجت سرية من طرطوس إلى بلاد الروم فاصطدمت بجيش للعدو ونشب قتال عنيف انتصر فيه الروم وأسروا أربعمائة رجل مسلم وقتلوهم. ثمّ قدم الدمستق في جيش كبير للروم إلى مدينة ديبل وقائدها نصر السبكي، فحاصرها واستعمل المجانيق والكباش والأبراج ورماها بالنار، فكانت موقعة شديدة على المسلمين صبر خلالها أهل المدينة.(٥)

ثمّ وصل الروم إلى سور المدينة فنقبوه ودخلوها، حيث جرى قتال مع أهلها من بيت إلى بيت شارك فيه جندها الذين ابلوا بلاءاً حسناً، انتصر في نهايته المسلمون وأخرجوا الروم منها بعد أن قتل من الروم عشرة آلاف مقاتل.(٦)

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٦.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨٠٧.

(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٦٥.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣١.

(٥) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨٠٨.

(٦) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٣٦.

وفي السنة ست عشرة وثلاثمائة خرج الدمستق في جيش كبير من الروم إلى أرمينيا فحاصر «خلاط» وملكها صلحاً وجعل صليباً مكان المنبر في جامعها، وفعل الأمر نفسه في «تدنيس». وخاف أهل أرزن وغيرهم ففارقوا بلادهم وانحدر أعيانهم إلى بغداد واستغاثوا بالخليفة، فلم يُغثهم.(١)

وفي السنة نفسها وصل سبعمائة رجل من الروم والأرمن إلى ملطية ومعهم الفؤوس والمعاول وتظاهروا بأنهم يتكسّبون بالعمل. ثمّ تبيّن أن القائد مليحاً الأرمني أرسلهم ليكونوا عوناً له إذا حصرها فيسلّموها له. فعلم أهل ملطية بذلك فقتلوهم وأخذوا ما معهم.(٢)

وفي السنة السابعة عشرة والثلاثمائة ضعفت الثغور الجزرية(٣) عن دفع الروم عنهم، ومنها ملطية وميافارقين وآمد وأرزن وغيرها. وعزموا على طاعة ملك الروم والتسليم إليه لعجز الخليفة عن نصرتهم. وأرسلوا إلى بغداد يستأذنون في التسليم ويستمدّون العسكر، فلم يحصلوا على نتيجة.(٤)

وفي السنة العشرين والثلاثمائة، غزا المسلمون بقيادة ثمال والي طرطوس بلاد الروم، فعبروا نهراً، ونزل عليهم ثلج إلى صدور الخيل. وأتاهم جمع كثير من الروم فواقعهم، فانتصر المسلمون، فقتلوا من الرّوم ستمائة وأسروا نحواً من ثلاثة آلاف، وغنموا من الذّهب والفضّة والدّيباج وغيرها شيئاً كثيراً.

وفي رجب، عاد ثمال إلى طرسوس ودخل بلاد الروم صائفة في جمع كثير من الفرسان والرجّالة، فبلغوا عمورية، وكان قد تجمّع إليها كثيرٌ من الروم، ففارقوها لما سمعوا خبر ثمال. ودخلها المسلمون فوجدوا فيها من الأمتعة والطعام شيئاً كثيراً فأخذوه وأحرقوا ما كانوا عمروه منها.(٥)

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨٠٨.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٤٨.

(٣) نسبة إلى جزيرة.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٥٧.

(٥) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨٠٩.

وأوغلوا في بلاد الروم ينهبون ويقتلون ويخرّبون حتى بلغوا انقرة، وعادوا سالمين لم يلقوا كيداً. فبلغت قيمة السبي مائة وستة وثلاثين ألف دينار، وكان وصولهم إلى طرطوس آخر رمضان.(١)

وفيها راسل ابن الديراني وغيره من الأرمن وهم بأطراف أرمينيا الروم وحثوهم على قصد بلاد الإسلام ووعدوهم النصرة، فسارت الروم في خلق كثير فخربوا بزكرى وبلاد خلاط وما جاورها، وقُتِل من المسلمين خلقٌ كثير وأسروا كثيراً منهم. فبلغ خبرهم مُفلحاً غلام يوسف ابن أبي السّاج - وهو والي أذربيجان - فسار في عسكر كبير وتبعه كثير من المتطوعة إلى أرمينيا فوصلها في رمضان. وقصد بلد ابن الديراني ومن وافقه لحربه وقتل أهله ونهب أموالهم. وتحصّن ابن الديراني بقلعة له وبالغ الناس في كثرة القتلى من الأرمن حتى قيل إنهم كانوا مائة ألف قتيل. وسارت عساكر الروم إلى سميساط فحصروها فاستصرخ أهلها بسعيد بن حمدان وكان المقتدر قد ولاه الموصل وديار ربيعة وشَرَطَ عليه الروم أن يستنقذ ملطية منهم. وكان أهلها قد ضعفوا فصالحوا الروم وسلموا مفاتيح البلد إليهم، فحكموا على المسلمين. فلما جاء رسول أهل سميساط إلى سعيد بن حمدان تجهّز وسار إليهم مسرعاً فوصل وقد كاد الروم يفتحونها، فلما قاربهم هربوا منه. وسار منهم إلى ملطية وبها جمع من الروم ومن عسكر مليح الأرمني، ومعهم بني بن نفيس صاحب المقتدر، وكان قد تنصّر، وهو مع الروم. فلمّا أحسّوا بإقبال سعيد خرجوا منها وخافوا أن يأتيهم سعيد في عسكره من خارج المدينة ويثور أهلها بهم فيهلكوا ففارقوها. ودخلها سعيد، ثمّ استخلف عليها أميراً وعاد عنها، فدخل بلد الروم غازياً في شوّال وقدم بين يديه سريتين فقتلا من الروم خلقاً كثيراً قبل دخوله إليها.(٢)

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٦٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ٦٩ - ٧٠.

الفصل العاشر

العمليات العسكرية في أواخر العصر العباسي الثاني

توالى على الخلافة في العصر العباسي الثاني، بعد المقتدر، ثلاثة خلفاء هم:

- القاهر بالله (٣٢٠ - ٣٢٢هـ)
- الراضي بالله (٣٢٢ - ٣٢٩هـ)
- المتقي بالله (٣٢٩ -٣ ٣٣هـ)

فلما قتل المقتدر بالله عظم مقتله على القائد مؤنس المظفّر فرأى وجوب تنصيب ابنه أبي العباس أحمد كونه كان قد رباه بنفسه. اعترض على ذلك أبو يعقوب إسحاق بن إسماعيل النوبتجي خوفاً من عودة سيطرة النساء على الخلافة أسوة بعهد المقتدر. أجابه مؤنس إلى ذلك، فبويع القاهر بالله محمد بن أحمد المعتضد يوم الخميس لليلتين بقيتا من شوال السنة عشرين وثلاثمائة، فاستوزر أبا علي بن مقلة.(١)

صادر القاهر كلّ أملاك حاشية المقتدر وأصحابه وحبس والدة المقتدر طالباً منها الأموال التي بحوزتها فامتنعت عن ذلك، فتمّ بيع كلّ أملاكها من الجند.(٢)

وهكذا نرى أن الدور الرئيسي في اختيار الخليفة كان للقادة العسكريين، خاصة مؤنس الخادم والنوبتجي.

وكان الخليفة القاهر شديد البطش متقلّباً ومتلوّناً، فأباد جماعة من أهل الدولة، منهم مؤنس الخادم وبليق وعلي بن بليق، فهابه الناس وخشوا صولته.(٣)

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٨٣.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨١٩.

(٣) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٣٥١ - ٣٥٢.

ومن أخبار قسوته أنه أُحضر إليه يوماً رجل كان يقطع الطرق، فضرب بين يديه ألف سوط، ثمّ ضربت عنقه وقطعت أيدي أصحابه وأرجلهم. واتخذ حربة عظيمة كان يحملها في يده إذا سعى في داره ويطرحها بين يديه في حال جلوسه، ويباشر الضرب بها لمن يريد قتله.[١]

تآمرت عليه جماعة الساجية[٢] والحجرية[٣] للإطاحة به بعد ان علمتا أنه أخذ يحضّر المطامير[٤] للفتك بهم. لكن القاهر عرف بما أضمروا فألقى القبض على زعمائهم وقتلهم جميعاً.[٥]

هذه الأساليب العنيفة والقاسية أدت إلى انتفاض الجند عليه وعزله، وهذا ما سنتكلّم عنه لاحقاً.

١ – مقتل القائدين مؤنس وبليق[٦]

في السنة إحدى وعشرين وثلاثمائة استوحش القائدان مؤنس وبليق من القاهر وضيّقوا عليه، وذلك بسبب تقريب الخليفة لمحمد بن ياقوت الذي راح يسعى لديه ضدهما. لذلك اتفق القائدان على الإيقاع بمحمد بن ياقوت، فوجّه مؤنس علياً بن بليق لإحضار محمد، فوجده قد اختفى. ثمّ كلّف علياً بن بليق بالتضييق على دار الخليفة وتفتيش كلّ من يدخلها أو يخرج منها وأن يكشف وجوه النساء المحجبات، فإن وجد مع أحد رقعة دفعها إلى مؤنس.[٧]

فعل علي ذلك وزاد عليه، حتى أنه حمل

---

(١) المسعودي، المرجع نفسه، جزء ٤، ص ٣٥١.
(٢) جماعة الساجية: أتباع يوسف بن أبي الساج.
(٣) جماعة الحجرية: فرقة من الحرس الخاص في قصور الخلفاء كانوا يقيمون في حجر منفردة.
(٤) المطامير: حفر تحت الأرض تعد للسجن والتعذيب.
(٥) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٨٥.
(٦) في ابن الأثير: يلبق.
(٧) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨٢١.

من كان في دار القاهر محبوساً معه وقطع أرزاق حاشيته.

علم الخليفة أن أكثر اعتماد مؤنس على الساجية فوعدهم بالموصل فتغيّرت قلوبهم على مؤنس، كما وعد غيرهم وعوداً أخرى فتغيّرت آراؤهم في مؤنس.

أخيراً ألقى الخليفة القبض على مؤنس وبليق. وقد وصف ابن كثير التدابير التي انتهت بمقتل القائدين فكتب:[1]

«ثمّ إن الوزير ومؤنساً الخادم وعلي بن بليق وجماعة من الأمراء تشاوروا فيما بينهم على خلع القاهر وتولية أبي أحمد بن المكتفي، وبايعوه فيما بينهم. وضيّقوا على القاهر بالله في رزقه، وعلى من يجتمع به، وأرادوا القبض عليه سريعاً. فبلغ ذلك القاهر، بلّغه طريف اليشكري، فسعى في القبض عليهم، فوقع في مخالبه الأمير المظفر مؤنس الخادم، فأمر بحبسه قبل أن يراه والاحتياط على دوره وأملاكه - وكانت فيه عجلة وجرأة وطيش وهوج وخرق شديد[2].

وجعل في منزلته، أمير الأمراء ورياسة الجيش، طريفاً اليشكري، وقد كان أحد الأعداء لمؤنس الخادم قبل ذلك. وقُبض على ابن بليق، واختفى ولده علي بن بليق. وهرب الوزير ابن مقلة فاستوزر مكانه أبا جعفر محمد بن القاسم بن عبيدالله، في مستهل شعبان، وخلع عليه وأمره بتحريق دار ابن مقلة. ووقع النهب ببغداد، وهاجت الفتنة، وأمر القاهر بأن يجعل أبو أحمد المكتفي بين حائطين ويسد عليه بالآجر والكلس، وهو حي، فمات. وأرسل منادي على المختفين: إن من أخفاهم قتل وخربت داره. فوُقع بعلي بن بليق بين يديه فذبح كما تذبح الشاة، فأخذ رأسه في طست ودخل به القاهر على أبيه بليق بنفسه، فوضع رأس ابنه بين يديه. فلما رآه بكى وأخذ يقبله ويترشفه، فأمر بذبحه أيضاً فذبح. ثمّ أخذ الرأسين في طستين فدخل بهما على مؤنس الخادم، فلما رآهما تشهّد ولعن قاتلهما، فقال القاهر: جرّوا برجل الكلب. فأُخذ فذُبح أيضاً وأخذ

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٨٥.

(٢) الخرق: الجهل

رأسه فوضع في طست وطيف بالرؤوس في بغداد، ونودي عليهم: هذا جزاء من يخون الإمام ويسعى في الدولة فساداً. ثمّ أعيدت الرؤوس إلى خزائن السلاح. وفي ذي القعدة منها قبض القاهر على الوزير أبي جعفر محمد بن القاسم وسجنه، وكان مريضاً بالقولنج[١]، فبقي ثمانية عشر يوماً ومات وكانت وزارته ثلاثة أشهر واثني عشر يوماً. واستوزر مكانه أبا العباس أحمد بن عبدالله بن سليمان الخصيبي. ثمّ قبض على طريف اليشكري[٢] الذي تعاون مع مؤنس وابن بليق وسجنه».

٢ – قيام دولة بني بويه

يعود أصل البويهيين إلى رجل فارسي يدعى «بويه» من الديلم من جنوب غرب بحر قزوين. لكن مؤسسي الدولة هم أولاد بويه الثلاثة:[٣]

- عماد الدولة أبو علي الحسن.
- ركن الدولة أبو علي الحسن.
- معز الدولة أبو الحسين أحمد.

وكان الثلاثة قد عملوا في خدمة القائد مرداويح الذي استقلّ بمنطقة طبرستان والديلم واستعمل أولاد بويه على الأعمال في البلدان، فأعطى عماد الدولة نيابة الكرج فأحسن فيها السيرة وأحبه أهلها. حاربه نائبها فهزمه عماد الدولة واستولى على أصبهان. فلما بلغ ذلك مرداويح قلق منه، فأرسل إليه جيشاً أخرجه من أصبهان، فقصد أذربيجان واستولى عليها وحصل على قدر كبير من الأموال.[٤]

ثمّ أخذ بلداناً كثيرة واشتهر أمره وحسنت سيرته، فقصده الناس واجتمع إليه عدد كبير من الجند. ولم يزل يترقّى حتى آلت الحال به وبأخويه إلى أن ملكوا بغداد من أيدي الخلفاء العباسيين، فأصبحت لهم الولاية والعزل، وإليهم تجبى الأموال، ويرجع

---

(١) القولنج: مرض يصيب المعدة.
(٢) في ابن الأثير: السبكري.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٨٦.
(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨٢٨.

إليهم في سائر الأحوال والأمور. وهذا ما سنتكلّم عنه لاحقاً.

أ - وقائع عماد الدولة بن بويه:

عندما سار عماد الدولة إلى الكرج لتسلّمها افتتح قلاعاً كانت للخرمية وظفر منها بذخائر كثيرة صرفها في استمالة الرجال، لاسيما بعض القادة الذين كانوا تابعين لمرداويح. وجبى عماد الدولة مال كرج واستأمن إليه القائد شيرزاد، وهو من أعيان الديلم، فأمّنه وقويت نفسه به. فسار مع هؤلاء القادة من كرج إلى أصبهان وبها المظفر بن ياقوت في نحوٍ من عشرة آلاف مقاتل. سار هذا الأخير عن أصبهان ثلاثة فراسخ فلقيه عماد الدولة في تسعمائة رجل فاقتتلوا قتالاً شديداً انهزم في نهايته ابن ياقوت بعد أن انضمّ ستمائة من جنده إلى ابن بويه.(١)

بلغ خبر هذه الوقعة مرداويح فاقلقه ذلك، فقرر استعمال الحيلة للتخلّص من ابن بويه، فجهز جيشاً كبيراً بقيادة أخيه والقائد وشمكير لمفاجأة ابن بويه الذي علم بالأمر فرحل عن اصبهان، بعد زن جباها شهرين، وتوجّه إلى أرجان فسيطر عليها من دون قتال. أما أصبهان فقد أوعز الخليفة القاهر إلى مرداويح ليمنع جيشه عن دخولها ولتسليمها إلى محمد بن ياقوت، ففعل.(٢)

وفي ربيع الآخر السنة إحدى وعشرين وثلاثمائة سار ابن بويه إلى النوبندنجان حيث جرى قتال بينه وبين جيش لابن ياقوت قوامه ألفا فارس انتصر فيه ابن بويه. ثمّ أرسل ابن ياقوت جيشاً آخر إلى كازرون فجرى قتال بينه وبين ابن بويه الذي انتصر أيضاً. ثمّ انتقل ابن بويه إلى اصطخر فلاحقه ابن ياقوت فجرى قتال جديد بينهما انتصر فيه أيضاً ابن بويه فاستباح معسكر ابن ياقوت وذلك في جمادى السنة اثنتين وعشرين.(٣)

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٩٠.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٨٩.

(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨٢٨ - ٨٢٩.

ب - استيلاء ابن بويه على شيراز:

في السنة الثانية والعشرين والثلاثمائة ظفر عماد الدولة بن بويه بياقوت وملك شيراز. وكان ابن ياقوت قد سبق ابن بويه إلى قنطرة على طريق كرمان ومنعه عن عبورها، مما اضطر الأخير إلى مقاتلته. وقد ساعد ابن بويه أن جماعة من أصحابه استأمنوا إلى ابن ياقوت فأمّنهم ثمّ عاد وضرب أعناقهم، فأيقن الذين مع ابن بويه أنهم لا أمان لهم إلاّ بالقتال فقاتلوا معه بعنف وقوّة.(١)

ثمّ إن ابن ياقوت قدّم أمام جيشه رجّالة كثيرين يقاتلون بقوارير النفط، فانقلبت الريح في وجوههم، فلما القوا النار عادت النار عليهم فعلقت بوجوههم وثيابهم، فأكبّ عليهم أصحاب ابن بويه فقتلوهم، ثمّ خالطوا الفرسان فانهزموا ودارت الدائرة عليهم.(٢)

كتب ابن الأثير عن نهاية القتال مع ابن ياقوت:(٣)

«فلمّا انهزم صعد على نشز مرتفع ونادى في أصحابه الرجعة، فاجتمع إليه نحو أربعة آلاف فارس فقال لهم: «اثبتوا فإنّ الدّيلم يشتغلون بالنهب ويتفرّقون فنأخذهم»، فثبتوا معه. فلما رأى ابن بويه ثباتهم نهى أصحابه عن النهب، وقال: «إن عدُوكُم يرصدكم لتشتغلوا بالنهب فيعطف عليكم ويكون هلاككم، فاتركوا هذا وافرغوا من المنهزمين، ثمّ عودوا إليه»، ففعلوا ذلك. فلما رأى ياقوت أنهم على قصده ولّى منهزماً واتّبعه أصحاب ابن بويه يقتلون ويأسرون ويغنمون الخيل والسِّلاح».

وسار ابن بويه من موضع الوقعة إلى شيراز فاستولى عليها ونادى في الناس بالأمان وأقام العدل وأعطى الجند أرزاقهم وثبت ملكه في شيراز وفارس. عند هذا الحد كتب ابن بويه إلى الراضي، وكانت الخلافة قد أفضت إليه، يعرّفه أنه على الطاعة ويطلب أن تثبت ولايته على المناطق التي افتتحها مقابل مليون درهم، فأُجيب إلى ذلك وأُنفذ إليه الخليفة الخُلع.

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٨٩.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨٢٩.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٩٤.

٣ – خلع القاهر بالله

في جمادى الأول من السنة الثانية والعشرين والثلاثمائة خُلع القاهر، وكان سبب ذلك أن الوزير أبا علي بن مقلة كان قد هرب حين قبض الخليفة على مؤنس الخادم، فاختفى في داره وراح يكاتب الجند ويغريهم بالقاهر ويخوّفهم من سطوته وشدّة بأسه.[1]

نقل ابن كثير تفاصيل خلع القاهر، فكتب:[2]

«فهيّجهم ذلك على القبض على القاهر، فاجتمعوا وأجمعوا رأيهم على مناجزته في هذه الساعة. فركبوا مع الأمير المعروف بسيما، وقصدوا دار الخلافة فأحاطوا بها. ثمّ هجموا عليه من سائر أبوابها وهو مخمور، فاختفى في سطح حمام فظهروا عليه فقبضوا عليه وحبسوه في مكان طريف اليشكري، وأخرجوا طريفاً من السجن. وخرج الوزير الخصيبي مستتراً في زي امرأة، فذهب. واضطربت بغداد ونهبت، وذلك يوم السبت لثلاث خلون من جمادى الأولى فيها.

ثمّ أمروا بإحضاره، فلما حضر سملوا عينيه حتى سالتا على خديه، وارتُكب منه أمر عظيم لم يسمع مثله في الإسلام، ثمّ أرسلوه. وكان تارة يحبس وتارة يخلى سبيله. وقد تأخر موته إلى سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة. وافتقر حتى قام يوماً بجامع المنصور فسأل الناس فأعطاه رجل خمسمائة دينار».

٤ – خلافة الراضي بالله

بويع الراضي بالله أبو العباس بن المقتدر بن المعتضد سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة فكانت خلافته ست سنين واحد عشر شهراً وثلاثة أيام.[3]

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨٣٠.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٩٠ – ١٩١.
(٣) المسعودي، مرجع سابق، جزء ٤، ص ٣٦٤.

وتفشى في عهده الفساد في الدولة العباسية وكثرت الرشاوى على المناصب بعد تحكّم الجند والنساء في تدبير شؤون الدولة. وخير دليل إلى ما وصلت إليه الدولة العباسية في أيامه أنه استوزر ابن مقلة لقاء مبلغ خمسمائة ألف دينار.

واتخذ الراضي تدابير جديدة في الدولة العباسية إذ إنه استدعى ابن رائق، والي واسط والبصرة، وسلّمه مقاليد الأمور ولقبه «أمير الأمراء» وأمر بأن يخطب له على كلّ المنابر في الدولة العباسية.[1] وهكذا دخلت الدولة العباسية في عهد الراضي مرحلة جديدة أطلق عليها «عصر أمرة الأمراء». وهذا الأمر سيجعل الأمراء يتصارعون على نيل هذا اللقب، ما جعل الأمور تسوء أكثر فأكثر في الدولة، حتى إن العامة عاثوا فيها فساداً، فانقضوا على الحمّامات العامة وأخذوا ثياب من فيها، وتفاقم خطر اللصوص في البلاد.

ورافق حال الفوضى هذه اشتداد النزاعات الدينية في بغداد، إذ قويت شوكة الحنابلة،[2] الذين أخذوا يقومون بالتفتيش المفاجىء لدور القادة والعامة للتأكد من حسن تطبيق الشريعة الإسلامية.

٥ – وفاة المهدي الفاطمي وولاية ولده أبي القاسم

في ربيع الأول من السنة الثانية والعشرين والثلاثمائة توفي المهدي الفاطمي صاحب أفريقيا وملك بعده ابنه أبو القاسم محمد، فقامت عليه جماعة فتمكّن منهم. وكان أشدّهم رجل اسمه ابن طالوت القرشي في ناحية طرابلس، ادّعى أنه ابن المهدي وزحف إلى مدينة طرابلس فقاتله أهلها وقتلوه بعد أن تبيّن للبربر كذبه.[3]

ثمّ جهز أبو القاسم جيشاً كبيراً وأرسله بقيادة ميسور الفتى إلى المغرب، حيث هزم

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٩٩.
(٢) الحنابلة نسبة إلى الامام ابن حنبل.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ٩٩.

خارجياً قرب مدينة فاس. وسيّر أيضاً جيشاً في البحر بقيادة يعقوب بن إسحاق إلى بلد الروم فسبى وغنم. ثمّ سيّر جيشاً كبيراً إلى مصر بقيادة خادمه زيدان وبالغ في تجهيزه، فدخل الإسكندرية، فخرج إليه محمد الأخشيد في جيش كبير حيث جرى قتال عنيف هزم فيه الفاطميون وأُسر عدد كبير منهم، فعادوا إلى المغرب.[1]

٦ – مقتل القائد هارون بن غريب

كان القاهر قد استعمل هاروناً بن غريب على مياه الكوفة وقصبتها الدينور وعلى ماسبذان وغيرها. فلما خلع القاهر واستخلف الراضي رأى هارون أنه أحقّ بالدولة من غيره لقرابته بالخليفة، فكاتب القواد ببغداد يعدهم بالإحسان والزيادة في أرزاقهم.[2]

ثمّ سار من الدينور إلى خانقين، مما حرّك الوزير ابن مقلة والوالي ابن ياقوت والحجرية والساخية والمؤنسية ضده فشكوه إلى الراضي الذي أعلمهم أنه كاره له وأذن لهم في محاربته.

في هذه الأثناء تقدّم هارون إلى النهروان وقام بجباية الأموال وظلم الناس، فخرج إليه القائد محمد بن ياقوت في كلّ جيوش بغداد. وتواجه الجيشان واصطدمت طلائعهما ففرّ بعض أصحاب ابن ياقوت إلى هارون. ثمّ راسله ابن ياقوت لاستمالته فلم يقبل، وقرر دخول بغداد.[3]

وهكذا تزاحف الجيشان واشتدّ القتال، فمالت الكفّة إلى عسكر هارون لكثرتهم، فانهزم جند الخليفة وتراجع واجتاز قنطرة تبريز. بلغ ذلك إلى هارون فسار نحو القنطرة في عدد قليل من جنده طلباً لقتل محمد بن ياقوت، فدخل في بعض المياه وسقط عن فرسه، فلحقه غلام لابن ياقوت فقتله وذبحه فانهزم جنده وقتل عدد من قواده وأسر عدد آخر.[4]

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٠٠.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨٣٢.

(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٠٢.

(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨٣٣.

٧ – مقتل القائد مرداويح

في السنة الثالثة والعشرين والثلاثمائة قتل القائد مرداويح بعد أن كان قد تكبّر وتجبّر ووضع لنفسه كرسياً من ذهب يجلس عليه وكراسي من فضة لأكابر قواده، وتاجاً مرصعاً على صفة تاج كسرى.[١]

وقتل مرداويح داخل حمّامه على يد الأتراك، وكان الذي تواطأ على قتله غلامه بجكم التركي. ولما قتل اجتمع الديلم وأصحابه فقرروا إطاعة أخيه القائد وشمكير بن زيار.[٢]

وعندما قتل مرداويح كان ركن الدولة بن بويه رهينة عنده فبذل للموكلين به مالاً فأطلقوه.[٣]

أما الأتراك فافترقوا إلى فرقتين، سارت الأولى إلى عماد الدولة بن بويه مع القائد جحنجح، والأخرى نحو الجبل مع القائد بجكم، وهي أكثرهم، فجبوا خراج الدينور وغيرها وساروا إلى النهروان ومنها إلى بغداد التي أذن لهم الراضي بدخولها.

٨ – استيلاء ابن حمدان على الموصل

في السنة الثالثة والعشرين والثلاثمائة قتل ناصر الدولة الحسن بن عبدالله بن حمدان أبا العلاء بن حمدان الذي كان قد ضمن الموصل، وكان ناصر الدولة نائب الموصل فخاف أن ينتزعها عمه منه. ولمّا بلغ الخبر الخليفة عظم ذلك عليه وأرسل وزيره أبا علي بن مقلة في جيوش إلى الموصل، فهرب ناصر الدولة منها.[٤] عاد الوزير إلى بغداد ورجع ناصر الدولة إلى الموصل فاصطدم جيشه بجيش القائد «ماكرد» الديلمي في معركة هزم فيها ناصر الدولة.[٥]

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٩٥.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١١١.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٩٥.
(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨٣٧.
(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١١٥.

ثمّ عاد ناصر الدولة بن حمدان وجمع جيشاً جديداً فالتقى مع ماكرد في معركة في نصيبين فانهزم ماكرد إلى الرقة. واستولى ابن حمدان على الموصل وبلادها، فكتب إلى الخليفة يسأله الصفح وتولية البلاد، فاعترف الخليفة بالأمر الواقع وأجابه إلى ذلك واستقرّت البلاد عليه.(١)

٩ – شغب الجند في بغداد

في آخر جمادى الآخرة من السنة الثالثة والعشرين والثلاثمائة، شغب الجند في بغداد وقصدوا دار الوزير أبي علي بن مقلة، فمنعهم أصحابه عن دخول الدار. احتال الجند ونقبوا دار الوزير من الوراء ودخلوها وملكوها، وهرب الوزير وابنه إلى الجانب الغربي. فلما سمع الساجية بذلك ركبوا إلى دار الوزير وردوا الجند عنها. ثمّ عاود الجند الشغب ونقبوا الدار في أماكن عدّة فقاتلهم غلمان الوزير ومنعوهم، فركب صاحب الشرطة وضبط السجون كي لا يفر المساجين، ثمّ ضبط شغب الجند.(٢)

وفي السنة التالية جاء الجند فأحدقوا بدار الخلافة وقالوا: «ليخرج إلينا الخليفة الراضي بنفسه فيصلي بالناس». فخرج فصلّى بهم وخطبهم. وقبض الغلمان على الوزير ابن مقلة وسألوا الخليفة ان يستوزر غيره، فردّ الاختيار إليهم، فاختاروا علياً بن عيسى. لم يقبل الخليفة وأشار بأخيه عبد الرحمن بن عيسى فاستوزره، وأحرقت دار الوزير ابن مقلة. ثمّ استبدل الوزير مرات عدّة بتخطيط من الأتراك والغلمان.(٣)

ملاحظة:

هذه الأحداث تظهر أهمية الأتراك والجند والغلمان في أواخر العصر العباسي الثاني، إذ إنهم كانوا يستبدلون، ليس الوزراء وحسب، إنما أيضاً الخلفاء، وهذا ما ذكرناه سابقاً.

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٩٥.
(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١١٦.
(٣) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٩٧.

١٠ - استيلاء ابن رائق على أمر الخلافة واستقلال الولايات

سبق الحديث عن استدعاء الخليفة أبي بكر محمد بن رائق والي واسط والبصرة وتسليمه مقاليد الأمور في الخلافة العباسية وتلقيبه بـ «أمير الأمراء»، والخطبة له على المنابر.

وكان الخليفة قد قلّده إمارة الجيش أيضاً وأنفذ إليه جند الساجية[١] الذين قبض ابن رائق عليهم ونهب رحلهم ومالهم. وأظهر أنه فعل ذلك لتتوافر أرزاقهم بحيث يمكنه دفع أرزاق الحجرية.[٢]

استوحش الحجرية من ذلك وخافوا أن يأتي دورهم فخيّموا في دار الخليفة. لكن ابن رائق أمرهم بنزع خيامهم فنزعوها.

وأصبح ابن رائق ينظر في كلّ الأمور ويتصرّف بكلّ الأموال، وبطلت الدواوين والوزارة.[٣]

واستقلّ نواب الأطراف فحكم ابن رائق البصرة، والبربري خوزستان، وعماد الدولة بن بويه فارس، ومحمد بن إلياس كرمان، وتنازع ركن الدولة بن بويه مع قائد الديلم وشمكير الري وأصبهان والجبل. واستقلّ ابن حمدان بالموصل وديار بكر ومضر وربيعة، ومحمد بن طفج بمصر والشام، والقاسم الفاطمي بالمغرب وأفريقيا، وعبد الرحمن الناصر بالأندلس، ونصر بن أحمد الساماني بخراسان وما وراء النهر، والديلم بطبرستان وجرجان، وأبو طاهر القرمطي بالبحرين واليمامة.[٤]

أما معزّ الدولة بن بويه فقد سار إلى كرمان في عسكر ضخم، فاستولى على السيرجان وجبى أموالها وأنفقها في عسكره، ثمّ قصد بم[٥] فملكها، ثمّ استولى على قصبة كرمان «جيرفت».

---

(١) سبق القول إن الساجية هي نسبة إلى أبي الساج.
(٢) سبق الحديث عنهم وهم فرقة من الحرس الخاص في قصر الخليفة يقيمون في حجر منفردة.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨٣٩.
(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ١٩٧ - ١٩٨.
(٥) بم: على طرف المفازة بين كرمان وسجستان.

ثمّ قرر ابن بويه محاربة علي بن الزنجي الذي كان مسيطراً على كرمان، فسار إليه في جيشه سراً كي يغدر به. لكن علياً كان حذراً ووضع العيون على جيش ابن بويه، فلما تحرّك هذا الجيش بلغته الأخبار، فجمع أصحابه ورتّبهم في مضيق على الطريق. فلما اجتاز ابن بويه بهم ثاروا به ليلاً وأحاطوا بجيشه فقتلوا منه عدداً وأسروا عدداً آخر ولم يفلت منهم إلاّ اليسير. وجرح معز الدولة فحمله خصمه إلى جيرفت وعالجه واعتذر إليه.(١)

وخاض أحمد بن بويه (معز الدولة) معارك أخرى، لخّصها ابن الأثير الذي كتب:(٢)

«ووصل الخبر إلى محمد بن إلياس بما جرى على أحمد بن بويه، فسار من سجستان إلى البلد المعروف بجنابة. فتوجّه إليه ابن بويه وواقعه ودامت الحرب بينهما عدّة أيام، فانهزم ابن إلياس وعاد أحمد بن بويه ظافراً. وسار نحو عليّ كلويه لينتقم منه، فلمّا قاربه أسرى إليه في أصحابه الرجالة، فكبسوا عسكره ليلاً في ليلة شديدة المطر فأسروا منهم وقتلوا ونهبوا وعادوا. وبقي ابن بويه باقي ليلته، فلما أصبح سار نحوهم فقتل منهم عدداً كثيراً، وانهزم عليّ كلويه. وكتب ابن بويه إلى أخيه عماد الدولة بما جرى له معه ومع ابن إلياس وهزيمته فأجابه أخوه يأمره بالوقوف بمكانه ولا يتجاوزه. وأنفذ إليه قائداً من قوّاده يأمره بالعود إليه إلى فارس ويلزمه بذلك. فعاد إلى أخيه وأقام عنده باصطخر».

١١ – نكبة الساجية والحجرية

في السنة الخامسة والعشرين والثلاثماية سار الخليفة ووزيره محمد بن رائق لقتال عبدالله بن البريدي في الأهواز، فخالفته فرقة الحجرية الذين اعتقدوا أن مسيره إن هو سوى مكيدة لضربهم. فلما غادر الخليفة بغداد فعلاً عادوا ولحقوا به. ولمّا وصلوا إلى

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٢٤.

(٢) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ١٢٥.

واسط اعترضهم الوزير ابن رائق فقتل بعضهم، فثاروا عليه، فقاتلهم قتالاً شديداً وهزمهم، وقتل منهم جماعة كبيرة فانهزموا إلى بغداد. فلما وصلوها ركب لؤلؤ صاحب الشرطة فأوقع بهم ونهب دورهم وقبض أموالهم وأملاكهم، وقطعت أرزاقهم.(١)

ولما فرغ ابن رائق من الحجرية قتل من كان قد اعتقلهم من الساجية.

١٢ - محاربة البريدي

عندما سار الخليفة الراضي إلى الأهواز قصد محاربة أبي عبدالله بن البريدي بسبب تأخير الأموال وارتكابه أعمال الاستبداد وإفساد الجيوش وتزيين العصيان لهم. وبوصوله إلى هناك طلب من البريدي تسليمه الجند الذين أفسدهم كي يقرّه على عمله.(٢)

قَبِل البريدي بما طلبه الخليفة من تجديد ضمان الأهواز له مقابل ثلاثمائة وستين ألف دينار يحمل كلّ شهر قسطه؛ وبتسليم الجيش إلى من يؤمر بتسليمه إليه ليسير به إلى قتال ابن بويه، فعاد الخليفة إلى بغداد.(٣)

لم يفِ البريدي بوعده إذ لم يرسل أموالاً للخليفة، ولم يسلّم الجيش إلى رسوله جعفر بن ورقاء، وقام الجند بشتمه وتهديده بالقتل بعد أن طلبوا أموالاً منه.

علاوة على ذلك، أراد البريدي احتلال البصرة، فأرسل جيشاً من ألفي رجل وعززه بفرقة الحجرية التي كانت قد لجأت إليه ورفض أوامر الوزير بمحاربتها. أرسل صاحب البصرة محمد بن يزداد فرقة من جنده لمنع جيش البريدي من دخول البصرة، فتلاقى الجيشان واقتتلوا قتالاً شديداً هزم فيه أصحاب ابن يزداد. ثمّ أعاد ابن يزداد جمع جيشه ووجّهه مجدداً، فالتقى الجيشان مرّة ثانية واقتتلوا فانهزم أصحاب ابن يزداد مجدداً، ودخل جيش

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨٤١ - ٨٤٢.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٢٠١.
(٣) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨٤٢.

البريـدي الـبصـرة وفـرّ ابـن يـزداد إلى الكوفة.[١]

كتب الوزير ابن رائق إلى البريدي يتهدّده ويأمره بإخراج جيشه من البصرة، فلم يفعل.[٢]

- **استيلاء بجكم على الأهواز:**

عند هذا الحدّ خلع الخليفة على القائد بجكم[٣] وعقد له الإدارة على الجيش وولاّه نيابة المشرق إلى خراسان وسيره لقتال ابن البريدي.[٤]

أرسل ابن البريدي جيشاً من ثلاثة آلاف مقاتل مع غلامه محمد الجمال الذي التقى بجيش الخليفة في السوس، فهُزم وعاد إلى ابن البريدي الذي عاقبه على هزيمته. ثمّ حشـد ابـن البريـدي سـتـة آلاف مـقـاتـل بـقـيـادتـه، فـالتقـاهـم بجكم وهزمهم أيضاً، فـركب ابـن البريـدي السـفـن وفـر إلى البصرة.[٥]

استولى بجكم على الأهواز وأقام ابن البريدي بالبصرة، فأرسل الوزير ابن رائق جيشاً في البر والبحر إليه، فانهزم جند البر، لكن جند البحر استولوا على الكلأ، ففر ابن البريدي إلى جزيرة «أوال» وترك أخاه أبا الحسين في البصرة لحمايتها فقاتله عليها جند الخليفة، فامتنعت عليهم.

سار ابن رائق بجيش إلى البصرة وعززه بجكم بجيشه، فتقدّموا وقاتلوا أهل البصرة، فاشتدّ القتال ودافع أهل البصرة عن مدينتهم التي امتنعت مجدداً على جيش الخليفة.

سار البريدي إلى عماد الدولة بن بويه واستجار به فاجاره. ثمّ إن جماعة من أصحاب البريدي قصدوا جيش الوزير ليلاً وصاحوا في جوانبه فانهزم، فسار الوزير به إلى الأهواز.[٦]

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٢٩ - ١٣٠.

(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨٤٤.

(٣) في ابن خلدون «يحكم».

(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٢٠١.

(٥) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨٤٤.

(٦) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٣١ - ١٣٢.

وفي السنة ست وعشرين وثلاثمائة سار معز الدولة ابن بويه إلى الأهواز فملكها بعد أن جرى قتال شديد بين جيشه وجيش بجكم انهزم فيه هذا الأخير. أما سبب الهزيمة فهو أن المطر انهمر أياماً كثيرة فعطّل أوتار أقواس الأتراك الذين لم يقدروا على رمي النشاب.[١]

وسار بجكم إلى بغداد فقلّده الراضي أمرة الأمراء مكان ابن رائق.[٢] وكتب الراضي إلى قواد ابن رائق يأمرهم بالرجوع إلى بغداد، ففارقوه وعادوا إليها. أما بجكم، فنزل بدار مؤنس واستقرّ أمره في بغداد.

١٣ - استيلاء اليشكري على أذربيجان ومقتله

في السنة السادسة والعشرين والثلاثمائة تغلب خليفة وشمكير، واسمه اليشكري[٣]، على أذربيجان، بعد أن جمع مالاً ورجالاً فسار إليها، فلقيه صاحبها ديسم بن إبراهيم الكردي الذي جمع جنده، فجرى قتال بينه وبين اليشكري فانهزم ديسم مرتين متتاليتين. واستولى اليشكري على أذربيجان باستثناء أردبيل التي عصت عليه لحصانتها وبأس أهلها.[٤]

حاصر اليشكري أردبيل وطال حصارها. وكان ينقب السور في مواضع عدّة فيدخل المدينة نهاراً ويخرج منها ليلاً، فيبادر أهل المدينة إلى إصلاح ثلم السور.

اتفق أهل أردبيل مع ديسم على أن يقصد مدينتهم ويهاجم اليشكري من الوراء فيما يخرج جيشهم منها ويهاجمه مواجهة. ونفذ هؤلاء وديسم خطتهم التي نجحت فهزم اليشكري أقبح هزيمة وقتل من أصحابه خلق كثير.[٥]

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٢٠٢.
(٢) ابن كثير، المرجع نفسه، ص ٢٠٢.
(٣) في ابن خلدون: «السيكري» - وفي ابن الأثير: «الشكري».
(٤) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨٤٨ - ٨٤٩.
(٥) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٤١.

ثمّ سار اليشكري بجنده إلى أرمينيا وأهلها غافلون، فنهب وغنم وسبى. لكن بعض الأرمن كمنوا له في أحد المضائق فقتلوه ومن معه، وانهزم الباقون، ولم يسلم منهم سوى القليل بعد أن رماهم الأرمن في المضيق بالحجارة وقتلوا منهم خلقاً كثيراً.

١٤ - مسير الخليفة لقتال ناصر الدولة

في السنة السابعة والعشرين والثلاثمائة سار الخليفة الراضي والقائد بجكم في جيش كبير إلى الموصل وديار ربيعة لقتال ناصر الدولة ابن حمدان الذي أخّر دفع المال المتوجّب عليه من ضمان البلاد التي في يده.[١]

التقى الجيشان بالكحيل على ستة فراسخ من الموصل فاقتتلا قتالاً شديداً هزم في نهايته جيش ناصر الدولة الذي سار إلى نصيبين فتبعه بجكم إليها، فانتقل إلى آمد.[٢]

في هذا الوقت ظهر الوزير ابن رائق واستولى على بغداد بمساعدة القرامطة من دون التعرّض لدار الخليفة، فأعطى الخليفة الأمر بعودة جيشه إلى بغداد بعد أن تصالح مع ناصر الدولة الذي دفع خمسمائة ألف درهم.[٣]

وكاتب ابن رائق الخليفة بالصلح فقلّده طريق الفرات وديار مضر بحرّان والرها وما جاورها وجند قنسرين والعواصم.

١٥ - استيلاء ابن رائق على الشام

في السنة الثامنة والعشرين والثلاثمائة دخل الوزير السابق ابن رائق بلاد الشام فقصد مدينة حلب وملكها. ثمّ سار منها إلى دمشق، وفيها بدر بن عبدالله الإخشيدي والياً من قبل إخشيد مصر، فأخرجه ابن رائق منها وملكها.[٤]

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٢٠٢.
(٢) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨٥٠.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٤٣.
(٤) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٢٠٥.

وسار ابن رائق من دمشق إلى الرملة فملكها، ثمّ سار إلى عريش مصر يريد الديار المصرية، فلقيه الإخشيد محمد بن طعج وحاربه فانهزم الإخشيد. ثمّ انشغل جند ابن رائق بالنهب، فخرج عليهم كمين للإخشيد فأوقع بهم وهزمهم وفرّقهم.[1]

نجا ابن رائق مع سبعين رجلاً إلى دمشق، فلاحقه جيش للإخشيد بقيادة أخيه أبا نصر بن طفج، فالتقى هذا الجيش مع جيش لابن رائق كان قد جمعه في اللجون فانتصر ابن رائق وقتل شقيق الإخشيد.[2]

ثمّ اعتذر رائق للإخشيد واصطلحا.

١٦ – وفاة الخليفة الراضي وبيعة المتقي لله

في منتصف ربيع الأول من السنة التاسعة والعشرين والثلاثمائة توفي الخليفة الراضي، فكانت مدّة خلافته ست سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام، وكانت علّته الاستسقاء.[3]

بويع إبراهيم بن المعتضد باسم المتقي لله، وبجكم القائد قابض على زمام الأمور في الدولة العباسية، فلم يكن للمتقي من النفوذ إلاّ اسم الخلافة. لكن التنافس على الحكم بين الأمراء أضعف أمير الأمراء بجكم رغم انتصاراته العسكرية العديدة.

١٧ – استيلاء أبي علي بن محتاج على الري

في السنة التاسعة والعشرين والثلاثمائة جرى قتال بين جيشين كبيرين على ملكية الري، وهما:[4]

- جيش أبي علي بن محمد بن المظفر بن محتاج.
- جيش صاحب الري وشمكير شقيق مرداويج بقيادة القائد «ماكان بن كالي».

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨٥٣.
(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٢٠٦.
(٣) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٥١.
(٤) المرجع نفسه، ص ١٥٣.

وقف ماكان بن كالي في قلب جيشه وباشر الحرب بنفسه. أما أبو علي فقد عبّأ جيشه كراديس، وأمر من بإزاء القلب أن يتطاردوا مع من يقابلهم. وأوصى الميمنة والميسرة بأن يناوشوا من يقابلهم مناوشة بمقدار ما يشغلونهم عن مساعدة من في القلب، ففعل جنده ذلك.

طمع جند القلب في جيش ما كان بالذين يقابلونهم، فلاحقوهم وتركوا مراكزهم. حينئذ أمر أبو علي الكراديس التي بإزاء الميمنة والميسرة بان يتقدّم بعضهم ويهاجم من في قلب جيش وشمكير وماكان، ويأتون من ورائهم، ففعلوا. ثمّ أمر أبو علي المتطاردين من قلب جيشه بالعودة إلى الهجوم على قلب ماكان، فرجعوا بعد ان قويت نفوسهم، وحملوا على قلب جيش ماكان الذي أصبح القتال من أمامه وورائه، فانهزم وأُخذت عناصره بالسيف.

قتل ماكان في هذه المعركة وفرّ وشمكير ومن سلم معه إلى طبرستان، واستولى أبو علي على الريّ.

إن الخطة التي استعملها أبو علي، أي تراجع القلب والهجوم بكماشة من الجانبين، هي خطة ممتازة سبق وطبّقها استراتيجيون قدماء أمثال هنيبعل والإسكندر المقدوني. كما أن خداع العدو باصطناع التراجع، ثمّ العودة لقتاله وتطويقه وإبادته، هما من الاستراتيجيات الناجحة في المعارك عبر الزمن. لذلك يمكننا التأكيد أن قادة كباراً كانوا يقودون الجيوش العربية الإسلامية خلال هذه المرحلة، كأبي علي ووشمكير ومرداويج وبجكم وغيرهم.[1]

١٨ – مقتل القائد التركي بجكم

في السنة التاسعة والعشرين والثلاثمائة قتل القائد بجكم في قتال مع الأكراد، نقل ابن الأثير روايته المذكورة في الملحق الرقم ٧ من هذ الكتاب.

ولمّا قتل بجكم اجتمعت الديلم على القائد بلسوار بن مالك بن مسافر، فقتله الأتراك، فجعل الخليفة عليهم سلامة

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ١٥٤.

الطولاني، لكنهم اختاروا أبا عبدالله البريدي أميراً عليهم فدخل بغداد، فلقيه الوزير أبو الحسن والقضاة والكتاب وأعيان الناس، فأنفذ إليه المتقي يهنئه بسلامته.(١)

لكن الجند الأتراك ثاروا على البريدي وطردوه من بغداد إلى واسط ونهبوا داره ودور قواده واختاروا أميراً عليهم كورتكين الديلمي.(٢)

وبمقتل القائد بجكم طويت صفحة مهمّة من صفحات تاريخ سيطرة القادة الأتراك على أمور الخلافة العباسية، لتنتقل هذه السيطرة إلى البويهيين في ما بعد.

١٩ - الدروس والعِبَر والنتائج

أ - ضيّق القائد مؤنس على الخليفة القاهر بقصد خلعه، فعمد هذا الأخير إلى بث بذور التفرقة بينه وبين مؤيديه بهدف القضاء عليه واعداً معاونيه بتوليتهم على مناطق من البلاد الإسلامية، الأمر الذي جعلهم ينفضّون عنه. وتعقّب الخليفة أنصار القائد وقتلهم فأمن بذلك خطرهم.

لقد أحسن الخليفة في تحقيق حرية عمله تجاه أعدائه الأقوياء.

ب - بعد قتل القائد مؤنس وأنصاره تراجع تأثير الضباط الأتراك تمشياً مع قاعدة «اضرب الرأس فتستكين القاعدة».

في هذه الأثناء بدأت أسرة آل بويه الفارسية تظهر على الساحة السياسية والعسكرية انطلاقاً من أصبهان وأذربيجان وصولاً إلى عاصمة الخلافة بغداد، تمشياً مع مبدأ «صعود الأمم وهبوطها».

فخلال العصر العباسي الأول سيطر العنصر الفارسي على مقدرات الخلافة وصولاً إلى عهد الخليفة المعتصم. لكن هذا الأخير، وتلافياً لتسلّطهم، اعتمد على الجند الأتراك الذين سيطروا على الخلافة ابتداءً من عهده، فاضطرّ لبناء مدينة خاصة بهم وإبعادهم عن العاصمة. ومع تراجع دور الأتراك برزت أسرة آل بويه الفارسية.

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨٥٧.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٢١٢ - ٢١٣.

فالفراغ السياسي والعسكري الذي خلّفه الأتراك، ملأته قوّة عسكرية جديدة كانت ما تزال قوية ومتماسكة.

كتب ابن خلدون عن ذهاب الملك عن بعض الشعوب وعودته إلى شعب آخر يتمتع بالعصبية:(١)

«فإذا تعيّن أولئك القائمون بالدولة انغمسوا في النعمة وغرقوا في بحر الترف والخصب واستعبدوا إخوانهم من ذلك الجيل وانفقوهم في وجوه الدولة ومذاهبها... فطبختهم الدولة وأكل الدهر عليهم وشرب بما أرهف النعيم من حدّهم واشتفت غريزة الترف من مائهم وبلغوا غايتهم من طبيعة التمدّن الإنساني والتغلّب السياسي.

كانت حينئذٍ عصبية الآخرين موفورة وسورة غلبهم من الكاسر محفوظة وشارتهم في الغلب معلومة. فتسمو آمالهم إلى الملك الذي كانوا ممنوعين منه بالقوة الغالبة من جنس عصبيتهم وترتفع المنازعة لما عرف من غلبهم فيستولون على الأمر ويصير إليهم. وكذا يتفق فيهم مع من بقي أيضاً منتبذاً عنه من عشائر أمتهم. فلا يزال الملك ملجأ في الأمة إلى أن تنكسر سورة العصبية منها أو يفنى سائر عشائرها سنّة الله في الحياة والدنيا والآخرة...».

ج - بعد أن فتح عماد الدولة بن بويه قلاع الخرمية وصادر أموالهم، أحسن استعمال هذه الأموال لاستمالة المجموعات المقاتلة إلى جانبه تطبيقاً لمبدأ الحرب الثالث أي الحصيل الأقصى للوسائل. فالمال وسيلة لتأليب القوى حول القائد، وليس غاية في حدّ ذاته.

في المقابل، ولما استأمنت مجموعة من جنوده إلى خصمه ابن ياقوت، أمّنهم ثمّ غدر بهم وقتلهم، فأيقن الباقون مع ابن بويه أنه لا أمان لهم إلاّ بالقتال، فاستماتوا فيه وانتصروا. لقد أخطأ ابن ياقوت في استخدام وسائل الحرب النفسية لاستمالة جنود خصمه.

وعندما جهّز هذا الأخير جيشاً كبيراً ووجهه لقتال ابن بويه، وبعد أن تأكّد هذا

(١) مقدّمة ابن خلدون، دار الفكر، بيروت، ص ١١٥ - ١١٦.

الأخير أن ميزان القوى ليس لمصلحته، ابتعد عن ساحة القتال تمشياً مع مبدأ الحرب الأول أي نسبية الأهداف للوسائل. كما منع جنوده من النهب قبل تحقيق النصر النهائي في القتال ضد ابن ياقوت، وذلك لإبقاء حماسهم للقتال على أشدّه.

وهكذا يكون ابن بويه قد طبّق مبادىء الحرب الثلاثة تطبيقاً جيداً فانتصر على خصمه.

د – شغب الجند في بغداد وفرضوا على الخليفة الراضي بالله استبدال أحد وزرائه، الأمر الذي أطمع القادة الأتراك والجند والغلمان في أواخر العصر العباسي الثاني بالخلافة. وهكذا سيطر القائد محمد بن رائق على بغداد ولقب بـ«أمير الأمراء»، وخُطب له على المنابر، واستقلّ نواب الأطراف في مختلف ولايات الدولة العباسية.

فالفراغ العسكري في السلطة المركزية يملأه الأقوى على الساحة فيُحتكم عند ذلك إلى السيف، ويتراجع تأثير الحاكم على شعبه. وهذا ما حصل في عهد الخليفة الراضي.

هـ – خلال القتال بين ابن بويه وعلي بن الزنجي حاول كلّ من القائدين مفاجأة خصمه، فسار ابن بويه في جيشه سراً كي يغدر بغريمه. لكن ابن الزنجي كان قد جنّد جواسيس داخل جيش خصمه أعلموه عن تحرّكه فنصب له كميناً في مضيق على الطريق وأوقع به وانتصر عليه.

وفي هذا الصدد، لا بدّ من التعليق على أهمية جمع المعلومات عن العدو قبل خوض المعارك ضده، وهذا ما تقوم به حالياً وسائل الاستعلام في الجيوش الحديثة. أما الجيوش الإسلامية، فقد اعتمد بعض قادتها كعلي بن الزنجي هذا النوع من الاستعلام الذي أعطى نتائج ممتازة في القتال.

و – أخطأت الساجية والحجرية في تقدير مدى قوتهما مقابل قوة جيش الخليفة الراضي فأخلّتا بمبدأ الحرب الأول أي نسبيّة الأهداف للوسائل. فوسائلهما العسكرية لم تكن تسمح لهما بمجابهة الجيوش العباسية المتفوّقة في العديد والعتاد. لذلك نكبتا وقتل عدد كبير من رجالهما واعتُقل الباقون.

هذا الخطأ في تقدير ميزان القوى تكرّر مع ابن البريدي والي الأهواز الذي أخلّ بوعده للخليفة بإرسال الأموال وتسليم جيشه إلى الوالي الجديد. كما رفض الخروج من البصرة بعد احتلاله لها رغم عدم تطبيقه لمبدأ الحرب الأول.

وبالفعل سيّر الخليفة جيشاً كبيراً بقيادة القائد بجكم هزم جيوش عدّة لابن البريدي واستولى على الأهواز.

ز - خلال القتال بين القائد اليشكري وجند أرمينيا، ورغم تفوّق جيش الأول العددي، كمن الأرمن له في أحد المضائق فانتصروا عليه وقُتل عدد كبير من جنده.

إن اعتماد فكرة الكمائن في الممرات الإلزامية والمضائق، حيث يمكن حصر العدو والتحكّم فيه، هو تدبير ما زال معمولاً به حتى أيامنا في الحروب التقليدية حيث تُمكن مجابهة عدو يفوق القوى الصديقة عدداً، والانتصار عليه كما فعل الأرمن في تلك الأيام بنجاح. فمبادىء الحرب وقواعد الفن العسكري ثابتة مع الزمن فيما الوسائل والإمكانات تتغيّر وتتبدّل.

فالكمين يسمح للقائمين به تطبيق مبدأ الحرب الثاني أي حرية العمل، وقواعد المفاجأة واختيار المكان وحسن استعمال الأرض. أما إدخال الجيش في المضائق والممرات الالزامية فينبغي أن يسبقه تركيز مفارز من الجند على رؤوس الجبال والتلال المشرفة على المكان بهدف عدم التعرّض لمفاجآت غير محمودة النتائج.

ح - سار الخليفة الراضي على رأس جيش كبير إلى الموصل وديار ربيعة لقتال ناصر الدولة بن حمدان دون أن يحتفظ بقسم من جنده لحماية بغداد التي اغتنم الوزير ابن رائق فرصة غيابه عنها فسيطر عليها واضطر الخليفة إلى مصالحته.

إن حماية مراكز القيادات العامة ينبغي أن يؤمن بصورة دائمة، لأن وقوعه بيد العدو قد يؤدي إلى خسارة الحرب.

ط - أما الوزير ابن رائق، فبعد ان سيطر على بلاد الشام وهزم جيشين مصريين يقود أحدهما الاخشيد محمد بن طفج، انشغل جنده بالنهب فخرج عليه كمين للإخشيد أوقع بجيشه وهزمه وفرّق جنده.

وسبب خسارة ابن رائق المعركة على أبواب مصر كان انشغال جيشه بالنهب وانصرافه عن القتال إلى الحصول على ممتلكات العدو. وهذا الأمر كان شائعاً في الحروب القديمة.

علاوة على ذلك، وخلال الحملات الكبرى وإثر المعارك الناجحة المتتابعة، تتكدّس لدى القادة والجنود كميات وافرة من الغنائم تصبح المحافظة عليها عملية صعبة. لقد سبق ورأينا في الجزء السابع من هذه الموسوعة أن أهم أسباب خسارة عبد الرحمن الغافقي معركة بلاط الشهداء (أو بواتييه) كان رغبة مقاتليه في المحافظة على غنائمهم بعد أن تردد ان فرقة من فرسان شارل مارتيل اتجهت إلى معسكر الغنائم للاستيلاء عليه. وهكذا ترك الجنود ميدان القتال وتوجهوا إلى معسكر الغنائم، ولم تنفع محاولات عبدالرحمن لإعادتهم، فخسر المسلمون المعركة.

ملحق رقم ٧

سيرة القائد بجكم

كتب ابن كثير عن بجكم:[١]

«أمير الأمراء ببغداد، قبل بني بويه، كان عاقلاً يفهم بالعربية ولا يتكلّم بها. يقول أخاف أن أُخطىء والخطأ من الرئيس قبيح. وكان مع ذلك يحب العلم وأهله، وكان كثير الأموال والصدقات. ابتدأ يعمل مارستان ببغداد فلم يتم، فجدده عضد الدولة بن بويه. وكان بجكم يقول: العدل ربح السلطان في الدنيا والآخرة. وكان يدفن أموالاً كثيرة في الصحراء، فلما مات لم يُدر أين هي. وكان ندماء الراضي قد التفّوا على بجكم وهو بواسط، وكان قد ضمنها بثمانمائة ألف دينار من الخليفة، وكانوا يسامرونه كالخليفة، وكان لا يفهم أكثر ما يقولون. وراض له مزاجه الطيب سنان بن ثابت الصابي حتى لأن خلقه وحسنت سيرته، وقلت سطوته، ولكن لم يعمر إلاّ قليلاً بعد ذلك. وقد دخل عليه مرّة رجل فوعظه فأبكاه فأمر له بمائة ألف درهم، فلحقه بها الرسول فقال بجكم لجلسائه: ما أظنه يقبلها ولا يريدها، وما يصنع هذا بالدنيا؟ هذا رجل مشغول بالعبادة، ماذا يصنع بالدراهم؟ فما كان بأسرع من أن رجع الغلام وليس معه شيء، فقال بجكم: قبلها؟ قال: نعم! فقال بجكم: كلنا صيادون ولكن الشباك مختلفة. توفي لسبع بقين من رجب من هذه السنة.[٢] وسبب موته أنه خرج يتصيّد فلقي طائفة من

---

(١) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٢١٤.

(٢) سنة ٣٢٩هـ.

الأكراد فاستهان بهم فقتاتلوه فضربه رجل منهم فقتله. وكانت إمرته على بغداد سنتين وثمانية أشهر وتسعة أيام. وخلّف من الأموال والحواصل ما ينيف على ألفي دينار، أخذها المتقي بالله كلها».

وكتب ابن الأثير عن مقتله:(١)

«وفي هذه السنة قُتِل بجكم، وكان سبب قتله أن أبا عبدالله البريدي أنفذ جيشاً من البصرة إلى مذار فأنفذ بجكم جيشاً إليهم عليهم توزون فاقتتلوا قتالاً شديداً كانت أولاً على توزون. فكتب إلى بجكم يطلب أن يلحق به، فسار بجكم إليهم من واسط منتصف رجب، فلقيه كتاب توزون بأنه ظفر بهم وهزمهم. فأراد الرجوع إلى واسط فأشار عليه بعض أصحابه بأن يتصيّد فقبل منه وتصيّد حتى بلغ نهر جور. فسمع أن هناك أكراداً لهم مال وثروة فشرُهَت نفسه إلى أخذه فقصدهم في قلّة من أصحابه بغير جنة تقيه، فهرب الأكراد من بين يديه. ورمى هو أحدهم فلم يصبه، فرمى آخر فأخطأه أيضاً وكان لا يخيب سهمه. فأتاه غلام من الأكراد من خلفه وطعنه بالرمح في خاصرته وهو لا يعرفه فقتله بين الطيب والمذار وذلك لأربع بقين من رجب».

---

(١) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٥٤.

ملحق رقم ٨

العمليات ضد الروم في أواخر العصر العباسي الثاني

في السنة الثانية والعشرين والثلاثمائة سار الدمستق قرقاش في خمسين ألفاً من الروم إلى ملطية فحاصرها مدّة طويلة هلك أكثر أهلها خلالها جوعاً. ثمّ أمّن أهلها، وافتتح سميساط وخرّب أعمالها، وفتح جَنَوة، ثمّ مربسردينيا فأوقع بأهلها، ثمّ أحرق مراكب قرقيسيا.(١)

وفي السنة الثالثة والعشرين والثلاثمائة سيّر القائم الفاطمي من أفريقيا جيشاً في البحر إلى جنوه فافتتحها، ثمّ إلى سردينيا التي أوقع بأهلها وأحرق مراكب كثيرة لهم، ثمّ إلى قرقيسيا التي أحرق مراكبها.(٢)

وفي السنة الخامسة والعشرين والثلاثمائة ثار أهل جرجنت(٣) على أميرهم سالم بن راشد، وكان عليهم من قبل صاحب أفريقيا، فسيّر إليهم جيشاً كبيراً من أهل صقلية وأفريقيا، فاقتتلوا أشد اقتتال فهُزم جيش الوالي. ثمّ عزز القائم الفاطمي جيشه في صقلية فحصّن أهل جرجنت مدينتهم واستعدوا للحرب.

وبالفعل وقعت معركة شديدة خرج خلالها أهل جرجنت من مدينتهم واحتدم القتال واشتدّ الأمر، وبقي الحصار على المدينة ثمانية أشهر لم يخلُ منها يوم من قتال، إلى أن حلّ الشتاء فرحل الجيش المحاصر عنها.(٤)

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، جزء ٦، ص ٨٥٣ - ٨٥٤.

(٢) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١١٥.

(٣) جرجنت: مدينة في صقلية.

(٤) ابن الأثير، مرجع سابق، جزء ٧، ص ١٣٢ - ١٣٣.

استنجد أهل جرجنت بملك الروم فأمدّهم بالمراكب والرجال؛ فاستمدّ أمير صقلية صاحب أفريقيا فأمدّه أيضاً بجيش كبير حاصر قلاعاً عدّة في صقلية وافتتحها.

دام حصار جرجنت حتى السنة تسع وعشرين وثلاثمائة حين سار قسم كبير من أهلها إلى بلاد الروم وطلب الباقون الأمان فأمّنهم أمير صقلية على أن ينزلوا من القلعة. فلما نزلوا منها غدر بهم، فحمل وجهاءهم في مركب سار به إلى أفريقيا، وأمر بنقبه وهو في لجّة البحر، فغرق من كان على متنه. فلمّا رأى أهل سائر القلاع ذلك أطاعوا، فعادت البلاد الإسلامية إلى الطاعة.[1]

وفي السنة السادسة والعشرين والثلاثمائة جرى الفداء بين المسلمين والروم، بعد أن ورد كتاب ملك الروم إلى الراضي مكتوب بالرومية والتفسير بالعربية، يطلب فيه الهدنة، ووجهت مع الكتاب الهدايا الفاخرة، فأجابه الخليفة إلى ذلك. أما عدد الأسرى الذين فودي بهم، فكان ستة آلاف ما بين ذكر وأنثى على نهر البدندون.[2]

(١) ابن الأثير، المرجع نفسه، ص ١٣٣.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، جزء ١١، ص ٢٠١ - ٢٠٢.

الخلاصة

بعدما عرضنا المعارك التي وقعت خلال العصر العباسي الثاني، الذي تميّز بسيطرة الضباط الأتراك على الخلافة، نعُود إلى بدايات هذا العصر لنرى المراحل التي مرّت بها هذه السيطرة منذ خلافة الواثق (ابن المعتصم). لقد شكلت خلافته مرحلة انتقالية في الدولة العباسية من سيطرة الخلفاء إلى سيطرة الضباط الأتراك، وصولاً إلى المتقي الذي شكلت خلافته أيضاً مرحلة انتقالية من سيطرة الأتراك إلى سيطرة آل بويه على شؤون الخلافة.

فالصراع بين الخلافة والجيش بدأ في عهد الواثق، وقوي في عهد المتوكل، فأخذ كلّ منهما يعمل على إزاحة الآخر والقضاء عليه. وكانت محاولة المتوكل جريئة لكنها صعبة جداً ومكتوب لها الفشل، لأن نفوذ الضباط الأتراك كان قد ازداد رسوخاً وقوّة، مما أدى إلى إضعاف المتوكل وقتله على يد أحد القادة الأتراك.

ونظراً إلى سيطرة القوة العسكرية التركية على مراكز الحكم في العاصمة الجديدة سامراء، وثمّ بغداد، فإن محاولات الخلفاء لاستعادة دورهم كان مكتوباً لها الفشل. كما أن تحكّم الضباط الأتراك بالخلفاء، وصولاً إلى عزلهم وقتلهم أحياناً، عمل على إضعاف دور الخلافة في الدولة العباسية. إلاّ أن ذلك لم يمنع بعض الخلفاء عن لعب دور بارز في أحداث هذه الحقبة من التاريخ الإسلامي.

وقد رأينا من خلال فصول هذا الجزء أن الحكم التركي مرّ بمراحل أربع خلال العصر العباسي الثاني. في المرحلة الأولى

كان النفوذ التركي قد تعاظم متزامناً مع مرحلة فوضى في الحكم. المرحلة الثانية عرفت مرحلة استقرار وانتعاش للخلافة، فيما عاد النفوذ التركي إلى التعاظم خلال المرحلة الثالثة، فإلى التراجع خلال المرحلة الرابعة.

ففي عهد الخلفاء الخمسة الأوائل بلغ التسلّط التركي على شؤون الخلافة أشدّه، خاصة بعد مقتل المتوكل واستسلام خلفائه لرغبة القادة الأتراك. دامت هذه المرحلة من سنة ٢٤٧هـ إلى السنة ٢٥٦ هجرية، تحول خلالها الخلفاء المنتصر والمستعين والمعتزّ والمهتدي إلى سجناء في قصورهم. كما قتل بعضهم بأيدي القادة الأتراك.

تزامنت هذه المرحلة مع محاولة للخليفة المهتدي، آخر الخلفاء الخمسة الأول، التخلّص من الهيمنة التركية بضرب القادة الأتراك ببعضهم البعض. لكن هذه المحاولة لم تنجح وانتهت بمقتله، رغم أنها أسست للمرحلة الثانية حين انتعشت الخلافة.

بدأت المرحلة الثانية بالمعتمد، وشملت كلاً من المعتضد والمكتفي، وعرفت الخلافة العباسية خلالها مرحلة هدوء وانتعاش وعودة بعض الأهمية إلى مركز الخلافة. ففي عهد المعتمد كانت السلطة الحقيقية، كما رأينا، لأخيه الموفق الذي كان قائداً للجيوش العباسية أيضاً وانتصر في غالبية معاركه وأنهى ثورة الزنج. لذلك قبل زعيم الأتراك يومذاك موسى بن بغا بزعامة الموفق.

والموفق هو الذي أنقذ الخلافة العباسية يومذاك من حركات التمرّد ومن خطر التفكّك والانهيار، وبذلك استعادت هذه الخلافة هيبتها ونفوذها.

وجاء إلى الخلافة بعد المعتمد أبو العباس بن الموفق (المعتضد) الذي كان قد تدرّب على يدي والده وسار على خطاه في ضبط الشؤون العسكرية والسياسية والإدارية في الدولة، فقضى على الثورات في الداخل خاصة ثورات القرامطة. من جهة أخرى عمل المعتضد على رفع المظالم عن الناس وتخفيف الضرائب عنهم ومساعدة المزارعين، مما وثّق العلاقة بينه وبين الشعب وزاد نفوذه قوّة.

وتابع ابنه المكتفي سياسة أبيه في إدارة شؤون الدولة رغم أنه كان ينقصه حزم والده وشدّته؛ لذلك وقع تحت تأثير معاونيه من

القادة الأتراك، فعادت الأزمات السياسية إلى الدولة لاسيما حركات القرامطة.

ورغم أن المكتفي تمكّن من إنهاء حركات التمرّد الداخلية واعتنى بأمر الولايات التي قويت تبعيتها للخلافة، فإنه أعاد من جهة أخرى هيمنة الضباط الأتراك الذين شاركوه في الانتصارات على حركات العصيان والثورات ضد الحكم.

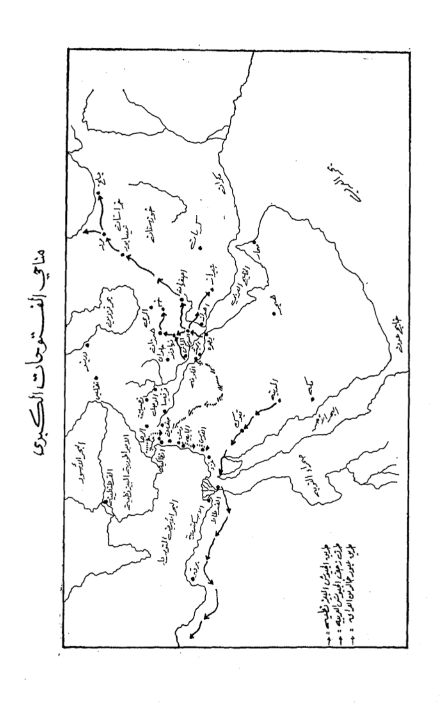
وهكذا، وبوفاة المكتفي، عاد الضباط الأتراك لفرض الخليفة الذي يريدون والذي يحافظ على مصالحهم. وعاد الصراع مجدداً بين مؤسّسة الخلافة والجيش الذي كان يسيطر عليه هؤلاء الضباط الأتراك، وبالتالي انتهت مرحلة الهدوء والتوازن داخل الدولة العباسية.

المرحلة الثالثة هي التي عاد فيها النفوذ التركي، وقد بدأت مع المقتدر الذي ولاه الضباط الأتراك الخلافة وهو ابن ثلاث عشرة سنة. لذلك غرق في اللهو والمرح وترك شؤون الدولة لهؤلاء الضباط، فعظم شأن القائد التركي مؤنس الذي أصبح الخليفة ألعوبة بيده، وصولاً إلى تغيير الخليفة وتسمية القاهر خليفة. لكن الجند ثاروا وأعادوا المقتدر الذي حاول تقوية نفوذه من خلال ضرب القادة الأتراك ببعضهم البعض. غير أن محاولته أدّت إلى وقوع معركة بينه وبين القائد مؤنس، وإلى مقتل الخليفة السنة ٣٢٠هـ.

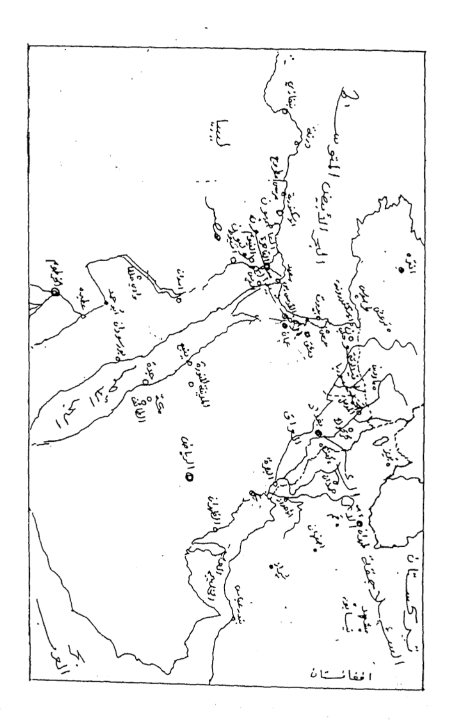
بدأت المرحلة الرابعة بتسلّط القائد مؤنس الذي أعاد الخليفة القاهر، فلما لم يستطع تأمين الأموال له ثار عليه مؤنس. إلاّ أنّ الخليفة انتظر الفرصة المناسبة فقتل مؤنس واثنين آخرين من قواد الأتراك.

غير أن القاهر لم يستطع منع ثورة الوزير ابن مقلة عليه الذي هاجم قصره وخلعه وسمل عينيه سنة ٣٢٢هـ.

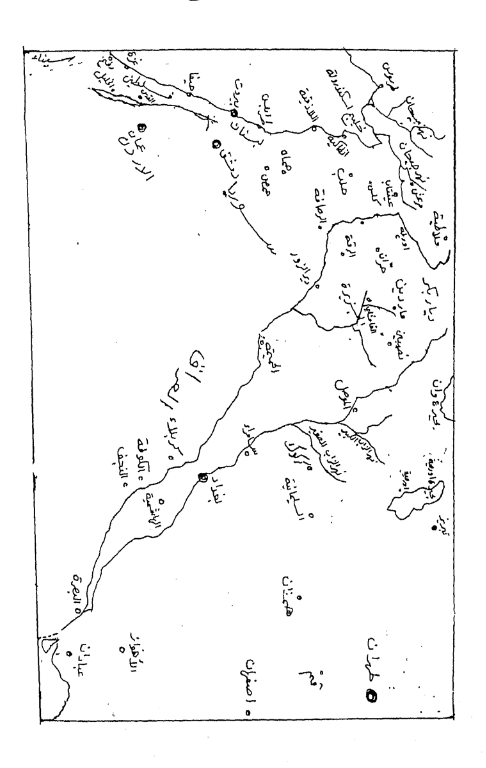
وبويع بعده للراضي الذي ارتبطت خلافته بظهور منصب رفيع جديد في الدولة هو منصب «أمير الأمراء» الذي راح يتحكّم بأمور الخلافة وأصبح النفوذ كلّه بيديه. وبعد الراضي بويع المتقي الذي كانت خلافته مشحونة بالأحداث الجسام، والذي سنرى في الجزء اللاحق أن مرحلة خلافته كانت تمهيداً لانتهاء هيمنة الضباط الأتراك على الحكم وانتقال هذه الهيمنة إلى الأسرة البويهية.


مناحي الفتوحات الكبرى

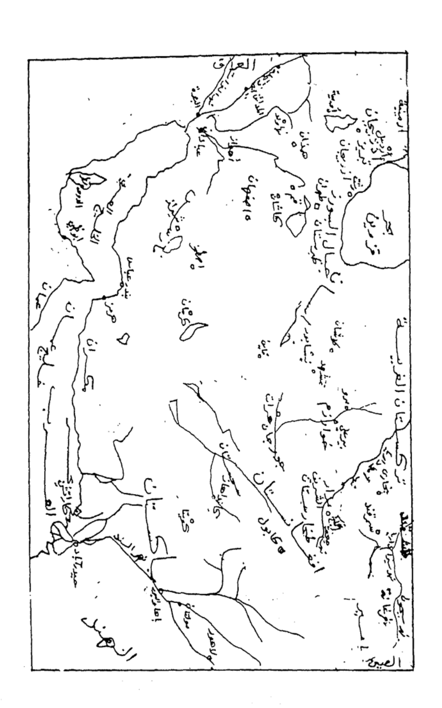
العالم الإسلامي الشرقي



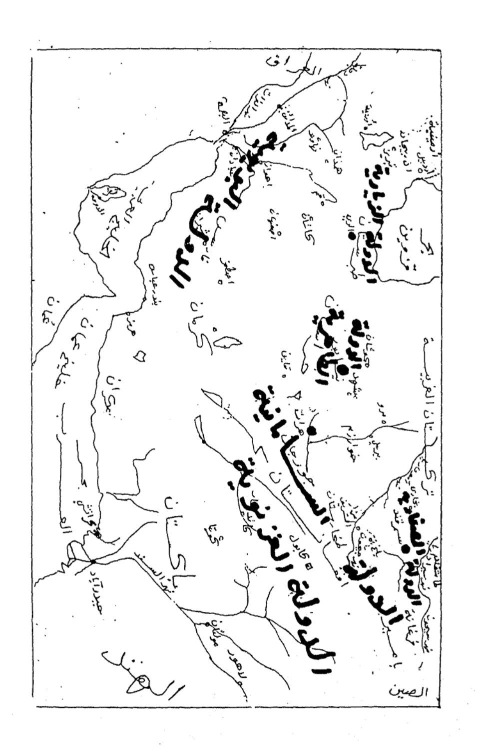
المدن والمواقع



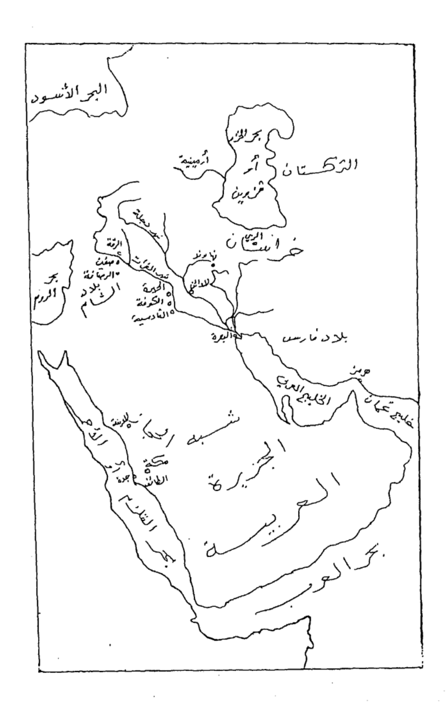
الولايات الشرقية



الدول المستقلّة في الشرق الإسلامي



بلاد فارس

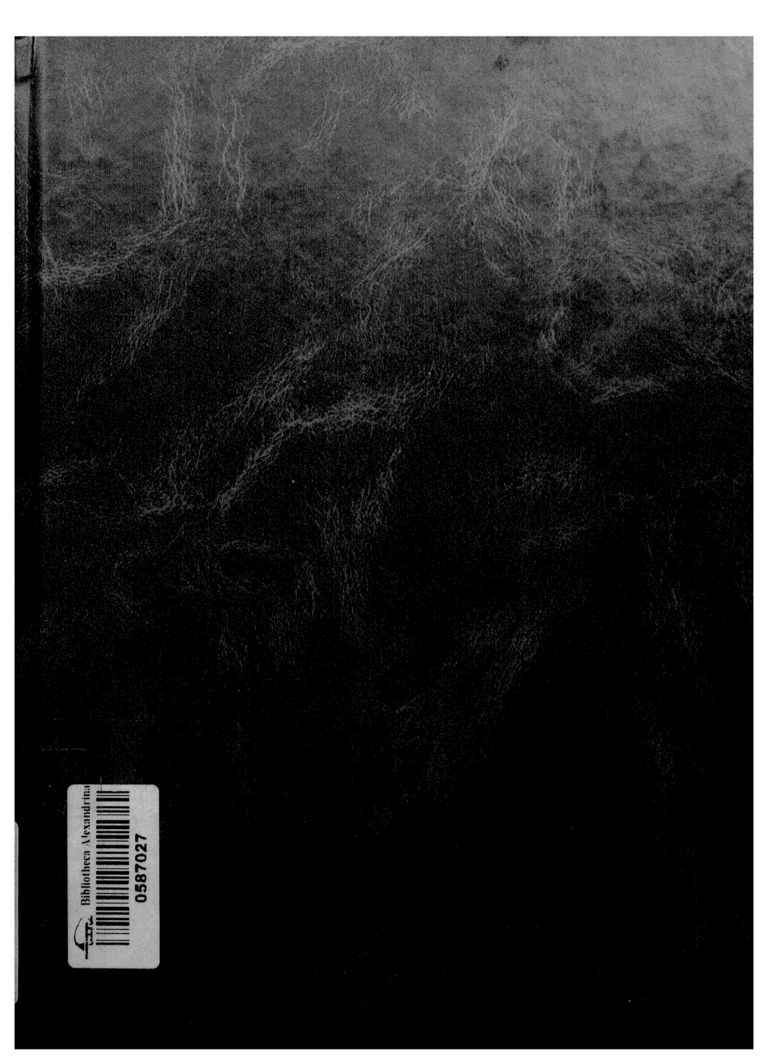

البحر الأسود
بحر الخزر
أرمينية
أو
قزوين
التركستان
نهر دجلة
الري
خراسان
نهاوند
الرقة
صفين
الرها
نهر الفرات
بحر الروم
بلاد الشام
الحيرة
الكوفة
القادسية
المدائن
البصرة
بلاد فارس
هرمز
الخليج العربي
خليج عمان
المدينة
مكة
الطائف
جدة
الجزيرة العربية
بحر العرب



فهرس الجزء (١١)

الخرائط:




Bibliotheca Alexandrina
0587027